التعليم في بلاد الشام
في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

د. عبد الكريم اليافي

تتقدم بين يدي هذا البحث توطئتان وجيزتان :

الأولى توضح ما يراد ببلاد الشام وسكانها •

والثانية ترسم الاطار الزمني السياسي الذي جرى فيه التعليم أي تبرز تسلسل السلاطين العثمانيين ومحاولات اصلاحهم له •

ويضم معظم البحث أساليب التعليم ومدارسه فينقسم أربع مراحل واسعة :

١ ـ ما قبل التنظيمات •
٢ ـ ما بعد التنظيمات •
٣ ـ ما بعد الدستور •
٤ ـ ضروف الحرب وما بعدها •

ويلتحق بهذا الموضوع اشارات خاطفة الى الأحوال العامة التي خامرت بلاد الشام وبعض العوادي الطبيعية التي ألمّت بها •

وكذلك يتصل به ماقام الى جانب شؤون التعليم ووراء المدارس من جماعات خيرية تتعهدها ، ومن مطابع تحل بالتدريج محل الأنامل التي كانت تتعب في نسخ المتون والشروح والحواشي ، ومن مكتبات عامة وأهلية تضم الكتب المخطوطة والمطبوعة ، ومن أعلام ظهروا في سماء تلك الحقبة الطويلة كالنجوم وانما هم ثمرات ذلك التعليم •

وتأتي الخاتمة لتحكم على حصيلة تلك المراحل ، ولتتفاءل على الرغم من تجزئة بلاد الشام بعد أن كانت واحدة ، فتنوه بتقدم دولها الناشئة وبتضامنها الأخوي وباستشرافها حياة انسانية سليمة وكريمة وراقية ·

هذا ولا يمكن لهذا البحث أن يستقصي تفاصيل الموضوع الواسع وفروعه لتطاول الحقبة التي يعالجها وتشتت المراجع التي تمسُه · فلا بد من الاقتصار على الملامح العامة والاتجاهات الهامة والاشارات البارزة الموحية ·

ولعل في القليل الواضح المحكم ما يغني عن الكثير المختلط المبهم ·

والله المستعان في كل شأن ·

□ توطئة أولى :

جاء في « معجم البلدان » لياقوت الحموي الذي أنهى تأليفه في عام ٦٢٥ هـ = ١٢٢٨ م في مادة الشام بسكون الهمزة وبفتحها وبغير همز أي بالألف الليّنة وبالهمزة الممدودة أن حد الشام « من الفرات الى العريش المتاخم للديار المصرية. وأما عرضها فمن جبلَي طيء (أجأ وسلمى) من نحو القبلة الى بحر الروم (البحر المتوسط) ··· وبها من أمهات المدن منبج وحلب وحماة وحمص ودمشق والبيت المقدس والمعرة · وفي الساحل أنطاكية وطرابلس وعكا وصور وعسقلان وغير ذلك · وهي خمسة أجناد: جند قنّسرين وجند دمشق وجند الأردن وجند فلسطين وجند حمص ··· ويُعد في الشام أيضاً الثغور وهي المصيصة وطرسوس وأذنة وأنطاكية وجميع العواصم من مرعش والحدث وبغراس والبلقاء وغير ذلك » · ويراد في النص بالأجناد التقسيمات الادارية الخمسة التي سبق ذكرها · واللفظ جمع جند يطلق على المدينة وعلى تجمع القرى · وقد خصه أبو عبيدة بن الجراح بمدن الشام · ويراد بالعواصم حصون موانع وولاية تحيط بها بين حلب وانطاكية سميت كذلك لأن المسلمين كانوا يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم من العدو اذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغور ·

وفي مادة سورية من معجم البلدان أيضاً « أن الروم لما هُزموا في وقعة اليرموك وجاء خبر هزيمتهم هرقل وكان بأنطاكية خرج يريد القسطنطينية وصعد على نشز وقال: سلام عليك يا سورية سلام مودع لا يرجو أن يرجع اليك أبداً · ثم

قال : ويحك أرضاً ! ما أنفعك أرضاً ... لكثرة ما فيك من العشب والخصب ثم انه مضى الى القسطنطينية » .

وهكذا نجد منذ القديم أن الشام أوسورية (نستعمل اللفظين مترادفين) بلاد واسعة تمتد من جبال طوروس شمالا الى سيناء وخليج العقبة والعريش جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً الى الفرات وآخر بادية الشام شرقاً وتشمل الثغور الشمالية التي وردت أسماؤها آنفاً .

وسكان هذه البلاد منذ القديم يتألفون في غالبيتهم العظمى من قبائل عربية . أشار الى ذلك مؤلفون وشعراء كُثر حسبنا هنا أبيات قالها أحمد بن المدبّر الكاتب وذكرها معجم البلدان هذه بعض أبياتها :

وكم بالشام من شرف وفضل — ومرتقب لدى بَرٍّ وبحر

بلاد بارك الرحمن فيها — فقدّسها على علم وخُبر

بها غُرَرُ القبائل من معدّ — وقحطانٍ ومن سروات فهر

أناس يكرمون الجار حتى — يجير عليهم من كل وتر

□ توطئة ثانية :

هلّ القرن التاسع عشر وسورية ولاية في الدولة العثمانية والسلطان العثماني هو سليم الثالث (١٧٨٩ ـ ١٨٠٧) تولى الحكم في السنة التي اشتعلت فيها الثورة الفرنسية وكانت التربية والتعليم شأنهما في سورية كشأنهما في الدولة العثمانية. ومن المناسب أن نقول: ان العثمانيين لما أنشؤوا دولتهم كانوا متأثرين بأنماط الحياة الثقافية الاسلامية وبوجوهها المختلفة . فهم وان برّزوا على الصعيد العسكري اذ ذاك كانوا مندمجين في أصول التربية والتعليم الاسلاميَّيْن . ولذلك لم يفرض العثمانيون أول الأمر على الولايات الجديدة التي دخلت في حوزتهم تنظيمات جديدة بل كانوا يكتفون بالسيطرة عليها عسكرياً وسياسياً ويدعون لشعوبها تنظيماتهم ولا سيما أن هذه التنظيمات في سورية موازية للتنظيمات التي في بلادهم . بل كانوا يستقدمون العلماء المسلمين الى بلادهم ليستفيدوا منهم في الأمور الشرعية . ولما استولى السلطان سليم على سورية (عام ١٥١٦) ثم على مصر (١٥١٧) قدم عليه العلماء ليهنئوه بالفتوح اذ خلص البلاد

من ظلم المماليك . ومنذ ذلك الوقت ارتبط سكان سورية بالعثمانيين وكانت رابطة الدين هي العروة الوثقى التي تجمع بينهم .

وبدأ الافتراق والكراهية ينتشران بين الترك والعرب في غضون القرن التاسع عشر لأسباب مختلفة ، أبرزها انتشار الفساد في سائر أنحاء الدولة وتغلغل التأثيرات الأجنبية الغربية في البلاد بين ظهراني الترك وبين ظهراني العرب ولا سيما تسرب النظريات والأفكار القومية وتعرُّض البلاد جميعها لنكسات وفتن خارجية وداخلية وسرعة سير الدولة في طريق التداعي والانهيار . ومن الطبيعي أن تتعرض شؤون التربية والتعليم في سورية للصروف السياسية والاجتماعية التي كانت تعصف بتلك الدولة . ولهذا لا بد من عرض هذه الصروف موجزة كي نتبين فيما بعد على صعيدها أحوال التعليم والتربية .

جرت محاولات في مستهل القرن التاسع عشر لاصلاح أحوال البلاد الداخلية كي تتماسك تلقاء الأخطار العديدة التي تتهددها داخلياً وخارجياً . وقد أراد السلطان سليم الثالث أن يعيد بناء الدولة على أسس غربية وأن يؤلف جيشاً جديداً حسب أحدث النظم الفرنسية فأنشأ وحدات عسكرية حديثة عُرفت بالنظام الجديد وعمد الى انشاء المدارس وجعل اللغة الفرنسية اجبارية فيها وأرسل بعض البعثات وطفقت المدارس العسكرية والبحرية التي أنشئت تخرج ضباطاً مدربين على الطراز الغربي . ولكن هذه الاصلاحات أثارت عليه نقمة الجيش القديم المؤلف من الانكشارية فأطاحوا به وأبطلوا اصلاحاته . وبويع ابن عمه مصطفى الرابع بن عبد الحميد الأول في أيار عام ١٨٠٧ . ولكن لم يطل حكمه اذ خلع في السنة التالية عام ١٨٠٨ . ونصب أخوه محمود الثاني (١٨٠٨ – ١٨٣٩) وقدّر له أن يحكم مدة أطول . وفي عهده بدأت المرحلة الثانية من الاصلاحات فقد قضى على الجند القديم وأباد الانكشارية عام ١٨٢٦ وأسس نظاماً جديداً سماه العساكر المحمدية المنصورة . ومن أهم أعماله افتتاحه مدارس ابتدائية رُشدية في المملكة عام ١٨٣٨ . ومن الاجراءات الهامة التي اتخذها انشاء مديرية خاصة لتنظيم أمور الأوقاف التي كانت تشرف على التعليم الديني . وفي أيامه استولى ابراهيم باشا بن محمد علي على بلاد الشام عام ١٨٣١ وبقي فيها نائباً عن والده حتى نهاية ١٨٤٠ حين اضطر الى

التخلي عن الحكم والجلاء عن سورية بنتيجة ضغط الدول الأوربية • وقد امتاز عهده بالتسامح وبوادر الوعي بالقومية العربية •

توفي السلطان محمود عام ١٨٣٩ وخلفه ابنه السلطان عبد المجيد فبدأ عهداً جديداً دعي بالتنظيمات الخيرية وأعلن ما اشتهر بفرمان الكلخانة عام ١٨٣٩ اذ قرئ في قصر الكُلخانة (قصر الورد) • وفي هذا المرسوم تنبيه على حرية الأديان وعلى المساواة بين رعايا الدولة من أي دين ومذهب في تبوّؤ المناصب بحيث « يكون استخدامهم في المأموريات بالتطبيق للنظامات المرعية الاجراء في حق العموم بحسب استعدادهم وأهليتهم • واذا قاموا باستيفاء الشروط المقررة بالنظامات الحكومية المختصة بالمكاتب التابعة لسلطنتنا السَّنية بالنسبة للسن والامتحانات يكون قبولهم في مدارسنا الملكية (المدنية) والعسكرية بلا تمييز بينهم وبين المسلمين • وعدا ذلك فان كل طائفة مأذونة باعداد مكاتب (مدارس) أهلية للمعارف والحرف والصنائع • انما طرق التدريس وانتخاب المعلمين يكون تحت ملاحظة مجلس المعارف المختلط المعينة أعضاؤه من طرفنا الحكومي (تاريخ الدولة العلية ص ٤٨٦) •

ولم تؤدِ هذه الاصلاحات الى تحسين الأحوال المتدهورة في الدولة وأصدر السلطان مرسوماً آخر عرف باسم مرسوم التنظيمات الخيرية وهو الخط الهمايوني أي السلطاني عام ١٨٥٦ • وتوفي عام ١٨٦١ • وبويع أخوه عبد العزيز • وسارت الدولة الكبيرة في عهده نحو التجزئة والافلاس • فخلع وبويع السلطان مراد الخامس بن عبد المجيد • وظهرت أمارات الاضطراب العصبي عليه فخلع في السنة نفسها • امتد حكمه ثلاثة وتسعين يوماً • وبويع أخوه عبد الحميد الثاني • كانت جهود رجال التنظيمات تصطدم بعقبات كثيرة من أهمها استبداد السلاطين وفساد رجال الحاشية فرأوا أن الأحوال لن تستقيم الا باصدار قانون أساسي ينص أن السلطة ليست مطلقة بل هي مشروطة بقيود يقررها الدستور • هذا وقد سمى الأتراك الدستور بالقانون الأساسي واصطلحوا على تسمية العهد الدستوري عهد المشروطية • ومن أبرز رجال الاصلاح مدحت باشا الذي استطاع مع زملائه أن يحمل السلطان عبد الحميد على اصدار القانون الأساسي عام ١٨٧٧ ولكن لم يكن اعلانه الا ومضة ، اذ لم تكد تجري

الانتخابات ويجتمع مجلس المبعوثـان أي مجلس النواب حتى صدرت ارادة السلطان السنية بفضه • وعندئذ ابتليت البلاد بطور استبداد لم تعهد نظيره حتى في العصور المظلمة ، وان كان قد شجع السلطان الدراسات الدينية فانتعشت بعض الشيء • وقد استمرت المطالبة باعادة الدستور حتى اضطر السلطان الى اعلان المشروطية الثانية أي اعادة الدستور واجراء الانتخابات • ولكن لم يرق ذلك للقوى الرجعية فثارت عام ١٩٠٩ وأفضت الى خلع السلطان عبد الحميد واجلاس محمد رشاد الخامس على العرش • ولكن توطدت المشروطية الثانية وتوطد معها أركان العهد الجديد .وكانت السلطة من ورائه لجمعية الاتحاد والترقي ذات النزعة الطورانية • وحدثت خلال السنوات الست التي مضت على المشروطية الثانية اضطرابات وثورات أكثرها ذات صفة قومية • وقد شهد هذا السلطان قيام أول تنظيم عربي معارض لسياسة الدولة في باريس (١٨/٦/١٩١٣) قابلته الدولة على يد قائد الجيش الرابع بمجزرة في ٢١/٨/١٩١٥ ثم بمجزرة ثانية ٦/٥/١٩١٦ فتوسعت الهوة بين القوميتين العربية والتركية • هذا ويصح على العثمانيين في أيام انهيارهم ما يصح على الفرد في أيام نكبته وهو قول الشاعر :

يقضى على المرء في أيام محنته   حتى يرى حسنا ما ليس بالحسن

ونشبت الحرب العالمية الأولى في عهد هذا السلطان (١٩١٤ ـ ١٩١٨) وقد مات قبل استسلام الدولة لأعدائها عام ١٩١٨ •

اساليب التعليم في إبان القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين

☐ ما قبل التنظيمات :

تنحصر أساليب التعليم أثناء هذا العهد في ثلاثة أشكال وهي :

١ ــ الكتاتيب •
٢ ــ حلقات العلوم الشرعية •
٣ ــ المدارس الوقفية والأهلية •

أما الكتاتيب فقد بقيت قائمة حتى حوالي عام ١٩٢٥ ، وأما حلقات العلوم الشرعية والمدارس الوقفية والأهلية فما زالت جارية منذ القديم حتى عصرنا الحاضر •

الكتاتيب :

أسلوب التعليم هذا قديم ·ولما استولت الدولة العثمانية على بلاد الشام لم تمس هذا الأسلوب · ويدعى الكتّاب بالتركية « محله مكتبي » أي مكتب المحلة · تبدأ دراسة الأولاد الصغار فيه في سن مبكرة · ويطلق على المعلم لفظ الشيخ أو شيخ الكتاب وعلى المعلمة الشيخة وصار يطلق عليه أيضاً لفظ خوجه وملاّ · وهما لفظان فارسيان تركيان · ويكون الشيخ في الغالب امام المسجد وأحياناً خطيبه · والمكان احدى زوايا المسجد أو بيت الشيخ ومصلاّه وبيت الشيخة · بعض الكتاتيب كانت مختلطة لأن التلاميذ كانوا صغار السن صبياناً وبنات · ولا غرو أن يكون صاحب الكتّاب «شيخاً» أو « شيخة » · وكانت حجرة الدراسة في البيت غرفة صغيرة أو واسعة تضم من عشرة تلاميذ الى ما يقرب من مائة أو أكثر من ذلك أحياناً · وكانوا يجلسون على حصير أو بساط ممدود على الأرض من الصباح الى الأصيل أو ما بعد العصر · وقد يذهب التلميذ الى بيته للغداء أو يكون قد جاء بزاد معه يطعمه عند الظهر (مزادة ، سفرطاس ، مطبقية) · ويتعلم الطالب فيه الأبجدية والكتابة والقراءة ولا سيما قراءة القرآن مقسماً الى أجزائه المعروفة يبدؤون بتعلم فاتحة الكتاب ثم الجزء الثلاثين ثم التاسع والعشرين وهكذا · وتكون الأجزاء الأربعة الأخيرة منفردة (عم ، وتبارك ، وقد سمع ، والذاريات) حتى اذا أتمها التلميذ اقتنى مصحفاً وتابع القراءة حتى سورة البقرة. ومتى ختم التلميذ قراءة القرآن كله جرى له احتفال خاص يتناسب مع أحوال الأهل المادية · ولهذا الاحتفال تقليد مرسوم يشارك فيه سائر التلاميذ · يقرأ التلميذ الخاتم في الصباح على الشيخ ربعاً يختاره الشيخ من القرآن · ثم يخرجون جميعاً أرتالا منظمة ثنائية أو ثلاثية ويطوفون بالتلميذ الخاتم مغنين بعض الأناشيد والترانيم حتى ينتهوا الى بيته · ويتلقون بعض الهدايا من أهله · ويتعلم التلميذ الى جانب القراءة والكتابة مبادىء الحساب · وهو يتألف من الأعمال الحسابية الأربعة أي الجمع والطرح والضرب والقسمة · وقد يتعلمون أيضاً حساب الجذر التربيعي والتكعيبي والتقسيم التناسبي ، كما يتعلمون حسن الخط الذي امتازت به الكتابة العربية وأنواعه المختلفة من خط رقعي ونسخي وثلثي وكوفي وديواني وفارسي ·

وقد يتخرج التلميذ في هذا الكتّاب أو ينتقل الى كتّاب آخر أعلى منه يتعلم فيه مبادىء النحو والصرف والفقه والتوحيد وعلم الفرائض ومصطلح الحديث وتفسير القرآن وما الى ذلك من علوم دينية ٠

ويتقاضى الشيخ عادة أجراً أسبوعياً بسيطاً يقبضه كل يوم خميس ٠ ولهذا دعي هذا الأجر بالخميسية ٠ ويقدم بعض التلاميذ هدايا للشيخ هي على الغالب سلع عينية من طعام أو لباس حسب أحوال أهليهم المادية ٠ كذلك يقدم الأهل له هدايا بسيطة مالية أو غيرها عند ختم التلميذ قراءة القرآن في الاحتفال الذي أشرنا اليه آنفاً ٠

هذا في المدن حيث يبدأ التلميذ بالذهاب الى الكتّاب وهو في الرابعة من عمره في مختلف فصول السنة ٠ أما في الريف فالكتّاب أبسط من ذلك ويشرع الولد بالذهاب اليه أكبر سناً حين يكون في السادسة أو السابعة أو الثامنة ٠ والتدريس في الريف يستمر في فصل الشتاء حين لا يحتاج الأهل الى أولادهم في الأعمال الزراعية حتى اذا كانت هذه الأعمال في الربيع والصيف والخريف ساعد الأولاد أهليهم في أعمال الفلاحة والزراعة وجني الغلات والمحاصيل ٠

وكان التلاميذ في الكتاتيب يُعلّم بعضهم بعضاً ، يعلّم كبارهم صغارهم ، ويعرضون على الشيخ مراحل هذا التعليم يوماً فيوماً أو أسبوعاً فأسبوعاً ٠ ويكون في الكتاب عريف وهو أكبر التلاميذ وأمهرهم ، أو عرفاء يشرفون على بقية التلاميذ تحت رعاية الشيخ . هذا في الكتاتيب الكبيرة الواسعة ٠ والتلاميذ يجلسون عادة على جوانب الغرفة أو الردهة ويسندون ظهورهم الى الجدران وأمامهم التلاميذ الصغار يدرّسونهم في « حَرْفيّاتهم » . والدراسة تكون عادة بصوت مرتفع ويهز القارىء جسمه الى الأمام والى الخلف وهو قاعد عند القراءة ٠ والحرفية هي الدفتر الصغير الذي يضم أصول كتابة الحروف العربية ومبادىء القراءة ٠ والحرفيات في الأصل يكتبها الشيخ بخطه الجميل ٠ ثم دخلت الحرفيات المطبوعة الكتاتيب فكانت عهداً جديداً من أطوار التعليم في الكتاتيب ٠

هذا وقد ظلت للكتاتيب مكانتها التعليمية في بلاد الشام حتى نهاية الحرب العالمية الأولى حين غدت المدارس النظامية تنتشر ثم تتوسع ٠ ولما حل عام ١٩٢٥

صدرت قوانين تنظيم التعليم الخاص فتحول بعضها الى مدارس ابتدائية خاصة واضمحل بعضها الآخر ٠

والى جانب تعليم مبادىء القراءة والحساب وتجويد الخط وغيره كان بعض الشيوخ يعلمون فن تجويد القرآن ونصيباً من القراءات السبع المتواترة ٠ ذلك أن هؤلاء الشيوخ كانوا في الغالب من حفظة القرآن يُحسنون تلاوته باتقان وتجويد فيعلمون التلاميذ المتقدمين أحكام التجويد من اظهار وادغام واخفاء وأحكام النون الساكنة والتنوين وأحكام الميم الساكنة وأنواع المد ومخارج الحروف وقسميها شمسياً وقمرياً ٠ ولهذا كانت الكتاتيب تتفاوت شهرتها بتفاوت شهرة شيوخها وتخصصهم ، فيقصدها الآباء بأبنائهم طلباً لناحية علمية بعينها كحسن الخط أو تلاوة القرآن وحفظه أو حفظ الحديث وروايته أو الميول الأدبية كتحفيظ بعض القصائد المشهورة من المعلقات ولامية العرب ولامية العجم ، أو المهارة في الحساب ، وتحويل أصناف العملة أو النقد بعضها الى بعض ، وأحياناً حساب الجُمَّل والتأريخ به ، وتعليم بحور الشعر وعلم القافية ٠

التعليم على وجه العموم مفروض فيه أن يكون بالمجان وهو كذلك في الغالب لأن بذل العلم والتعلم كلاهما فريضة في الاسلام ٠ ولكنه في الدرجة الأولى ذو أجر بسيط لأنه يجمع مختلف التلاميذ في أعمار صغيرة في غرفة المسجد أو بيت الشيخ ، ولا بد من بعض التعويض من قِبَل التلاميذ الموسرين ومتوسطي الحال ٠ على أنه اذا كانت انتهت قصة الكتاتيب فان حلقات العلوم الشرعية ما زالت باقية ٠

☐ حلقات العلوم الشرعية :

ان المتفوقين من هؤلاء التلاميذ يكونون قد تذوقوا حلاوة العلم والأدب فلا يقفون عند هذا التحصيل الأوَّلي ٠ انهم قد غدوا يافعين وشباباً فهم ينتقلون الى الحياة العملية يلتمسون أسباب الرزق وهم يرغبون في استزادة التعلم والنهل من موارد العلم المشرعة الزاخرة ٠ وما عليهم الا أن يقصدوا المساجد والجوامع ويشهدوا حلقات الدروس التي تعقد فيها ٠ وهذه أمور يسيرة لأن حلقات الدروس تلك تعقد في غرف ملحقة بالمساجد مفروشة بالحُصر والبُسط وتابعة

للأوقاف التي تمدها بالصيانة والحاجات الضرورية البسيطة ، أو يجري التدريس في زاوية منعزلة من زوايا المسجد • الا أنه على الأكثر يكون لكل شيخ غرفة يتولاها ويلقي دروسه فيها • وأوقات الدروس على الغالب في المساء بين صلاة المغرب وصلاة العشاء وأحياناً بعد صلاة العشاء ، وفي الصباح بعد صلاة الصبح الى وقت الضحى • ويتناول التدريس علوم الآلات (كالنحو والصرف والبلاغة واللغة والشعر والمنطق) وعلم الفقه وأصوله وتفسير القرآن ومصطلح الحديث والتوحيد والفرائض وما الى ذلك من علوم شرعية • وقد يكون لبعض المشايخ اطلاع على علوم نادرة اذ ذاك كالفلسفة وعلم الهيئة والطب القديم فيُدرِّس هؤلاء مبادئها •

وغالباً ما يعتمد الشيخ متناً مؤلفاً في تلك العلوم يطلب الى طلابه نسخه أو شراء نسخة مطبوعة بعد انتشار الكتب المطبوعة • وهو يجلس في غرفته ويتحلق الطلاب حوله فيقرأ لهم نص المتن بالتدرج ويشرحه • وفي الغالب يكون حافظاً له ومطلعاً على شروحه وحواشيه •

وقد يُدرِّس الشيخ فَوْجَيْن في اليوم • وقد يدرِّس متنين أو شرحين في علمين مختلفين أو أكثر • ومدة الدرس الواحد ساعة أو أكثر بحسب ما يتطلبه الموضوع أو النص المدروس • وحياة الشيخ الفكرية منصرفة أكثر آنائها الى التعليم • واذا كان فقيهاً فالى الافتاء في منازعات الناس العادية زيادة على التعليم •

وقد تعقد هذه الحلقات في المنازل اذا كان عند الشيخ متسع في بيته • وعندئذ يقع التدريس أحياناً بعد صلاة العصر في البيت أو بعد صلاة العشاء •

ولهذا النوع من التدريس تقليد وهو اذا انتهى الشيخ من تدريس كتاب أو قراءة متن من المتون وشرحه تبرع الطلاب كل حسب سعته بمبلغ قليل من المال ينفق جملته في حفلة يدعى اليها الشيخ وزملاؤه شيوخ الحلقات الأخرى والتلاميذ الذين أنهوا دراسة الكتاب • وتكون الحفلة إما في البيت شتاءً وإما في احدى الرياض والبساتين صيفاً • وقد تقام في منزل أحد الطلاب •

وحلقات المساجد والبيوت كلها مجانية وذلك ابتغاء الثواب من عند الله، يحضرها من يشاء • ولكن لكل حلقة طلاب راغبون في دراسة كتاب أو علم يتابعون حضورهم • ويكونون مع الشيخ كأنهم أعضاء أسرة واحدة يشاركهم في أفراحهم ويسأل عنهم ان غابوا ويعودمريضهم عند المرض • وتسود بينهم علاقات ودية سامية • وقد تتخلل هذه العلاقات فكاهات مهذبة ونوادر تعليمية يرويها بعضهم عن بعض •

□ المدارس الوقفية والأهلية :

واذا كان بعض الحلقات رسمياً أو تركز في بناء أو مدرسة مُسماة تشرف عليها ادارة الأوقاف أو جمعية خيرية أهلية كانت لها في آخر السنة امتحانات يؤديها المداومون بانتظام • والمسجلون في عداد الطلبة يؤجل سوقهم الى الخدمة العسكرية، ثم يعفون منها نهائياً اذا ثبت نبوغهم وغدوا مدرّسين في علومهم التي نبغوا فيها • هذا وقد خصص الأتراك اسم « المدرسة » للمدارس الدينية • وأما المدارس الأخرى الحديثة التي أنشؤوها بعد حين فسموها « المكاتب » بوجه عام •

ولا يزال لهذا النمط من التعليم الديني آثار حتى اليوم إما في بيوت الشيوخ وفي بعض المساجد وإما في المدارس الشرعية المتخصصة بتلك العلوم • ويتخرج فيها أئمة المساجد وخطباؤها والأساتذة الذين يعملون ويدرسون في هذا السبيل • وقد أنشئت أخيراً كلية لتدريس الشريعة في دمشق •

لهذا التعليم على أساس الحلقات مزايا اذ كان الحضور فيها والمداومة عليه بمحض الرغبة والاختيار • فهي تصطفي الموهوبين الذين فطروا على محبة العلم وعلى حظٍّ كبير من الاستعداد لتلقيه والتبريز فيه • كلٌ يجري وراء موهبته وميوله واستعداده • ولكن كثيراً من الطلبة أيضاً كانوا يحضرون الحلقات تبركاً وطلباً للثواب ولكي يتشرفوا بطلب العلم لأن العلم وطلبه أشرف الغايات وأعلى المآرب واللبانات ولأن العلماء في الحضارة العربية الاسلامية ورثة الأنبياء . ومن مزايا ذلك التعليم أنه حَفِظ قسماً مهماً من التراث وهو علوم الآلات (كاللغة والنحو والصرف والبلاغة والعَروض) والعلوم الشرعية (كالفقه وأصوله وعلم التفسير ومصطلح الحديث) • فبقي في الحضارة العربية اتصال بين الماضي

والحاضر واتصال بين أجزاء الوطن العربي كلها • فكانت هذه العلوم متقاربة لأنها مستندة الى متون واحدة وكتب واحدة تقريباً ، وكانت هنالك هجرة علمية بين البلاد لطلب العلم ، وكان الأزهر في القاهرة موطن تلك العلوم ومنتجعها فكان الطلاب أحياناً يقصدونه لاستكمال الدراسة وللتبحر في هذه العلوم •

وكل نظام فلا بد من أن يكون له عيوب وأن يطرأ عليه خلل • وربما أربت العيوب على المزايا في بعض الأحيان واتسع الخلل • وذلك أن التعليم كان يعتمد تلك المتون والحواشي التي أشرنا اليها ويسعى الى تفهمها والى تحفيظ المتون دون الخروج عن حدودها ودون استلهام روح التأليف في تلك الكتب • فلقد كان النحوي مثلا يحفظ ألفية ابن مالك ويفهم شروحها وما تحويه من قواعد ويقرأ الكافية والشافية لابن الحاجب وشذور الذهب ومغني اللبيب لابن هشام وشروح تلخيص المفتاح في البلاغة ثم لا يقوى على تدبيج مقالة أو تحرير خطاب بليغ • وفي الفقه كان قد أغلق باب الاجتهاد فلم يبق بين يدي الخلف الا اعادة أقوال السلف واجترارها • يضاف الى ذلك كله أن هذا التعليم قد غابت عنه تماماً العلوم العقلية كالطبيعيات والرياضيات والعلوم الهندسية والتطبيقية التي ازدهرت في البلاد الغربية بعد أن اقتبس أهلوها مبادئها من الحضارة العربية الاسلامية في عصر النهضة الأوربية • ولذلك لم يكن بد من تحديث التعليم فهو عماد الدول بعد أن تعرضت الدولة العثمانية والولايات التابعة لها لنكسات عسكرية خارجية ولفتن داخلية ولا سيما بعد اطلاع الحكام والسلاطين والمسؤولين على أحوال الغرب وعلى الحوادث الكبرى التي جرت فيه وبخاصة نشوب الثورة الفرنسية ونتائجها التحريرية والفكرية والعسكرية •

□ ما بعد التنظيمات :

لقد اشتد الاحتكاك بمختلف الصور بين الدولة العثمانية والغرب منذ أول القرن التاسع عشر • فنبَّه هذا الاحتكاك الى ضعف الأحوال الاجتماعية والعلمية والعسكرية في الدولة وجعل السلاطين والمسؤولين فيها يدركون أهمية اقتباس النظم الحديثة والعلوم العصرية • وقد رأينا كيف حاول السلطان سليم اعادة بناء الدولة لكنه لم يتيسر له ذلك • ولكن خلفه السلطان محمود الثاني سار شوطاً

في هذا السبيل • وقد آثر رجال الحكم اذ ذاك أن يتركوا المعاهدوالمدارس وأساليب التعليم القديمة على شأنها وأن ينشئوامعاهد ومدارس جديدة لتدريس العلوم العقلية الحديثة • وقام اصلاح التعليم في البلاد العثمانية على هذا الأساس وهو انشاء مدارس جديدةمستقلة عن المدارس القديمة •

وأول ما شعر رجال الحكم بضرورته جاء بطريق النكسات العسكرية والهزائم التي مُني بها الجيش العثماني وهو الذي امتاز في العهود السابقة بقوة شكيمته واتساع سيطرته في مختلف الأرجاء الأوربية • فحمل هذا الاخفاق الجديد على الاهتمام أول الأمر بتأسيس المدارس العسكرية • وتعليم الفنون الحربية فيها • ولكن هذا التعليم لا بد من أن يستند الى العلوم الرياضية والطبيعية والميكانيك والى شيء من المعلومات التاريخية والجغرافية • ولهذا أدخلت المدارس العسكرية هذه العلوم في برامجها • ثم ان هذه المدارس كانت أول الأمر متخصصة وعالية وأقيمت في عاصمة الدولة ثم شعر رجال الحكم والمشرفون على التعليم لزوم الاعداد لهذه المدارس وتزويد الطلاب قبل انتسابهم اليها بمبادىء تلك العلوم فأنشؤوا المدارس الاعدادية العسكرية • ولما كانت هذه العلوم متقدمة وواسعة الميادين ولا تكفي تلك المدارس الاعدادية في تأهيل الطلاب لتلقيها عمدوا الى انشاء مدارس رشدية عسكرية (أي ابتدائية عالية) تهيىء الطلاب لتلك المدارس الاعدادية • فجرى الاصلاح من الأعلى الى الأدنى وصار الطالب يبدأ دراسته في المدارس الرشدية العسكرية وينتقل منها الى المدارس الاعدادية ثم يَعلى الى المدارس العسكرية الاختصاصية على اختلاف أنواعها بحرية ومدفعية وهندسية وطبية ولكنها كلها عسكرية •

واذا كانت هذه المدارس الاختصاصية العالية قد أنشئت بطبيعة الحال في العاصمة فان المدارس العسكرية اعدادية ورشدية قد وزعت على الولايات • ومن أتم دراسته في المدرستين الرشدية والاعدادية العسكريتين أمكنه أن ينتقل الى المدارس العسكرية العالية الاختصاصية في العاصمة • ثم تلا ذلك انشاء المدارس التي كانت توصف بأنها ملكية وهي تقصد الى تخريج الموظفين ليعملوا في مصالح الدولة • ثم تلا ذلك انشاء مدارس التعليم العام •

وقد اختلف عدد المدارس وأنواعها ومُدَدُ الدراسة فيها حسب العهود والنظم

المختلفة ٠وصدر قانون التعليم العثماني في سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ م ٠ وقد نقل كتاب الادارة العثمانية في ولاية سورية (١٨٦٤ ـ ١٩١٤) عن المقتطف (ج ٩ ص ٥٣٧) جدولا يبين توزيع المدارس في المدن السورية في سنة ١٨٨٢ م هيأه شاهين مكاريوس نثبته لعله يعطي بعض الضوء عن الحالة التعليمية اذ ذاك :

المدينة	مدارس		معلمون	معلمات	تلاميذ	تلميذات	سكان
	بنون	بنات					
بيروت	٦٥	٣٦	٣١٦	٢٠١	٦٨٨١	٥٥٧١	١٢٠ر٠٠٠
دمشق	١٣٥	٣٨	٢٠٠	٤٥	٥٠٠٠	٢٠٠٠	١٥٠ر٠٠٠
القدس	٦٧	١٤	١٧١	٥٧	٢٨٧٢	١٠٨٦	٢٠ر٠٠٠
حلب	٣٥	٧	٧٦	١٨	١٧٥٥	٨١٠	١٠٠ر٠٠٠
طرابلس	١١	٤	٣٨	١٧	٦٨٧	٤٦٥	١٧ر٠٠٠
حماه	٣٥	١	٢٧	١	١١٥٥	٢٠	٣٠ر٠٠٠
حمص	٥٨	٣	٦٣	٤	٢١١٠	١٩٠	٢٠ر٠٠٠
اللاذقية	١٢	٢	٢٧	٦	٦٦٤	١٦٠	١٢ر٠٠٠
عكا	٢١	٢	٣٠	٧	٥٠٠	١٥٠	١٠ر٠٠٠
صيدا	١٠	٥	٢١	٤١	٢٤٧	٢٤٠	٩ر٠٠٠
صور	٥	٥	٨	٧	٢٤٠	٢٨٠	٣ر٠٠٠
نابلس	٢٠	٣	٣٦	٤	١٠٨١	١٤٢	٨ر٠٠٠
بعلبك	٣	٢	٥	٧	٣٠٠	١٣٣	٥ر٠٠٠
حاصبيا	٣	١	٥	٣	٣٠٨	١٤٠	٦ر٠٠٠
المجموع	٤٨٠	١٢٣	١٠٣٣	٤١٨	٣٣٨٠٠	١١٣٧٨	٥١٠ر٠٠٠

وأياً كان الأمر فان مدارس سورية الحكومية كانت قليلة جداً في بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر ثم طفقت تزداد تدريجاً ٠ وقد بلغ عدد المدارس الاسلامية التي أنشأتها الدولة والأهالي ٢٩١ مدرسة في سنه ١٣١٤ هـ ـ ١٨٩٦ م ضمت ١٠٦٣٧ تلميذاً و ١٤٨٨ تلميذة ٠

وبلغ عدد المدارس غير الاسلامية التي أسسها المسيحيون من رعايا الدولة ١٠٧ مدارس منها مدرستان اعداديتان و ٤ مدارس رشدية و ١٠١ مدرسة ابتدائية ٠

وقسمة المدارس تلك على مدارس اسلامية ومسيحية شكلية فقد كان يحق للتلميذ أن ينتسب الى المدرسة أيا كان مذهبه ٠

□ ما بعد الدستور :

نحن هنا نعتمد ما جاء في مقدمة حولية الثقافة العربية لواضعها الأستاذ ساطع الحصري الخبير في قضايا التعليم العثماني فهو يصنّف المدارس الحكومية المدنية في الدولة العثمانية أواخر القرن التاسع عشر خمسة أصناف :

آ ــ مدارس ابتدائية مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ٠

ب ــ مدارس رشدية مدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ٠

جـ ــ مدارس اعدادية على نوعين : الأول اعداديات الألوية مدة الدراسة فيها خمس سنوات ٠ الثلاث الأولى منها رشدية ٠ والثاني اعداديات الولايات مدة الدراسة فيها سبع سنوات الثلاث الأولى منها رشدية ٠

د ــ مدارس صناعية ومدارس زراعية ودور المعلمين ٠

هـ ــ وفوق كل ذلك جملة من المدارس العالية : مدرسة الطب ، مدرسة الحقوق، مدرسة الادارة والسياسة (المعروفة باسم المدرسة الملكية الشاهانية) ، مدرسة القضاء ، مدرسة التجارة العليا ، مدرسة الزراعة العليا ، دار المعلمين العالية ، مدرسة البيطرة ، مدرسة الهندسة ، مدرسة الصنائع النفيسة (أي مدرسة الفنون الجميلة) ٠

نتابع الأستاذ الحصري فهو يقول : لما تم انقلاب الدستور سنة ١٩٠٨ أسرعت الدولة بالاصلاحات فأدخلت التغييرات الآتية :

ــ أدمجت المدارس الرشدية بالمدارس الابتدائية وجعلت مدة الدراسة الابتدائية ست سنوات قسمت على ثلاث حلقات : أولى ، ومتوسطة ، وعليا ٠

ــ حوّلت الصفوف الرشدية الملحقة بالمدارس الاعدادية الى صفوف ابتدائية ٠

ــ أحدثت نوعاً ثالثاً من المدارس الاعدادية سميت بالسلطانية وجعلت مدة الدراسة فيها اثنتي عشرة سنة ، الخمس الأولى منها ابتدائية ٠

ـ ألغت دور المعلمين القديمة واستعاضت عنها بمعاهد جديدة قائمة على أسس جديدة ·

ـ أنشأت كلية العلوم وكلية الآداب وجمعت هاتين الكليتين الجديدتين مع مدرسة الحقوق القديمة على شكل جامعة سميت دار الفنون ثم أنشأت كلية الآلهيات وألحقتها بهذه الدار ·

ـ أحدثت بعض المدارس العالية خارج عاصمة السلطنة في مراكز بعض الولايات الهامة ·

ـ ألغت المدارس الرشدية العسكرية وتركت المهمة التي كانت تقوم بها الى المدارس الابتدائية العامة ·

ـ شرعت في تنظيم واصلاح المدارس الدينية القديمة وأنشأت من المعاهد الدينية التي كانت في العاصمة مدرسة دينية عالية دعيت باسم مدرسة دار الخلافة العالية ·

ـ أنشأت دوراً للأيتام لايواء أبناء شهداء الحروب وتعليمهم ·

ـ زادت العناية بمدارس البنات وفتحت أبواب الجامعة في العاصمة أمام الفتيات . هذا وكانت وزارة المعارف العثمانية تجري في انشائها المدارس وفي تنظيمها على غرار المدارس الفرنسية وكانت اللغة الفرنسية الى جانب اللغة التركية اجبارية في المدارس الرشدية والاعدادية عسكرية ومدنية وفي أكثر المدارس العالية ·

ويعمد الأستاذ الحصري بعد ذلك التصنيف والعرض الموجز الشامل الى بيان مدى استفادة الولايات العربية من تلك المعاهد التعليمية سواء كانت هذه المعاهد قائمة في الولايات أنفسها أو في العاصمة نقلاً عن الاحصاءات الرسمية التي نشرتها وزارة المعارف العثمانية عام ١٩١٥ ونحن نكتفي هنا بذكر ما يتعلق ببلاد الشام · ونورد أول الأمر عدد المدارس الابتدائية :

١٨٥ في ولاية حلب ، ١٣٦ في ولاية سورية ، ١٢٥ في ولاية بيروت ،

ثم نورد عدد المدارس الثانوية : ثلاث في درجة السلطانيات (في مدن بيروت ودمشق وحلب) واثنتان في درجة اعداديات الألوية (القدس وطرابلس الشام •) ودار للمعلمين ، ومدرسة للصناعة في مركز كل ولاية ، ومدرسة زراعية واحدة في السلمية التابعة لمتصرفية حماة ، ومدرسة للطب في دمشق ، ومدرسة للحقوق في بيروت • وهذا عدا المدارس العسكرية الاعدادية التي سلفت الاشارة اليها • ثم مدرسة الصلاحية في مدينة القدس • وسميت كذلك نسبة الى صلاح الدين الأيوبي وكانت مدرسة دينية عالية عصرية. وقد خرجت عدداً غير قليل من المعلمين الذين استطاعوا أن يخدموا النهضة التعليمية بعد انتهاء الحرب العالمية •

ولو عمد الأستاذ الحصري الى بيان عدد السكان في الولايات لكان البحث أوفى وأوضح • كان التعليم في جميع المدارس ابتدائية واعدادية وثانوية وعالية يجري باللغة التركية • أما العربية فكانت تدرس كأنها لغة أجنبية • وكانت تدرس قواعدها باللغة التركية لأن هذه القواعد تعين على فهم الأدب التركي وترقى بالانشاء في اللغة التركية •

كان الحكام العثمانيون في أواخر عهد دولتهم يتخبطون • فاشتد تعلقهم بطورانيتهم وبعنصرهم التركي فأرادوا أن يصهروا العرب في بوتقة اللغة التركية • وهذا ما زاد التفريق بين الشعبين • فلم يكد ينتهي عهد السلطان عبد الحميد حتى لاحت الحياة النيابية في البلاد العثمانية ، وارتفعت أصوات العرب ، وقامت مظاهرات شعبية عنيفة تطالب بتعديل الأوضاع • ولم تكد تستجيب الدولة سنة ١٩١٣ لهذه الصيحات المطالبة بجعل اللغة العربية لغة التعليم حتى نشبت الحرب العالمية سنة ١٩١٤ فلم يتحقق من ذلك شيء •

ما سلف ذكره يتناول على الأغلب المدارس الرسمية التي أنشأتها الدولة وأشرفت عليها • وثمة في الدولة صنفان آخران من المعاهد وهما المدارس الطائفية والبعثات التبشيرية الأجنبية •

□ **المدارس الطائفية :**

منحت الدولة العثمانية رعاياها من غير المسلمين امتيازات خاصة في الشؤون الدينية والمذهبية واعتبرت قضايا التعليم تابعة للأديان والمذاهب • فخوّلت الطوائف مسيحية ويهودية حق انشاء المدارس وادارتها ونوهت بالمساواة في الرتب والمناصب بين جميع الرعايا بحسب الاستعداد والكفايات • وقد سلف

أن أوردنا نصاً لفرمان الكلخانة يؤكد ذلك كله • وكانت المدارس الطائفية أول الأمر دينية وأكثر التعليم يجري في الأديرة والكنائس ولكن سرعان ما تطورت وغدت معاهد تعليمية عصرية تسلك مناهج خاصة تختلف باختلاف المذاهب والنحل ولا ترتبط بمناهج المدارس الحكومية وبرامجها وتطورها • وكانت لها الحرية في استعمال لغة التعليم التي تراهامناسبة لها فكان الأرمن يعلمون باللغة الأرمنية واليهود باللغة العبرية وكان المسيحيون العرب حراصاً على اللغة العربية فكانوا يعلمون بها • ولما كان التعليم في مدارسهم بالعربية سبقوا في ذلك المدارس الحكومية التي كانت تعلم باللغةالتركية واستطاعوا أن ينشئوا التعليم العربي الحديث في مدارسهم وأن ينبغ فيهاعدد من الكتّاب والبلغاء والخطباء والمؤلفين • وكل ذلك كان سبباً في دعم اللغة العربية وفي ازدهار بيانها الى جانب ازدهار علوم اللغة في حلقات العلوم الشرعية الاسلامية حين كانت اللغة التركية هي الطاغية على مختلف شؤون الدولة والولايات • وقد ذكرنا آنفاً عدد المدارس المسيحية في أواخر الدولة العثمانية • ويطالعنا المؤرخ الأديب الدمشقي نعمان قساطلي في كتاب « الروضة الغناء في دمشق الفيحاء » حوالي عام ١٨٧٨ بعدد مدارس النصارى للذكور فيحسبها تسعاً ويذكر فيها البعثات الأجنبية فتصل عنده الى ثلاث عشرة مدرسة ، ومدارسهم للبنات فيحسبها سبعاً من ضمنها ثلاث من البعثات الأجنبية • ويذكر مذهب كل مدرسة وعدد المعلمين أو المعلمات فيها وعدد التلاميذوالتلميذات والعلوم واللغات التي تدرسها ونفقاتها السنوية • ومن هذا العرض يستبين اختلاط مدارس النصارى بمدارس الأجانب • ولا شك أن بين النوعين صلات وثيقة كانت تفيد في تطوير مناهج هذه المدارس الطائفية • وهذا الكتاب مرجع لابأس به لمعرفة أحوال دمشق في ذلك العهد وحال التعليم فيها . ويذكر قساطلي أنه كان في زمنه لليهود اثنتا عشرة مدرسة بسيطة فيها ٣٥٠ تلميذاً ويدرسون فيهامبادىء دينهم باللغة العبرانية « والعلم عندهم في درجة دنية مع أنهم أغنياء وفي وسعهم أن ينشئوا مدارس عالية » (الروضة الغناء ص ١٢٠) •

□ المدارس الأجنبية وبعثات التبشير :

يخالج المرء حين يدرس بعثات التبشير المتقاطرة الى سورية شعوران متناقضان: الأول أن تلك البعثات كانت تتألف من أطباء ومهندسين وعلماء ومبشرين وكل

بيده مبضع أو كوس أو شعلة يريدون أن يتدركوا بها حالة « الرجل المريض » وينيروا الظلام المحدق به . والثاني أنها كانت كالوحوش الكاسرة الضارية تتربص الدوائر بذلك الرجل المريض لتنقضّ على عضو من أعضائه نهشاً وتمزيقاً وتشفياً . وربما كان كلا الشعورين صحيحاً ووجيهاً . واذا لزم التفريق فان الحكومات والهيئات الاستعمارية المشرفة والدافعة لأولئك العلماء والمهندسين والأطباء المبشرين هي الضارية الكاسرة والكاشرة عن أنيابها . أما الواردون أنفسهم فربما كان بعضهم أو أكثرهم مأخوذاً برغبة الاصلاح المبطّنة . وهكذا كانوا يقومون بانشاء المدارس واقامة المطابع ونشر الكتب والتعليم باللغة العربية في البداية والتدرج الى استبدال اللغة الأجنبية بها وما يرافق ذلك من ايحاء وتوجيه ودعاية وتخطيط خفيّ .

يذكر جورج أنطونيوس في كتابه « يقظة العرب » أن تلك البعثات الأجنبية يرجع وجودها في بلاد الشام الى مطلع القرن السابع عشر . وكان اليسوعيون أنشط الجمعيات التبشيرية وتعود صلتهم بالشام الى سنة ١٦٢٥ ثم تعطلت جمعيتهم عام ١٧٧٣ ثم استأنفوا عملهم في سنة ١٨٣١ . وكان من الأسباب التي أوجبت عودتهم أن البعثات التبشيرية الأمريكية وصلت الى بلاد الشام في عام ١٨٢٠ وأخذت تحوّل أفراداً من الطوائف الكاثوليكية الى المذهب البروتستانتي (الطبعة الأولى ص ٩٨) (لا شك أن القارىء الكريم يعرف قصة أحمد فارس الشدياق وما جرى لأخيه مع كلتا النحلتين) .

ولما حل عهد ابراهيم باشا في سورية اتسم حكمه بالتسامح كما سلف . وقد رافق التسامح الاقبال على العلم . وفتحت سياسته الباب أمام بعثات التبشير فخفّ المبشرون أول الأمر الى بيروت ومنها انطلقوا الى سائر أنحاء الشام . ويذكر جورج أنطونيوس في كتابه أيضاً أن سنة ١٨٣٤ كانت تحوّل . « ففيها عاد اليسوعيون ووصل وافدون جدد من الأمريكان لينضموا الى الفئة القليلة التي سبقتهم . وبدأ التنافس على النفوذ بين الكاثوليك والبريسبتريين . وقد وصلت حدة هذا التنافس أحياناً الى التناحر . وكان من نتائج ذلك انتعاش اللغة العربية وبانتعاشها قامت حركة فكرية انتقلت خلال زمن قصير من الأدب الى السياسة . حدثت في تلك السنة ١٨٣٤ أربع حوادث تستحق منا عناية خاصة.

كانت الأولى اعادة الآباء العازايين افتتاح كليتهم الخاصة بالذكور في عين طورة (عنطورة) • والثانية نقل مطبعة البعثة التبشيرية الأمريكية من مالطة الى بيروت • والثالثة قيام ايلي سميث وزوجته (وهو من الأمريكان المبشرين البريسبتيريين) بتأسيس مدرسة للاناث في بيروت في بناء خاص بها • والرابعة ماقام به ابراهيم باشا من تطبيق برنامج واسع للتعليم الابتدائي للذكور على نمط النظام الذي أقره أبوه في مصر » (ص ٩٩ ـ ١٠٠) •

وأنشأ القس الأمريكاني وليم طمسن مدرسة في بيروت عام ١٨٣٥ تعطلت عام ١٨٤٠ • وفي تلك السنة قدم الدكتور كرنيليوس فانديك الهولندي الأصل الأمريكي النشأة الى سورية فجال فيها ورأى البلاد محتاجة الى المدارس العليا فأنشأ مدرسة عبيّة في لبنان عام ١٨٤٧ • وهي مدرسة عالية تعلم العلوم الطبيعية والرياضيات • وفي السنة نفسها أنشأ الآباء اليسوعيون مدرستهم في غزير (لبنان) وهذا الانشاء من ضروب المنافسة بين اليسوعيين والأمريكان (تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٣٩ الطبعة الثانية) •

ومن أهم ما قامت به البعثات الأمريكية انشاء ما يعرف اليوم بالجامعة الأمريكية • فقد وصل الى بيروت القس دانيال بلس عام ١٨٥٦ وكان مرسلاً للتبشير فرأى الحاجة الى انشاء كلية علمية تمهد للطلبة تلقي الطب وغيره وسافر الى أمريكا لجمع المال اللازم ونجح وألّف لجنة للعمل ضمت معه الدكتور فانديك الذي ذكرناه آنفاً والدكتور يوحنا ورتبات وهو أرمني أمريكي وافتتحوا الكلية الانجيلية السورية في بيروت عام ١٨٦٦ لتدريس العلوم ثم افتتحوا بعد عام أي في ١٨٦٧ كلية الطب وكان معهم في هذه الكلية الدكتور جورج بوست وكان قدم سورية طبيباً ومبشراً عام ١٨٦٣ وسكن طرابلس فسمي أستاذاً فيها أيضاً. وقد لبسوا اللباس العربي وكانت لغة التدريس فيها هي العربية • وهم جميعاً قد تعلموا هذه اللغة واتقنوها وألّفوا فيها وغدت كتبهم معروفة ومشهورة وجيدة البيان • ثم ضموا اليها كليات متعددة كالصيدلة والتجارة والهندسة والزراعة وغيرها •

وأثار هذا الاتساع البروتستانتي البعثات الكاثوليكية فنهض اليسوعيون ونقلوا كليتهم التي أنشؤوها في غزير الى بيروت عام ١٨٧٤ وأطلقوا عليها جامعة القديس يوسف • ثم غير البروتستانت واليسوعيون لغة التدريس من

العربية الى الانكليزية والى الفرنسية • ويقول جرجي زيدان في كتابه : « حجة أصحاب هذا التغيير قلة الكتب التعليمية في اللغة العربيـة وكثرتهـا واتقانهـا في اللغات الافرنجية • وهو اعتراض وجيه بالنظر الى التعليم بحـد ذاتـه • لكـن التعليم يراد به أيضاً شيء آخر لا يقـل أهمية عن ذلك ـ نعني ترقية شؤون الأمة وجمع كلمتها واحياء آمالها • وهـذا لايكون الا بترقية لسانها واحيـاء آدابهـا بتأليف الكتب العلمية والأدبية وانشاء الصحف والمجلات في تلك اللغة • ولا يتيسر ذلك الا اذا كانت هي قاعدة التدريس في المدارس العالية • فلو ظلت هذه المدارس كما كانت عليه في أول نهضتهـا لكانت اللغة العربية كما يتمناها كل محب للعرب. ولم يبق ما يحتج به بعض الراغبـين في اللغات الأجنبية مـن قصور التعبـير عن المصطلحات العلمية » • (الكتاب والجزء أنفسهما ص ٤٣) ويعلق الدكتور عبد الكريم غرايبة تعليقاً لطيفاً وواعياً على هذا التحول الى اللغات الأجنبية في كتابه « سورية في القرن التاسع عشر » فيقول : « من أطرف الأمور أن يشعـر المسؤولون بأن العربية صالحة كلغة تدريس يوم لم يكن فيها كتاب علمي واحد • ولما أن تمت ترجمة وطبع الكتب العلمية الأساسية الى العربية ادعوا بأنها غير صالحة • وربما وجدنـا السبب الحقيقي في الدوائـر التبشيرية الاستعمارية في الغرب التي كان من أهدافها تشجيع العربية في فترة ومحاربتها في فترة أخرى • » (ص ١٧٣) •

هذا ما وقع على الغالب في لبنان • ويذكر نعمان قساطلي في كتابه « الروضة الغناء » أن قد دخل دمشق في أيام ولاية ابراهيـم باشـا بعثـات البـروتستانت التبشيرية وأنشؤوا فيها وفي قراها عـدة مدارس ، « وسنة ١٨٧٣ دخـل دمشـق الرهبان اليسوعيون وأخـذوا يشتغلون بنشاطهم المعتاد • » (ص ٩٤) •

وقـد وفدت الى سوريـة بعثـات تبشيرية أجنبية أخرى كان بينها الارلندية والدانمركية والانكليزية والايطالية زيادة على الأمريكية والفرنسيـة ، وقامت روسيا أيضاً وهي تنظر الى نفسها بأنها حامية الأرثوذكس فأنشأت مدارس خاصة بالطوائف الأرثوذكسية • وقد أنشأت هذه زيادة على مـدارس بعثاتهـا مدرسـة المعلمين في الناصرة (فلسطين) تُخرّج معلمين تحتاج اليها تلك المدارس • جـاء في كتاب « يقظة العرب » : « وكان لانتشار التعليم الغربي آثار سيئة أيضاً • وقـد يبدو هذا القول عجيباً متناقضاً ، ولكنه الحق بعينه • فقد انتشر التعليم في بـلاد

الشام في عهد عبد الحميد على نطاق أوسع جداً مما كان في العهود السابقة ، وأدى ذلك الى قيام شبكة من المدارس والكليات امتدت الى جميع أنحاء البلاد • ولم تعد هذه المعاهد مقصورة على ما كانت تنشئه فرنسة وأمريكة وبريطانية ، بل دخلت الميدان البعثات التبشيرية الروسية والايطالية والألمانية وأضافت جهودها الى جهود الدول التي سبقتها • وكان هذا التنوع نفسه شراً جديداً في بلاد كانت فريسة للانقسامات الداخلية • وذلك لأن بعض البعثات التبشيرية أصبحت أدوات للمطامع السياسية فاختلطت مساوىء المنافسة الدولية وشرورها بحسنات التعليم ونعمه » (ص ١٦٤ ـ ١٦٥) •

كانت تلك المدارس الأجنبية تتكاثر في المدن التي تقطنها جماعات كبيرة من المسيحيين ، وكانت كل بعثة تنزل وتتوطد في الوسط الذي يلائمها • وكانت بيروت والقدس ودمشق وحلب من أهم مراكز هذه المدارس •

يضاف الى ذلك بعض المدارس الصهيونية التي كانت تديرها هيئات أجنبية كجمعية الاليانس وهي جمعية التحالف الاسرائيلي العالمي أقامت عام ١٨٧٠ مدرسة زراعية على أرض مساحتها ٢٦٠٠ دونم تابعة لقرية يازور العربية بعد أن استأجرتها من الدولة العثمانية وغدت هذه المدرسة عاملاً مهماً في اعداد الفلاح اليهودي ، كذلك أنشأت الأليانس وغيرها من الهيئات الأجنبية الصهيونية مدارس تُعَلِّم أطفال اليهود بلغة المنشأ ومدارس أخرى ابتدائية تعلم بالعبرية • وقد ألّفت هذه المدارس نواة لشبكة المدارس العبرية العامة فيما بعد •

☐ أحوال بلاد الشام العامة في إبان القرن التاسع عشر :

ان حياة مجتمع ما كل مشتبك • ولهذا فان أحوال التعليم متصلة أوثق الاتصال بأحوال البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية • ولا بد من الاشارة الى هذه الأحوال لتقدير الجهود التي بذلت في تعهد جذوة المعارف مُتَّقِدة ، واستمرارها من وراء صروف معقدة عسيرة • والخلاصة أن التعليم في سورية ابان القرن التاسع عشر الميلادي مر بعهود مختلفة وتعرض منذ منتصف هذا القرن ولا سيما بعد عهد التنظيمات لضروب شتى من محاولات التحسين والاصلاح • وكانت تلك المحاولات مضطربة كاضطراب أحوال السلطنة ومتقلقلة كتقلقلها • هذا مع النكسات الخارجية والفتن الداخلية • وأهمها فتن

١٨٦٠ بين المسلمين والنصارى . يضاف الى ذلك فساد الحكم وتواتر الولاة وسوء جباية الضرائب . ويذكر محمد كرد علي في كتابه خطط الشام أنه « تعاقب على دمشق خلال هذا القرن ٦١ والياً وعلى حلب ٥٢ والياً . وهكذا سائر المتصرفيات الثانوية . لايُسَلِّم الوالي الا ريثما يودع . والطيب منهم هو الذي لا تطول أيامه خاصة ، لأن حساده كثيرون في الاستانة وفي الولاية التي يتولاها ، وتقارير الجواسيس عند عبد الحميد مقبولة لا ترد . والدولة يصعب عليها أن تتَفلّت من قيودها القديمة ، قيود حكومة القرطاسيات أي المفاوضات الطويلة بالورق . فاذا رأت رجل جِدّ من أبنائها يحاول أن يعلمها الصواب في المعاملات لا تلبث أن ترميه بكل شنعاء . وكان حظ النوابغ في كل دور من أدوار العثمانيين ولا سيما في العهد الحميدي أن يغض منهم ويسعى الى التخلص من اصلاحهم ومراميهم » (ج٣ ، ص ١٠٣ ، ١٠٤ الطبعة الثانية) . ولابد أيضاً من الاشارة الى بعض الكوارث والعوادي الطبيعية التي نزلت بهذه الولاية الممتازة . يقص علينا نعمان قساطلي (١٨٥٤ ــ ١٩٢٠) في كتابه « الروضة الغناء » أنه في سنة ١٨٦٤ قد دهم دمشق الجراد فأتلف أكثر مزروعاتها . ومنذ ذلك الوقت أخذت الأعمال بالتأخر شيئاً فشيئاً والأهالي بالضعف المالي ودخل بينهم روح التفرنج فكاد يهلك ثروتهم . وفي ١٨٦٥ أتاها الهواء الأصفر (أي الهيضة أو الكوليرا) فمات به نحو عشرة آلاف نفس . وسنة ١٨٦٧ الموافقة ١٢٨٧ كان غلاء شديد وتوقفت الأشغال ودام ذلك الى سنة ١٨٧١ وهبط سعر الحرير فلحق ضرر عظيم بأصحابه وسنة ١٨٧٣ انحبست الأمطار فصار غلاء شديد آخر واشتد ضيق الأهالي . وفي آذار هطلت الأمطار والثلوج فسدت الطرقات واشتد الغلاء حتى بيع جفت الحنطة (٢٥ أقة) بمئة غرش ونيف . وكان البعض يأكلون بقول الأرض لفقرهم وسنة ١٨٧٥ عاودها الهواء الأصفر واستقام شهرين فمات به تسعة آلاف ومئتان منهم ٢٥٠ نسمة من النصارى (وأول من مات بهذا الوباء امرأة الخواجة تقولا السبط وكانت من الفريدات بالتهذيب والجمال) ، وفي أواخر أيار في تلك السنة هطلت سيول مفعمة فطاف نهر بردى فاقتلع الجسور المتينة وعلت المياه فوق سطح المرجة ذراعاً ونصفاً، ودخلت دائرة الحكومة وسوق الخيل والمحايرية حتى دخلت العمارة فأخذ الصيادون يصيدون الأسماك من أسواق المدينة التي دخلتها المياه . » وقد نقلنا النص على طوله لأن تلك الحوادث كانت مشاهدات المؤلف العيانية ولأنه لا يخلو من تصوير

دقيق لتلك الكوارث. على أن أشد العوادي نشوب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) فالى جانب عسف الوالي على سورية الطاغية جمال باشا الذي نعت بالسفاح سيق القسم الكبير من الأهالي الى ساحات التجنيد • وظهر الجراد أيضاً في ربيع عام ١٩١٥ فأتى على المزروعات والمحصولات ، واجتاحت المجاعة البلاد اجتياحاً عنيفاً • ذكر مؤلف كتاب « يقظة العرب » عبارة من مقال نشرته التايمز في الثاني عشر من آب ١٩١٦ بقلم مراسل محايد غادر سورية قُبيل ذلك التاريخ وهي : « ان حال أهالي سورية مما لا يكاد يصدق ••• هناك يتعرض المسلمون الناطقون بالعربية لارهاب جديد • ويقدر عدد الذين قضت عليهم المجاعة في شمالي سورية بين الستين ألفاً والثمانين • » وأورد المؤلف أيضاً رسالة كتبتها سيدة أمريكية عاشت في بيروت وغادرت البلاد في صيف ذلك العام ونشرت التايمز أيضاً رسالتها في الخامس عشر من ايلول : « بدأت حالات الجوع تظهر قبيل حلول الربيع اذ وجد ناس مطروحون في الشوارع وقد زايلهم الوعي وحُملوا الى المستشفيات • ولقد مررنا بنساء وأطفال على جوانب الطرق وعيونهم مغمضة ووجوههم شاحبة ترهقها صفرة الموت • وكم وجدنا أناساً يفتشون في أكوام القمامة عن قشور البرتقال والعظام البالية وغيرها من الفضلات ويأكلونها في نهم ان وجدوها • وفي كل مكان كانت النساء يُشاهَدْن وهن يبحثن عن الأعشاب الصالحة للأكل بين الحشائش النامية على مدى الطرقات • » ويعلق المؤلف على ذلك بقوله : « ذلك هو ما كان يحدث في بلاد تنتج في العادة كميات وفيرة من المؤن الغذائية الأساسية بأكثر مما تستطيع استهلاكه • »

هذا واذا أردنا أن نلخص أحوال المدارس والمعاهد التعليمية في سورية في أواخر السلطنة العثمانية وجدناها متنوعة على الشكل التالي :

١ ـ كتاتيب ابتدائية •
٢ ـ حلقات علوم شرعية اسلامية •
٣ ـ مدارس وقفية وأهلية اسلامية •
٤ ـ مدارس رسمية تعلم باللغة التركية ولاتهتم باللغة العربية •
٥ ـ مدارس طائفية تنضوي الى الجماعات الدينية المتفاوتة في الولاية • وهي تعلم باللغة العربية وتتأثر بالمدارس الأجنبية التي على دينها ومذهبها •
٦ ـ مدارس أجنبية تنتسب الى مختلف الدول الغربية وهي بعثات تبشيرية تعلم لغة الدولة التي تنتسب لها كما تعلم اللغة العربية وتعمل على نشر ثقافة تلك الدولة وتعميق نفوذها •

وقد أرادت الدولة العثمانية بقانون التعليم الذي صدر سنة ١٩١٣ أن تشرف على المدارس الطائفية والأجنبية وأن تتولى الرقابة عليها ولكن حال دون ذلك اشتعال الحرب ٠

□ صروف الحرب وما بعدها :

وفي غمرة الحرب أغلق بعض المدارس الأهلية الخاصة وجُنِّد غالبية الشباب، واضطرت البعثات التبشيرية الأجنبية المعادية للدولة العثمانية الى مغادرة سورية ولبنان وتركيا على العموم وصودرت ممتلكاتها ووضعت تحت اشراف السلطات العسكرية ولم يبق منها الا المدارس الألمانية والبعثات الأمريكية والجامعة الأمريكية في بيروت تتابع أعمالها ونشاطها ٠

سعت الحكومة العثمانية في تلك الآونة نحو تحسين التعليم العام وخاصة تعليم البنات لشدة الحاجة الى استعانتهن في المرافق العامة ٠ ولا غرو في ذلك لأن أكثر الشبان قد سيقوا الى ميادين الحرب ٠ وكانت الحكومة العثمانية أنشأت سنة ١٩٠٣ معهداً طبياً في دمشق تخرّج منه خلال خمسة عشر عاماً مائة وعشرة أطباء وخمسون صيدلياً ثم نقلته الى بيروت حيث حل مكان كلية بيروت الطبية اليسوعية (سورية والعهد الفيصلي ص ٤٣) وقد أنشأت الحكومة في بيروت سنة ١٩١٣ معهد الحقوق ارضاء للسوريين في الساحل والداخل الذين كانوا يطالبون بالاصلاح الاداري ٠ وعلى أثر نشوب الحرب نقلته الى دمشق . وكانت الدراسة في المعهدين باللغة التركية عدا دروس المجلة وأحكام الفقه والفرائض والزواج فكانت تلقى بالعربية ٠ ومع ذلك فقد أخلي بعض المدارس العامة أيضاً أو أغلق لفقدان الأمن وآلام سني الحرب الرهيبة ولتجنيد الشباب وطائفة من المعلمين ٠ فانخفض مستوى التعليم انخفاضاً ملحوظاً في المدارس التي بقيت مفتوحة ٠

ولما وضعت الحرب أوزارها ولاح فجر الاستقلال تأسست حكومة عربية في بلاد الشام في الخامس من تشرين الأول عام ١٩١٨ ملكها الأمير فيصل بن عبدالله وشعر الناس كأنما انجاب الظلام عن رؤوسهم وطفقت أشعة الآمال تداعب نفوسهم وأصبحت البلاد وكأنها خُلقت خلقاً جديداً مفاجئاً فغدت الجماهير يشيدون بنعمة الاستقلال ويتغنون بالمآثر العربية وبتاريخ الأمجاد ويتحمسون للغة الأجداد ٠ وقد حصل ارتباك أول الأمر في تصريف الأمور باللغة العربية بعدما ظلت

اللغة التركية لغة البلاد الرسمية نحو أربعة قرون فلم يكن بد من انشاء هيئة أو مؤسسة تضع المصطلحات العربية نحتاً أو اشتقاقاً أو ترجمة أو نقلا وتعريباً حتى يتيسر العمل ويتهيأ للموظفين تسيير الأمور دون أن يتوقف النشاط الاداري والتعليمي والثقافي • ولهذا عمدت الحكومة العسكرية الجديدة الى انشاء الشعبة الأولى للترجمة والتأليف بتاريخ ٢٨ تشرين الثاني ١٩١٨ للنظر في أمر اللغة العربية الرسمية ونشر الثقافة العربية بين المواطنين واستبدال المصطلحات العربية بالتركية . وقد ضمت تلك اللجنة بعض رجال الأدب والفكر والصحافة والقائمين على تدريس اللغة العربية وعلومها في المدارس الدينية وفي الجوامع • ثم رأت الحكومة أن تعهد الى شعبة الترجمة في الاشراف على فروع أخرى تتعلق بالثقافة والتعليم والفن فأضافت الى شعبة الترجمة أمور المعارف وأنشأت بذلك ما أسمته «ديوان المعارف» بتاريخ ١٢ شباط ١٩١٩ ليشرف على أمور المعارف وحركة التأليف وتأسيس دار الآثار والعناية بالمكتبات ولا سيما دار الكتب الظاهرية • وقد سارعت الحكومة عقب تأليفها الى اعادة فتح المدارس التي كانت قائمة في العهد العثماني بعد اغلاقها أثناء الحرب وقررت تحويلها الى مدارس عربية كما أنها شرعت في انشاء معاهد تعليمية جديدة • وهكذا ازدادت أعمال المعارف واتسعت كما اتسعت حركة التأليف والترجمة • فقسمت الحكومة الديوان قسمين : قسم يختص بالمعارف ،وقسم يختص بشؤون اللغة والآثار والمكتبات . وهكذا تشكلت وزارة المعارف كما تشكل المجمع العلمي العربي بموجب الوثيقة المؤرخة في ١٩١٩/٦/٨ (أصبح المجمع اليوم يدعى مجمع اللغة العربية) • وانصرف المعلمون في المدارس الابتدائية والثانوية الى ترجمة الكتب المدرسية الى العربية وتأليف الجديد منها وولدت نواة الجامعة السورية من المعهدين : المعهد الطبي الذي أعيد من بيروت غب انتهاء الحرب وافتتح في الشهر الأول من عام ١٩١٩ ، ومعهد الحقوق الذي أعيد افتتاحه بدمشق في الشهر التاسع من العام ذاته على أسس جديدة وأصبح الشرط في تسمية الأساتذة فيهما أن يحسنوا التدريس باللغة العربية الى جانب اختصاصهم اذ هي اللغة الرسمية للدولة وللجامعة واتجه التعليم الى روحه الأصيلة واتصفت التربية بالصفة الوطنية ، وغدا النشاط والحماسة بالغين في برهة لم تتجاوز العامين أي في مدة ذلك الاستقلال •

ان مراحل التعليم التي عرضناها آنفاً كانت تقوم وراءها وتسندها في غالبية الأحيان الجمعيات الخيرية الناشطة والمكتبات العامة والخاصة بأجوائها الهادئة والمطابع بضوضائها المجلبة الصاخبة وقد تخرج في تلك الحقبة أعلام يفتخر بهم التاريخ الحديث • ولذلك ليس لنا بد من بيان ملامح هذه الهيئات والمؤسسات وأولئك الأعلام ولو ساور الايجاز هذا البيان •

□ **الجمعيات الخيرية التعليمية :**

نشأت في بلاد الشام جمعيات متعددة تغلب عليها الصفة الدينية والمذهبية غايتها نشر العلم وتنشيط التربية والتعليم وانشاء المدارس •

وربما كان من أسبقها جمعيات التبشير الأمريكية واليسوعية •

وقد تألفت أول جمعية من هذا النوع في لبنان سنة ١٨٤٧ باسم الجمعية السورية أسسها المبشرون الأمريكيون قبل افتتاح مدارسهم المعروفة وكانت لها صفة النادي فضمت أكثر الأدباء والعلماء وأشهرهم اذ ذاك أمثال بطرس البستاني وناصيف اليازجي وميخائيل مشاقة ثم كرنيليوس فانديك وجورج ورتبات اللذين غدوا أستاذين في الكلية الانجيلية السورية •

وأعيد تأليف هذه الجمعية عام ١٨٦٨ حين فتحت أبوابها للمسلمين واتسع نشاطها اتساعاً كبيراً •

وكان قد تلاها تأسيس الجمعية الشرقية الكاثوليكية في دير الآباء اليسوعيين عام ١٨٥٠ •

وتأسست جمعية طلابية باسم الجمعية العلمية في الكلية الانجيلية السورية عام ١٨٦٦ لمساعدة الطلاب وتدريبهم على البحث والمنافسة والخطابة •

وتألفت جمعية زهرة الآداب من خريجي المدارس سنة ١٨٧٣ لتنشيط البحث والتدريب على الخطابة والمناقشة كان من أعضائها ابراهيم اليازجي وسليمان البستاني مترجم الالياذة وأديب اسحاق •

وانشئت الجمعية التاريخية السورية في دمشق عام ١٨٧٥ لتشجيع البحوث التاريخية •

وقد حث مدحت باشا والي سورية المصلح على تأليف جمعية خيرية في دمشق سنة ١٨٧٩ لنشر الثقافة والمعارف بين الشعب فأنشأت حالاً ثماني مدارس للذكور ومدرسة للاناث وقد توارد التلاميذ على مدارسهم فبلغ عددهم ألفاً ومئة والتلميذات على مدرستهن فبلغ عددهن مائة وخمسين • ونفقة هذه المدارس من أهل الاحسان • وكان في نية مدحت باشا أن يزيد عدد المدارس وينشىء مدارس عالية أيضاً كما أشار الى ذلك قساطلي فيكتابه « الروضة الغناء » لولا أن الوالي أُبعِدَ من سورية بعد عام •

وأنشأ صفوة من الأدباء والعلماء في بيروت عام ١٨٨٠ جمعية المقاصد الاسلامية فأسست مدرستين للذكور ومدرستين للبنات وسعت في ارسال شبان الى المدرسة الطبية المصرية بالقاهرة • ولكن الحكومة العثمانية خشيت من نشاط مؤسسيها فأوقفتها وأبدلت بها مجلس المعارف • ثم نشأت بعدها جمعية بالاسم ذاته فكان لها فضل في انشاء مدارس عديدة للذكور وللاناث وفي نشر العلوم في لبنان •

وأسست سيدات من الطائفة الأرثوذكسية جمعية زهرة الاحسان عام ١٨٨٠ في لبنان لنشر التربية والتعليم بين أبنائها •

وتأسست جمعية تهذيب الشبيبة السورية عام ١٩٠٣ أكثر أعضائها من أساتذة الجامعة الأمريكية ولها فرع نسوي غايتها مساعدة الطلاب مالياً •

وأسست صفوة من أسر بيروت جمعية يقظة الفتاة العربية لتعليم الفتيات ومساعدتهن •

وفي غرة عهد الملك فيصل على سورية أنشأت بعض السيدات جمعية يقظة المرأة الشامية بدمشق وفتحت مدرسة لبنات الشهداء وقد منحهن الملك فيصل بناءً لها يقع في طريق الصالحية وغدت بعدئذ مدرسة تجهيز البنات ، وكانت تلميذات المدرسة يُغنّين الأناشيد الوطنية منها هذه اللازمة :

بنت الشهيد العربي — لا تحزني لا تندبي
أبوك إن مات الأبي — فانت بنت العرب

وفي سنة ١٩٢٠ أنشأت الكاتبة السورية ماري عجمي النادي الأدبي النسائي لبث الثقافة بين الفتيات والنساء · ثم توالت الجمعيات التي تعمل على انشاء المدارس في دمشق في مستهل عهد الانتداب البغيض حفاظاً على التراث · ومن أهمها الجمعية الغراء أسسها الشيخ محمدعلي الدقر ، وقد أشرفت على ستة معاهد للعلوم الشرعية الاسلامية كما أنشأت خمس مدارس ابتدائية ·

□ **المطابع :**

لا شك أن الطباعة من مقومات الثقافة والتعليم · وقد سبق السوريون الى الطبع بالحروف العربية وأسبق المدن الى هذه المأثرة حلب وكان الغرض من ادخال الطباعة طبع الكتب العربية المسيحية · وذلك في العقد الأول من القرن الثامن عشر (زيدان ح٤ طبعة ثانية ص ٤٥) ·

ثم ظهرت المطابع في لبنان · أشرنا آنفاً الى نقل البعثة التبشيرية الأمريكية مطبعتها التي أنشأتها في مالطة الى بيروت عام ١٨٣٤ · وفيها طبعت الكتب العلمية والطبية والرياضية وغيرها مما ألفه أساتذة الكلية الانجيلية السورية لتعليم طلبتها · وفيها أيضاً طُبع بعض كتب الأدب والشعر والتاريخ فضلا عن التوراة وكتب الدين ·

ولا عجب أن يليها بسبب التنافس تأسيس المطبعة الكاثوليكية عام ١٨٤٨ · كانت تطبع على الحجر ثم صارت تطبع على الحروف عام ١٨٥٤ · وقد نشرت كتباً كثيرة في الأدب والتاريخ واللغة العربية فضلا عن الكتب المدرسية والدينية ولا سيما التوراة بترجمة الآباء اليسوعيين · ثم أنشأ خليل الخوري المطبعة السورية عام ١٨٥٧ نشرت كتباً قانونية وأدبية وتاريخية · وقام يوسف الشلفون الماروني بنشاط كبير في ميدان الطباعة · بدأ عاملا في مطبعة خليل الخوري ثم تركها ليؤسس عام ١٨٦١ المطبعة العمومية · واشترك معه عام ١٨٧١ رزق الله الخضرا فأضاف كلمة الكاثوليكية الى اسم المطبعة · واستقل الخضرا بالمطبعة ثم اشترك معه رئيس أساقفة بيروت الماروني يوسف الدبس وطبع فيها كتابه تاريخ سورية · أما يوسف الشلفون فأنشأ مطبعة جديدة عام ١٨٧٤ دعاها المطبعة الكلية ·

وكان خليل سركيس والمعلم بطرس البستاني قد أنشآ مطبعة المعارف عام ١٨٦٧ نشرت قاموس محيط المحيط ودائرة المعارف وغيرها وانفصل سركيس عن

زميله فأنشأ المطبعة الأدبية عام ١٨٧٤ليصدر جريدة لسان الحال ولينشر طائفة من الكتب والمجلات والصحف ٠

وكان ابراهيم باشا قد حمل معه الى دمشق مطبعة حجرية لطبع المنشورات والأوامر العسكرية ٠ ثم أدخل حنا الدوماني عام ١٨٥٥ مطبعة جلب حروفها من أوربة وعرفت بمطبعة الدوماني أو المطبعة الدومانية اقتصر نشاطها على نشر الكراريس الدينية والمزامير وآلت ملكيتهاعام ١٨٨٢ الى محمد الحنفي فأصبحت تعرف بالمطبعة الحنفية ٠ ثم أنشأت الحكومة العثمانية عام ١٨٦٤ أول مطبعة لها باسم مطبعة ولاية سورية لتصدر عنها أول جريدة في دمشق هي جريدة سورية باللغتين العربية والتركية ٠ وتلتها مطبعة حكومية أيضاً هي المطبعة العسكرية مخصصة بنشر التقاويم واللوائح العسكرية سرعان ما توقفت ٠ وأنشأ خالد عطار حسن مطبعة روضة الشام عام١٨٩٣ انتقلت ملكيتها الى خالد قرصلي . ثم توالى بعد هذا التاريخ تأسيس المطابع في دمشق كالمطبعة الحميدية أسسها سليمان لطفي عام ١٨٩٨ ، والمطبعة العلمية أسسها محمد هاشم الكتبي وغدا اسمها منذ ١٩١٠ مطبعة الفيحاء،ومطبعةالمقتبس تأسست عام ١٩١٠ ، ومطبعة ألف باء عام ١٩١٢ ، والمطبعة العثمانية عام ١٩١٢، ومطبعة البطريركية الأرثوذكسية عام ١٩١٢ ، وهي التي أصبح اسمها مطبعة باب توما ، ثم مطبعة المنار ١٩١٤ ٠ هذا وفي طرابلس أسس محمد كامل البحيري مطبعة البلاغة عام ١٨٩٣ لتصدر عنها جريدة طرابلس وتلاه جورج يني الذي أسس عام١٩٠٨مطبعة الحضارة وأصدر عنها مجلة المباحث ٠

□ **المكتبات :**

على رغم الصروف العاتية التي أحاطت بسورية فان مناهل العلم بقيت زاخرة ٠ وليست مناهل العلم سوى المكتبات الى جانب المعاهد والمدارس على اختلاف أنواعها وتفاوت درجاتها وتباين أساليبها ٠

وينبغي أن ننوه بأن الكتب في الشطرالأكبر من القرن التاسع عشر كانت مخطوطة وكان الطلاب ينسخون ما يحتاجون اليه من المتون والشروح والحواشي أو يُكَلِّفون بعض الوراقين نسخَهـا ٠ وقد نشأ عندهم خُطَط معروفة للنسخ يأتون بلوح على مقدار الصحيفة ويشدون عليه خيوطاً تتباعد بمقادير السطور ثم

يكبسون الورق عليهـا بعض الشيء لكي تظهر آثار الخيوط عليها ثم يكتبون على الآثار سطوراً متوازية مستقيمة حتى اذا انتهوا من النسخ جلدوها تجليداً مناسباً وحفظوها لأنفسهم ولذويهم · هذا والحضارة العربيـة القديمة قد استأثرت بجمال الخطوط وحسن التجليد ومهارة التأليف · وكـان عنـد كـل عالم مكتبـة عامرة بالمخطوطات يرجع اليها في بحوثه وفي تدريسه · وهي مكتبات أهلية متى توفي عنها صاحبها توارثهـا البنـون اذا اشتغلـوا بالعلوم أو باعوها ان كانوا في حاجة الى المال · ولكن الكتب دائماً كانت مقدسة عند الناس ولا سيمـا اذا كانت مكتوبـة باللغة العربية لأن هذه اللغـة مقدسـة أيضاً · أما المكتبات التي يؤمها القراء فقد أصابها من الصروف ما أصاب البلاد · وهنا نذكر ما كتبه قساطلي في « الروضة الغناء » فهو يقول (ص ١٢٠) :

كان في دمشق مكاتب شهيرة · ولقد لعبت بها أيدي الخراب فلم يبق منها الا القليل · ومن أشهرها ما بقي منها الى يومنا هذا (حوالى عـام ١٨٧٨) المكتبـة العمرية بالمدرسة العمرية بالصالحية (نسبـة الى الشيخ عمـر المقدسي) فيها كتب نفيسة وكلها خط وأكثرها نادر الوجود ، ومكتبة الشيخ خالـد بالقنوات في بيت الشيخ عمر الحضرة وكل كتبها خط ، ومكتبة عبد الله باشا (العظم) وكتبها خط منها تاريخ الشام لابن عساكـر في ثمـانـين مجلـداً ومكتبـة الأشماسيـة (الشميساطية) بمدرسة قـرب الجامع الأموي وكلها كتب خط · ولما قـدم مدحت باشا والياً على سورية عام ١٨٧٩ حث الجمعية الخيرية التي أنشأهـا على جمـع الكتب من المكتبات المتفرقة ومن المساجد ووضعها في مكان واحـد قـرب التربـة العادلية وهو الذي يعرف بالظاهرية نسبة الى ضريح الملك الظاهر · ويذكر جرجي زيدان زيادة على تلك المكتبات التي ذكرها قساطلي ست مكتبات أخرى وهي مكتبة سليمان باشا العظم ومكتبة مُلا عثمان الكردي ومكتبة الخياطين وقفها الحاج أسعد باشا والمكتبة المرادية نسبـة الى الشيـخ مـراد النقشبندي والمكتبـة الياغوشيـة ومكتبة الأوقاف ، وهذه جمعت من مكاتب متفرقة ، ومكتبة بيت الخطابة في الجامع الأموي كانت في بيت الخطابة من هذا الجامع · فمجموع هذه المكتبات مع ما ذكـره قساطلي عشر كلها أوقاف وقفها أصحابها على طـلاب العلـم ودوره · ولما عـزل السلطان عبد الحميد الثاني الوالي المصلح مدحت باشا عام ١٨٨٠ نهضت الجمعيـة

الخيرية بالعمل فجمعت ما تيسر لها جمعه من المكتبات العشر الآنفة ونشأت من مجموع الكتب المكتبة الظاهرية • وكان الفضل في هذا التجميع لفريق من العلماء على رأسهم الشيخ طاهر الجزائري والشيخ سليم البخاري والشيخ علاء الدين ابن عابدين اذ استطاعوا أن يستخرجوا كتب الوقف من أيدي متولي الوقف ليضعوها في خزانة لدى قبة المدرسة الظاهرية •

وظلت المكتبة تحت مراقبة لجنة خاصة حتى عام ١٩١٩ حين ألحقت بديوان المعارف ثم ألحقت بالمجمع العلمي العربي حين استقل عن ديوان المعارف • (انتقلت المخطوطات وقسم كبير منها عام ١٩٨٧ الى مكتبة الأسد) •

أما المكتبات الأهلية في دمشق فانما هي عند أسر العلماء كمكتبة الشيخ عبد السلام الشطي ومكتبة الشيخ عبد المحسن المرادي ومكتبة رحمة الله النابلسي ومكتبة الشيخ بدر الدين الحسني وأمثالهم • وكذلك الحال في بقية المدن •

ومن المناسب أن نذكر هنا هذه الطرفة وهي ما أورده محمد كرد علي في مذكراته حين كان طفلا استصحبته والدته في زيارتها لأسرة الشيخ محمد الطنطاوي فوقع نظره في القاعة التي جلسا فيها على رفوف في الحيطان مصفوف عليها مجلدات وكتب كثيرة فتعجب مما رأى وسأل والدته عن هذه الأشياء فقالت: هذه كتب يقرأ فيها العلماء • فأعجبه ذلك المنظر الطريف وأثرت فيه لهجة أمه المشتملة على التعظيم فقال لها: أنا أحب أن أتعلم هذه الصنعة •

وفي حلب مكتبات مهمة أشهرها المكتبة الأحمدية ومكتبة المدرسة الرضائية والمكتبة المارونية والمكتبة الملكية للروم الكاثوليك والمكتبة السريانية ومكتبة بني الدلال ومكتبة ابن الهبراوي ومكتبة بني الجابري •

وفي بيروت مكتبة الجامعة الأمريكية والمكتبة الشرقية للآباء اليسوعيين •

وفي القدس المكتبة الخالدية أسسها راغب الخالدي ثم أضيفت اليها كتب ضيا باشا الخالدي وروحي بك الخالدي وهي مفتوحة الأبواب للجمهور وتأسيسها كان بتشجيع الشيخ طاهر الجزائري •

ولا ننس خزائن الكتب في التكايا والأديرة والكنائس • ومن المؤسف أن بعض الكتب المخطوطة في التكايا وعند بعض الأسر قد تسربت بصورة من الصور الى

الخارج وبيعت من المستشرقين والغرباء وأصبحت جزءاً من الأقسام العربية في المكتبات الأجنبية زيادة على ما تحتويه تلك المكتبات من مخطوطات ومن كتب عربية ·

□ كوكبات من نجوم القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين :

تلك المعاهد والمدارس والمكتبات والجمعيات والمجلات ودور الطباعة كانت مراكز النور في عهود صعبة وداجية مرت ببلاد الشام · ومع ذلك فقد تخرج فيها على اختلاف أنواعها وتفاوت درجاتها وتباين طوائفها أدباء وعلماء ورجالات ، زينوا تلك العهود بسناهم فكانوا كالنجوم في سماء ذلك القرن · حفظوا لنا التراث وأحيوا موات اللغة وجددوا حسن البيان فيها وأضاؤوا حنادس الجهل والأمية وتلافوا عنت الزمان وناضلوا صروف الحدثان · ولا نستطيع في هذا البحث المحدود أن نحصي تلك النجوم ولا أبراجها · وأكثرها طلع من تلك المدارس الوقفية ومن زوايا المساجد والتكايا معما تعرضت له هذه الاماكن من التنديد بها · وقد كانت المدارس والكنائس المسيحية قد أنبتت أيضاً عدداً صالحاً من علماء اللغة والبيان والعلوم الأخرى · ولئن تصعب الاحصاء فلا أقل من التنويه ببعض الأسماء ·

يندر بين رجال الشرع والدين الاسلامي من لم يعجب بالشيخ محمد أمين (١٧٨٤ ـ ١٨٣٦) المشهور بابن عابدين صاحب كتاب « رد المحتار على الدر المختار على متن تنوير الأبصار » وهو المعروف بحاشية ابن عابدين في خمسة مجلدات وهو من أكبر المراجع للفقه الحنفي ، وبالشيخ أحمد الحلواني الكبير الرفاعي (١٨١٣ ـ ١٨٨٩) شيخ القراء بدمشق وبالشيخ عبد الرزاق البيطار (١٨٣٧ ـ ١٩١٦) صاحب كتاب حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، وبالشيخ سليم البخاري اللغوي (١٨٥١ ـ ١٩٢٨) أحد رجال الاصلاح الديني واليقظة الحديثة في سورية · ولما تولى منصب رئاسة العلماء ضبط التدريس في المساجد ، والشيخ محمد بن يوسف بدر الدين الحسني (١٨٥١ ـ ١٩٣٥) المحدث الكبير ، والشيخ طاهر الجزائري (١٨٥٢ ـ ١٩٣٠) الذي تعاون مع الوالي مدحت باشا في انشاء المدارس اذكان عضواً في الجمعية الخيرية التي كلّفت ذلك العمل وله الفضل الكبير في النهضة العلمية ببلاد الشام وفي تأسيس

المكتبة الظاهرية ، كما أعان في تأسيس المكتبة الخالدية بالقدس الشريف ، والشيخ محمد رشيد رضا (١٨٥٦ ـ ١٩٣٥) صاحب المنار أصدرها في مصر ، والشيخ جمال الدين بن محمد القاسمي (١٨٦٦ ـ ١٩١٤) الذي أربت تآليفه على الثمانين ، والشيخ محمد علي الدقر (١٨٧٧ ـ ١٩٤٣) مؤسس الجمعية الغراء ذات الفضل الكبير في انشاء عدد وافر من المدارس الشرعية والمدارس الابتدائية بدمشق في أوائل الانتداب الفرنسي ٠

وكل من شدا شيئاً من اللغة والأدب والشعر والعلوم أو اهتم بالتأليف والصحافة فلا بد أن يكون قد طالع بعضاً من آثار النوابغ من أمثال الشيخ الشاعر العلامة الصوفي عمر اليافي (١٧٥٩ ـ ١٨١٨) والشيخ الشاعر أمين الجندي (١٧٦٦ ـ ١٨٤١) وبطرس كرامة (الحمصي ١٧٧٤ ـ ١٨٥١) والشيخ ناصيف اليازجي (١٨٠٠ ـ ١٨٧١) صاحب مقامات مجمع البحرين وكتاب نار القرا شرح جوف الفرا في النحو، والعلامة ميخائيل مشاقة الدمشقي (١٨٠٠ ـ ١٨٨٨) وأحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٧) صاحب الجاسوس على القاموس والساق على الساق فيما هو الفارياق وسر الليال في القلب والابدال، وبطرس البستاني (١٨١٩ ـ ١٨٨٣) صاحب محيط المحيط وقطر المحيط ، وابراهيم اليازجي حفيد ناصيف (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦) صاحب كتاب المترادف والمتوارد وعبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ ـ ١٩٠٢) صاحب كتابي طبائع الاستبداد وأم القرى، وسعيد الشرتوني (١٨٤٩ ـ ١٩١٢) صاحب معجم أقرب الموارد، وأديب اسحاق (١٩٥٦ ـ ١٨٨٥) الأديب الذي انتقل الى مصر واشتغل بالصحافة والسياسة ، ورفيق العظم (١٨٦٧ ـ ١٩٢٥) المؤرخ صاحب كتاب أشهر مشاهير الشرق، وشكيب أرسلان (١٨٦٩ ـ ١٩٤٦) أمير البيان ، ومحمد كرد علي (١٨٧٦ ـ ١٩٥٣) صاحب خطط الشام ومجلة المقتبس ورئيس المجمع العلمي الذي صار فيما بعد مجمع اللغة العربية والأمير مصطفى الشهابي (١٨٩٣ ـ ١٩٦٨) رئيس المجمع العلمي أيضاً وصاحب معجم الألفاظ الزراعية وخليل مردم بك (١٨٩٥ ـ ١٩٥٩) شاعر الشام ورئيس مجمع اللغة العربية بدمشق ٠

هذا عدد قليل من كثير ٠ وكأن هؤلاء السلف الصالح المؤلف من الأعلام والأدباء والعلماء الكرام يدركون في الملكوت الأعلى مكانتهم في تاريخ بلاد الشام ابّان

القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، ويشعرون بما قدموه من خدمات فكرية جُلَّى ومن أياد بيض في ميادين الثقافة والعلم على الرغم من المحن والعوادي • وهم يهيبون بالخلف من أبناء الوقت الحاضر كي يجروا على غرارهم ويأتمّوا بهَديِهم ويتحلّوا بحِلاهم وكأنهم اتخذوا شعاراً لهم هذه الأبيات :

نحن في جبهة الزمان نجوم ... تتهادى على سماء العروبه
كم دفعنا عن البلاد خطوباً ... وأثرنا لكل سارٍ دروبه
ليس نفنى وانما نحن رمز ... مثْلهم عند كل شأو خطيبه
انما نبتغي المعالي وكلٌّ ... حسب السعي سوف يلقى نصيبه
شمسكم شمس وحدةٍ سوف تجلو ... عن حماكم عما قريب كروبه
يا نسيماً يهبّ من سدّة العليا ... ء طوبى لمن يشمّ هبوبه
واذا الشعب رام أمراً عظيما ... ضمّ في السعي والنضال قلوبه
أجمعوا أمركم وسيروا جميعاً ... يلتق النازح البعيد قريبه
واجعلوا المجد للقلوب حبيباً ... سيوافي المحب يوماً حبيبه
كم أشدنا من التراث بماضٍ ... نتملى جماله وطيوبه
يا غريب الأوطان هل آن للـ ... ـوطن المسلوب أن يستعيد غريبه
قد رأينا من الزمان أعاجيـ ... ـب وسلب الأوطان أدهى عجيبه
في أعالي الجنان من يدحر الطغـ ... ـيان عنه ويسترد سليبه
فاز من صان أهله وحماه ... وتخطّى من الزمان عصيبه

□ **خاتمة :**

كان سكان سورية العرب ينتظرون أن يعهد الحلفاء اليهم في ادارة أمورهم وفي استقلال بلادهم بعد جهادهم واعلان الشريف حسين في مكة الثورة على العثمانيين ووعود الحلفاء له باستقلال البلاد العربية كلها • كانت هذه الثورة أحد العوامل في جلاء العثمانيين عن سورية • وقد نودي بالشريف حسين ملكاً على البلاد العربية في ٥ تشرين الأول ١٩١٦ ولكن الدول الحليفة بريطانية وفرنسة وايطالية اعترفت بجلالته ملكاً على بلاد الحجاز •

وقاد الأمير فيصل المجاهدين العرب متعقبين القوات التركية حتى دمشق • ولما دخلها أعلن تأليف الحكومة العربية في سورية بصفته قائداً للجيوش الشمالية وممثلاً لوالده الملك حسين •

بيد أن الحلفاء الذين كانوا يتربصون بالعثمانيين وبالعرب الدوائر نقضوا عهودهم فأبرموا اتفاقية سايكس بيكو في ٢٦ أيار ١٩١٦ نسبة الى المفاوض الانكليزي مارك سايكس والمفاوض الفرنسي جورج بيكو • شملت هذه الاتفاقية كيليكية وسورية ومنها فلسطين والعراق. وقسمت هذه البلاد على خمس مناطق ثلاث منها ساحلية واثنتان داخليتان • كانت الاتفاقية سرية حرص مكر الحلفاء على كتمانها • وانكشف أمرها غب ثورة أكتوبر ١٩١٧ واذاعة هذه الثورة لها •

وفوجيء العرب أيضاً بوعد بلفور الصادر عن وزارة الخارجية البريطانية في الثاني من تشرين الثاني عام ١٩١٧ أي بعد تعهدات بريطانية السابقة للملك حسين باستقلال بلاد العرب ومنها فلسطين •

وقد أبقيت منطقة كيليكية في حوزة تركية منذ نهاية الحرب وسارت سياسة الحلفاء على نهجها الانتهازي الخادع المعتاد وأبرمت اتفاقية سان ريمو في ٢٤ نيسان ١٩٢٠ فأفضت الى وضع سورية ولبنان تحت انتداب فرنسة والى وضع فلسطين والعراق تحت انتداب بريطانية • وذلك كله على الرغم من مبادىء ولسون الشهيرة •

وجرت وقعة ميسلون في ٢٤ تموز ١٩٢٠ •

ولما استولت فرنسة على لبنان وسورية جعلت سياستها تختلف في كل من هذين القطرين • فأصدر الجنرال غورو في ٣١ آب ١٩٢٠ مرسوماً خلق فيه دولة لبنان الكبير اذ أضاف الى سنجق جبل لبنان طرابلس وبيروت وصيدا وصور وبعلبك وسهل البقاع الخصيب ودخل في هذه الدولة ميناء بيروت وميناء طرابلس وكانا منفذين تمر منهما تجارة سورية البحرية • ومع ذلك فقد جعلت فرنسة سياستها تختلف في جبل لبنان نفسه عنها في جزئيه الجنوبي والشمالي حيث الأكثرية اسلامية وحيث طغى الفقر والأمية •

وفي سنة ١٩٢١ اقتطعت من فلسطين المنتدبة منطقة شرقي الأردن وولّي عبدالله بن الحسين أميراً عليها • ثم نصّب ملكاً عام ١٩٤٦ •

ثم عمد الفرنسيون الى تحطيم ما بقي من الوحدة التي كانت تنعم بها البلاد بزعامة الملك فيصل فجزؤوها الى أربع حكومات منفصلة وهي :

١ ـ دولة سورية وعاصمتها دمشق وتشمل بقية المنطقة التي تحت الانتداب •

٢ ـ حكومة اللاذقية وعاصمتها اللاذقية وتشمل المنطقة الساحلية بين لبنان الكبير وسنجق الاسكندرونة •

٣ ـ دولة جبل الدروز وعاصمته السويداء ويشمل المنطقة الجبلية بين دمشق وشرقي الأردن •

٤ ـ سنجق الاسكندرونة وهو يدخل اسمياً في دولة سورية الا أنه منح ادارة ذاتية منفصلة (ألحق بتركية عام ١٩٣٦) •

وقد كان لتجزئة وحدة هذه المناطق وتفاوت نوع الحكم فيها واختلاف شكل الاقتصاد وتباين أساليب التعليم آثار سيئة • وكان ذلك بداية لليل طويل من النضال والكفاح انتهى باستقلال أكثر أجزاء سورية الطبيعية وتقدمها • ولكن هذا الليل يرين على البلاد بسبب قيام اسرائيل وما نشأ عنه من اضطراب الأحوال غير الطبيعية في لبنان •

لقد بدأنا بحثنا بوحدة بلاد الشام وأنهيناه بهذه التجزئة المؤسفة التي جرّت اليها مطامع الاستعمار •

ومع ذلك ففي أوصال هذه المنطقة جميعها من قوة الحياة وشدة المراس ووثاقة الايمان وصلابة الارادة ما سوف يجعلها بنضالها الدائم وكفاحها الدائب تستأنف عاجلاً أو آجلاً خلاصها من الأزمات وتحررها التام ورقيها الطبيعي وازدهار العلم والتعليم فيها ويضمن لها حياة متعاونة انسانية كريمة •

□ المراجع :

الأفغاني ، سعيد — حاضر اللغة العربية في الشام
معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣

انطونيوس ، جورج
ترجمة د. ناصر الدين الأسد
د. احسان عباس — يقظة العرب ، تاريخ حركة العرب القومية ، بيروت، دار العلم للملايين ، ١٩٦٢

برو ، توفيق علي — العرب والترك في العهد الدستوري العثماني ١٩٠٨ ـ ١٩١٤
جامعة الدول العربية ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠

الجمهورية العربية المتحدة ، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية — أسس التربية في الوطن العربي القاهرة دار مطابع الشعب، ١٩٦٥

الحافظ ، محمد مطيع	تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري جزءان دمشق ، دار الفكر ، ١٩٧٦
أباظة ، نزار	
حتي ، فيليب	تاريخ سورية ولبنان وفلسطين بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٨٢
الحصري ، ساطع	البلاد العربية والدولة العثمانية ط ٣ بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٥
الحصري ، ساطع	حولية الثقافة العربية السنة الأولى ، القاهرة ، مط لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٤٩
الحصري ، ساطع	يوم ميسلون صفحة من تاريخ العرب الحديث ، بيروت مكتبة الكشاف ، ١٩٤٧
الحصني ، محمد أديب آل تقي الدين	كتاب منتخبات التواريخ لدمشق ، دمشق ـ المطبعة الحديثة ١٩٣٤
الحكيم ، يوسف	سورية والعهد العثماني ، دار النهار للنشر طبعة ثانية ١٩٨٠
الحكيم ، يوسف	سورية والعهد الفيصلي ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٩٦٤ ، ١٩٦٦
الحموي ، ياقوت	معجم البلدان
الخطيب ، عدنان	مجمع اللغة العربية بدمشق في خمسين عاماً ، دمشق مطبعة الترقي ، ١٩٦٩
الدبس ، يوسف	تاريخ سورية ، بيروت ، المطبعة العمومية ١٩٠٥
رافق ، عبد الكريم	المشرق العربي في العهد العثماني ، دمشق ، مطابع مؤسسة الوحدة ، ١٩٨٢
الرزاز ، نبيلة	مشاركة المرأة في الحياة العامة في سورية منذ الاستقلال ١٩٤٥ حتى ١٩٧٥ دمشق ، وزارة الثقافة ١٩٧٥
رضا ، محمد جواد	العرب والتربية والحضارة دراسة في الفكر التربوي المقارن الكويت ، مكتبة المنهل ، ١٩٧٩
زيدان ، جرجي	تاريخ آداب اللغة العربية ، مصر ، مطبعة الهلال ١٩٣١
ستودارد ، لوتروب (المؤلف)	
تويهض ، عجاج (المترجم)	حاضر العالم الاسلامي ، القاهرة ، مط عيسى البابي الحلبي ، ١٣٥٢ هـ
الأمير شكيب أرسلان (المعلق)	
سلطان ، علي	تاريخ سورية جزءان ، دمشق ، دار طلاس ، ١٩٨٧
سنو ، سعيد	تركيا الكمالية ، بيروت ، مكتب الصحافة والنشر ، ١٩٣٨
شلبي ، أحمد	تاريخ التربية الاسلامية وضعه بالانكليزية وترجمه الى العربية بيروت ، دار الكشاف ، ١٩٥٤
صافي ، رضا	على جناح الذكرى جزءان ، دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٨٢
صليبا ، جميل	مستقبل التربية في الشرق العربي، دمشق مط جامعة دمشق، ١٩٦٢
ظبيان ، نشأة	حركة الاحياء اللغوي في بلاد الشام ، دمشق ١٩٧٦
العارف ، عارف باشا	تاريخ القدس ، دار المعارف بمصر ، (لاتا)

عوض ، عبد العزيز محمد	الادارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ ـ ١٩١٤ م دار المعارف بمصر (لاتا)
غرايبة ، عبدالكريم	سورية في القرن التاسع عشر ١٨٤٠ ـ ١٨٧٦ ، معهد الدراسات العربية العالية ١٩٦٠ ـ ١٩٦٣
فريد بك ، محمد (المؤلف)	تاريخ الدولة العلية العثمانية ط ٥
حقي ، احسان (المحقق)	بيروت ، دار النفائس ، ١٩٧٦
القاسمي ، ظافر	مكتب عنبر صور وذكريات من حياتنا الثقافية والسياسية والاجتماعية، بيروت، المط الكاثوليكية ، ١٩٦٤
قساطلي ، نعمان	كتاب الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، بيروت ، مكتبة السائح ، ١٩٧٦
كرد علي ، محمد	المذكرات ، دمشق ١٩٤٨ ـ ١٩٥١
كرد علي ، محمد	خطط الشام ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠
كوبرلي ، محمد فؤاد (المؤلف) سليمان ، أحمد السعيد (المترجم)	قيام الدولة العثمانية القاهرة ، دار الكاتب العربي ، ١٩٦٧
كوتلوف ، ل.ن (المؤلف) أحمد ، سعيد (المترجم)	تكون حركة التحرر الوطني في المشرق العربي (منتصف القرن التاسع عشر ـ ١٩٠٨) دمشق ، وزارة الثقافة ، ١٩٨١
لوقا ، اسكندر	الحركة الأدبية في دمشق ١٨٠٠ ـ ١٩١٨ ، دمشق ، ١٩٧٦
لين بول ، ستانلي (المؤلف) فرزات ، محمد صبحي (المترجم) دهمان ، محمد أحمد (المعلق) ماثيوز ، رودريك	الدول الاسلامية ، دمشق ، مطبعة الملاح ، ١٩٧٤
عقراوي ، متى بقطر ، أمير (المترجم)	التربية في الشرق الأوسط العربي المطبعة العصرية ، ١٩٤٦
الخزنجي ، محمد حسين جرين ، جورج	تاريخ التربية ، القاهرة ، مكتبة البابي الحلبي ، ١٩٥٣
وافي ، علي عبد الواحد والي ، ابراهيم وآخرون	أصول التربية ونظام التعليم ، القاهرة ، مطبعة الرسالة، ١٩٥٥

كتب هذا البحث لصالح « مآب »
ننشره هنا مع بعض الزيادة للفائدة

النّظر الذهني في عصر ما قبل الإسلام

د. عبدالقادر فيدوح*

لقد كانت ـ والى وقت قريب ـ في دراسات الأدب العربي القديم فكرة خاطئة مؤداها أن القصيدة العربية هي عبارة عن مجموعة أبيات مفردة، مجردة من الخيال خالية من أي مستوى فكري ، لا لشيء ، الا لأنها تمثل بداية الانسان العربي في هذا العصر ، وأن هذا « العربي ضعيف الخيال جامد العواطف »(١) ، وحتى اذا تخيل وبدا منه شيء من التفكير فلا يعدو أن يكون ذلك تصوراً سطحياً ، نابعاً من عواطفه ومشاعره لا غير !٠٠

وللرد على مثل هذه المزاعم والاطلاع على مستوى التفكير العربي خلال هذا العصر، لا بد من اعطاء نظرة مركّزة نلمّ بها المامة سريعة عن صلة العرب بغيرهم من الأمم الأخرى ، لأن معظم الدراسات القديمة تقرر أن الجزيرة العربية قبل الاسلام كانت منعزلة عن العالم، وبعدها يمكن الحكم على ما في الدراسات القديمة من أحكام ، ومدى صحتها أو مجافاتها للحقيقة ٠

كانت الجزيرة العربية على صلة متينة بالأمم الأخرى ، وقد خضعت لعدة عوامل نتيجة لهذه الصلات وما نتج عنها من التأثيرات الحضارية التي نقلت الى العرب ألواناً كثيرة من جوانبها ، خاصة منها الثقافية والدينية ٠

وكل ما حظيت به الجزيرة العربية من دراسات مفصلة لتاريخ العرب القديم لا يتعدى القرن العاشر قبل الميلاد ، خاصة في مجال الاحتكاكات والعلاقات مع غيرهم مثل العبرانيين، والآشوريين والبابليين ، والفرس ، وعلاقاتهم أيضاً مع الحضارات الغربية (حضارة اليونان في عهد الاسكندر الكبير ٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق٠م)التي امتدت حتى ظهور العصر الامبراطوري

(*) باحث من الجزائر ـ استاذ في جامعة وهران ٠

الروماني قبل نهاية القرن الأول ق٠م ، حيث اتجهت بأنظارها الى شبه الجزيرة العربية ، وكان هناك اعتباران وراء حملة الرومان على الجزيرة العربية « أحدهما هو السيطرة على مداخل البحر الأحمر اما عن طريق كسب العرب في صفّهم ، واما باخضاعهم لهم٠ والاعتبار الآخر هو ما سمعه « أغسطس » (أول الأباطرة الرومان) عن الثروة الهائلة لهذه المنطقة التي يكثر فيها الطيوب والتوابل ، الأمر الذي أغراه بارسال هذه الحملة حتى يتمكن من أن يتعامل معهم كاصدقاء أغنياء ، أو أن يسيطر حتى يتمكن من أن يتعامل معهم كأعداء أغنياء »(٢) ٠

ان الجزيرة العربية في تاريخها القديم شهدت أحداثاً سياسية استمرت زمناً طويلاً ، سواء مع الحضارات الشرقية أو مع القوتين العظيمتين اللتين كانتا تجاوران شبه الجزيرة العربية غرباً (اليونان والرومان) الى أن تطورت هذه الأحداث على شكل جديد بين أمبراطوريتين عظيمتين « تحيطان بشبه الجزيرة العربية من الشرق ومن الغرب ، رغم استمرار ما بينهما من توتر كان يصل الى الصدام العسكري السافر في بعض الأحيان (كما حدث على سبيل المثال في أواسط القرن السادس حين هاجم الامبراطور الفارسي خسرو « كسرى » أنو شروان ، أراضي الامبراطورية الرومانية فاجتاح سورية وأسقط أنطاكية ودمرّها عن آخرها) الا أن ظروفاً جديدة كانت قد ظهرت في غضون القرن الثالث الميلادي أدت الى اعتماد هاتين الامبراطوريتين على امارتين عربيتين حدّيتين كل منهما تتبع قوة من القوتين الكبيرتين وتدافع عن حدود هذه القوة في مجابهة القوة الأخرى ، وفي بعض الأحيان كان الأمر ينتهي بأن ينحصر الصراع بين هاتين الامارتين نفسيهما ، دفاعاً عن مصالح القوى الكبرى »(٣) ٠

وكان من وراء هذه المشادات بين العرب وهذه القوات الأجنبية أن جلبت معها جوانب من ــ هذه الحضارات الشرقية والغربية ــ دياناتها ومعتقداتها ، خاصة منها النصرانية واليهودية والمجوسية ، علماً بأن هذه الديانات كانت قد دخلت الى الجزيرة العربية قبل هذا التاريخ بأمد بعيد عن طريق التجارة الى أن توسعت معارفها مع هذه الحروب ، حيث كانت هذه الجزيرة طريقاً عظيماً للتجارة بين الأمم المجاورة لها ، وكانت مكة على وجه الخصوص قاعدة ينطلق منها العرب لتجارتهم « وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم في كثير من شؤونهم ، حتى فيما يترفهون به ــ الحرير ــ وحتى يستظهر بعض مؤرخي الفرنج أنه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية وللتجسس على أحوال العرب ، كذلك كان فيها أحباش ينظرون في مصالح قومهم التجارية »(٤) ٠

وكان المبشرون يرافقون هذه الحملات العسكرية والتجارية، وقد استطاعوا أن يؤثروا في نفوس كثير من العرب ، ويدخلوهم في معتقداتهم ، فلم يعبأوا بالمصاعب والمشقات التي كانوا يتعرضون لها ، فدخلوا في مواضع نائية في جزيرة العرب ، ومنهم من رافقوا الأعراب، وعاشوا عيشتهم ، وجاوروهم في طراز حياتهم فسكنوا معهم الخيام حتى عرفوا بأساقفة الخيام وبأساقفة أهل الوبر ، وبأساقفة القبائل الشرقية المتحالفة وبأساقفة العرب البادية. وقد

ذكر أن مطـران (بصرى) كان يشرف على نحو عشرين أسقفا انتشروا بين عرب حوران وعرب غسان ، وقد نعتوا بالبعوث المذكورة ،لأنهم كانـوا يعيشون في البادية مع القبائـل عيشة أهل الوبر »(٥) ٠

وليس يعنينا في تقرير هـذا كله الا أن نصدق بوجوب ارتباط الجزيرة العربية بغيرها من الأمم المجاورة لها منذ أمد بعيد امتد الى تاريخ ما قبل الميلاد ، وهو أمر لا يمكن انكاره. ودليلنا على ذلك هو استفادة العرب « بكلمات كثيرة فارسية ورومانية ومصرية ، وحبشية ، نقلها هؤلاء التجار وأمثالهم وأدخلوها في لغتهم وجعلوها جزءاً منها ، وأخضعوها لقوانينهـا ونطق بها القرآن »(٦) ، وهو ما يوضح لنـا احتكاك العرب بغيرهم من جهة ، واستفادتهـم ـ فوق أرباحهم التجاريــة ـ من معارف هـذه الحضارات وآدابها ودياناتها من جهة أخرى ، مما ساعد العرب على خصب البنية العقلية ،فانعكس ذلك على تفتق القريحة بالشعر ٠

ربما كان أهم سبل الاتصال بين الحضارة العربية والحضـارات المجـاورة هو ما أشـار اليه الدكتور ناصر الدين الأسد عند تعرضه لاتصال العرب بغيرهم عـن طـريق التجـارة والأسواق والمواسم العربية ، حيث كان يؤمها ـ كـذلك ـ بعض التجـار الفرس والهنـود والمصريين ، والروملن ، فكان كل أولئك يلتقون على صعيد واحد يأخذون ويعطون، ويتبادلون ما عندهم من متـاع وعـروض ، ومـن آراء وأفكار ومن مظاهر الحضارات ، بعد ذلك أشار الى خاصية أخرى تعـد من أهم سبل هـذا الاتصال وهي « هذه الجاليات الأجنبيـة الكبيرة التي كانت تفد على الجزيرة العربية فتقيـم فيها وتطيل المقام ، بل تتخذ منها موطناً آخـر تقضي فيه حياتها وتنشىء فيه ذريتها فكانت هذه الجاليـات مختلفـة الأديـان والأجنـاس والأهداف : فمنهـم النصـراني واليهـودي ،والمجوسـي ، والوثني ، ومنهـم الفارسـي ، والرومي ، والمصري والهنـدي ، والحبشي ، ومنهم من جاء الجزيرة للتجارة فافتتح فيهـا دوراً للهو من غناء وشراب وبغاء ومنهم مـن جاءها فأنشأ فيها مستعمرات زراعية فعمـر الأرض وأثارها هناك ، ومنهم من جاءها لغير هذا وذاك ، كالبعثات التبشيرية الدينية التي انبثت في أنحـاء الجـزيرة وجـاست خلالهـا وانتشرت بين أهلها ، وأقامت البيع والصوامع والأديرة في المدن والصحراء »(٧) ٠

وأول ظاهرة تسترعي انتباهنا عند اطلاعنا على تاريخ الفكر الديني للأمم القديمة ، ومنهـا الأمـة العربيـة ، أنهـا كـانت على صلة وثيقة بعضها ببعض وتشترك في كثـير من العبادات ٠ صحيح أن الدراسات الأنثولوجية تقدم بعض التعقيدات للوضـع الديني في الجزيرة العربية في هذه الفترة الزمنية ، لكن ذلك لا يمنع من استنتاج أهم الأحداث ضمـن هذه الشعائر والمعتقدات التي اشتركت فيهـا حضارات الأمم المجاورة للجزيرة العربية وتأثر الفكر الديني العربي « بالأفكار الدينية السامية في حضارات بلاد الرافدين ، وبصفة خاصة الحضارة البابلية الكلدانيـة وكذلك تأثـره بالفكر الدينـي الآرامـي ٠ وكـان للقوافـل التجارية المتجهة من اليمـن الى مكة ويثرب ومنها الى مدائـن صـالح ومعان والبتـراء وجرش ودمشق وتدمر وبلاد الرافدين ، أثرها البالغ في تحقيق الاتصال الحضاري المباشر بين تلك الحضارات(٨) ٠

وإذا تجاوزنا الاعتبارات العقائدية البدائية ، الطوطمية عند العربي نتيجة تطوره الفكري وفق تجاربه من الحياة الى معتقداته الوثنية فان أهم رواية تدل على ذلك هي ما قاله الأرزقي(٩) من « أن أول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم الا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصبابة بمكة والكعبة ، حتى سلخ ذلك بهم الى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم من حجارة الحرم خاصة ، حتى خلفت الخلوف بعد الخلوف ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا الوثنية بدين ابراهيم واسماعيل وصاروا الى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات ٠

جاء في كتاب « الأصنام » لابن الكلبي عدد أسماء الأصنام التي عبدتها العرب في عصر ما قبل الاسلام أهمها : اللات ، والعزى ، ومناة وهي التي نزل فيها ذكر الله الحكيم « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى »(١٠) ،فكان تفكيرهم باعتقادهم في عبادتهم لهذه الأصنام رمزاً لعبادة الله والتقرب اليه بواسطتها بطرق مختلفة وعند فرق متعددة ، منها فرقة قالت : ليس لنا أهلية لعبادة الله تعالى بلاواسطة لعظمته فعبدناها لتقربنا اليه تعالى كما قال حكاية عنهم : (ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى) وفرقة قالت الملائكة ذوو جاه ومنزلة عند الله فاتخذنا أصناماً على هيئة الملائكة ليقربونا الى الله ٠ وفرقة قالت : جعلنا الأصنام قبلة لنا في عبادة الله تعالى كما أن الكعبة قبلة في عبادته ٠ وفرقة اعتقدت أن على كل صنم شيطاناً موكلا بأمر الله فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه بأمر الله ، والا أصابه شيطان بنكبة بأمر الله ،وهذا الصنف هم الذين أخبر عنهم التنزيل(١١) في قوله سبحانه (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون أن تتبعون الا رجلا مسحوراً) ٠

كما تطورت وثنية العربي الى تقديسه للمظاهر الطبيعية حيث بلغ شعوره نحوها أقصى حد للاجلال والتعظيم ٠ وكان تقديس العربي لهذه المظاهر الطبيعية المحيطة به كالكواكب وذلك ضمن تأثره بوثنية بلاد الرافدين التي كان مصدرها الصابئة المشركون كما أخذ عرب الشمال عن أهل اليمن عبادة هذه الكواكب المكونة من « ثالوث كوكبي » هو القمر ، الشمس ، الزهرة(١٢) وهذه هي الأجرام السماوية التي لفتت نظر الناس بتأثيرها عليهم في كل ما يحيط به ، فكان يرى فيها القوة السحرية في تفكيره مما جعله يؤلهها ويعبدها ، وهي عبادة تبدو متطورة على ما كان عليه الانسان البدائي في تقديسه للأحجار والنباتات ٠

ولقد أشار القرآن الكريم الى ذلك ضمن جوانب الحياة الدينية التي عرفتها العرب في العصور السابقة للاسلام والى كيفية اهتداء ابراهيم الخليل الى عبادة اله واحد ، كما جاء في قوله عز وجل(١٣) : **(واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ؟ اني أراك وقومك في ضلال مبين ٠ وكذلك نري ابراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ٠ فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً ، قال :هذا ربي ، فلما أفل قال : لا أحب الآفلين ٠**

فلما رأى القمر بازغاً قال : هذا ربي ، فلمــا أفل قال : لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال : هذاربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال : يا قوم اني بريء مما تشركون اني وجهت وجهي للذيفطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين) •

وبذلك يكون ابراهيم الخليل قد تعبدلثلاثة كواكب قبيل أن يهتدي الى دين التوحيد •

واضافة الى هذه الكواكب ، هناك كواكب أخرى قدسها العربي كالدبران والعيوق ، والثريا ، والشعرى ، والمرزم ، وعطارد ،وسهيل ، فكانت كنانة تعبد القمر والدبران ، بينما كانت جرهم تسجد للمشتري ، وطيءعبدت الثريا والمرزم وسهيل ، وبعض قبائل ربيعة عبدت المرزم ، وطائفة من تميم عبدتالدبران ، وبعض قبائل لخم وخزاعة وقريش عبدت الشعرى العبور ، وهي الشعرى اليمانية(١٤) ، وفيها أشار القرآن الكريم : « وأنه هو رب الشعرى) •

أما الديانات السماوية ـ بعد أن كانالعرب على أديان ومذاهب شتى ـ التي كانوا يتدينون بها ، فان أهل الأخبار يذكرون أنالعرب كانوا على دين واحد هو دين ابراهيم الخليل ، دين التوحيد الذي تجسد في الاسلامفيما بعد ، وبعد دين الحنفية هذا تعلق بعض العرب بالديانة اليهودية والديانة النصرانية •

أما الديانة اليهودية فقد وجدت طريقهافي كثير من مناطق شبه الجزيرة العربية ، وكان توسعها أكثر في العربية الجنوبية في ظل المملكة الحميرية الثانية بعد عام ٣٠٠ م ، ومن المعروف فان جماعات يهودية كثيرة هاجرت الىبلاد العرب الشمالية والحجاز بعد أن دمر الرومان أورشليم سنة ٧٠ م واستقرت هذهالجماعات في يثرب وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء ، وعلى الرغم من اختلاط اليهودبالعرب وتعايشهم معهم ، واحتكارهم لبعض الحرف والصناعات ••• وعلى الرغم أيضاً منتعربهم بحكم مجاورتهم للعرب واحتكاكهم بهم، فانهم لم ينجحوا في نشر اليهودية بين العرب ، ويرجع ذلك الى أسباب منها عدم اهتمامهم بالتبشير بدينهم اعتقاداً منهم بأنهم شعب اللهالمختار ، وأن سواهم من الشعوب غير جدير بذلك •••(١٥) لذلك قلت تأثيرات الديانةاليهودية في الجزيرة العربية الا في فترة متأخرة قبيل الاسلام حيث ظهرت هذه الديانة بشكلواضح •

أما الديانة المسيحية فاننا نجهل تغلغلها في شبه الجزيرة العربية وكل ما ترويه الأخبار هو أن أول بعثة دينية مسيحية الى العربيةالجنوبية قد أرسلها الامبراطور البيزنطي قسطنطين سنة ٣٥٦ م تحت قيادة ثيوفيلوسأندوس لأسباب سياسية ترتبط بمحاولة تسلل النفوذ البيزنطي الى اليمن في فترة اشتد فيهاالصراع البيزنطي الفارسي حول السيطرة على منطقة الشرق الأوسط وتخومه(١٦) •

ومن بين أسباب انتشار المسيحية في شبهالجزيرة العربية ـ أيضاً ـ وجود بلاد العرب بين ثلاثة مراكز مسيحية مجاورة هي : سوريا،في الشمال الغربي ، والعراق في الشمال الشرقي ، والحبشة في الغرب عن طريق البحرالأحمر ، وفي البحر عن طريق اليمن(١٧) •

وقد التجأ الانسان القديم الى هذه المعتقدات الدينية وغيرها ـ سواء منها الوضعية أم السماوية ـ وذلك حينما واجهته كثير من الاشكالات التي كانت تهدد كيانه وأمنه بصورة خاصة، عند ذاك لم يجد بدأ من اللجوء الى التفكير الديني حتى يكفل له الأمن ـ بأنواعه المختلفة ـ الاقتصادي والسياسي ، والنفسي ، والعقائدي ، وبالأمن الوقائي ، الى غير ذلك من وسائل الاطمئنان المتوارثة والمكتسبة مع تفاوت بسيط في ممارسات هذه الديانات الى أن تطورت بصورة واضحة في الديانات السماوية : الحنفية ، واليهودية ، والنصرانية ٠

ومما لا شك فيه أن انتقال هذه الديانات الى قلب الجزيرة العربية قد جلبت معها لوناً من الاتصال الثقافي بين العرب بغيرهم من الوثنيين وأتباع الديانات السماوية وذلك لما يوجد من رابطة عضوية بين الدين والفكر ، أو « بالأحرى أن الفلسفة نشأت في صورة نقد فكري للمعتقدات الدينية والأخلاقية »(١٨) ٠

لقد احتل الدين على مر العصور جزءاً بارزاً من البنية الذهنية على الصعيد الفكري، فاذا كانت الديانات القديمة ، والديانة الاسلامية على وجه الخصوص تخاطب العقول في دعوتها الى التأمل والتحرر من كل الشوائب ، كما تخاطب وجدان الانسانية فان كثيراً من الاتجاهات الفلسفية تخطو في نفس المنهج فيما تحمله من قيم ٠ ومثل عليا ، ونتيجة لذلك فان الدين في أي زمان كان لا يخلو من بذور التفكير الميتافيزيقي أو هو على حد تعبير اشبنجلر في كتابه انحلال الغرب « انما الدين ميتافيزيقا معاشه » أو على حد ما جاء في رأي دور كايم من أن « الفلسفة نشأت دائماً في أحضان الدين أو على أثر الايمان بالدين »(١٩) ٠

لذلك فقد كان الدين عاملاً مهماً في ادخال الأفكار الى عقول الناس حتى أصبح هناك تداخل بين النظرة الكونية الدينية والنظرة الكونية الفلسفية ٠ وقد تتخذ هذه النظرة الأخيرة طبعاً دينياً اذا كانت عميقة التفكير ، وهو ما جاء في رأي اشفيتسر عندما ربط بين الدين والأخلاق ، يقول : في كل عبقرية دينية يحيا مفكر أخلاقي ، وكل أخلاقي يتفلسف بعمق حقاً ، هو صاحب دين على نحو أو آخر » ٠

وقد نذهب بعيداً في علاقة البناء العقلي بالدين ـ وأن كليهما يتبع الآخر ـ الى المعتقدات الشعبية البدائية كالأساطير الدينية والخرافات السحرية التي كانت في بداية الأمر نوعاً من التفكير العميق عند منشئيها ، لأنها مزجت بين النظر العقلي والايمان الديني، وأكثر من ذلك فان الأسطورة عمادها التأمل في نظام الكون لأنها تنبع من عقل الانسان في التساؤل في وقت ما عن وجوده ، ومن حوله وكيفية نشأة هذا الكون ؟ الى غير ذلك من التساؤلات التي شغلت باله ، وكانت سبباً في خلق البذور الأولى من البناء الذهني ، أو احدى مراحل التفكير الفلسفي الأولى « فالأسطورة بهذا المعنى هي الوسيلة التي حاول الانسان القديم من خلالها أن يضفي على تجربته طابعاً فكرياً ، دون هذه الصورة الأسطورية التي تكون مجتمعة عالماً فكرياً متكاملاً ، تظل التجربة النفسية مهوشة كما تبدو الظواهر الكونية متناقضة ويمكننا أن نقول بتعبير آخر أن الأسطورة اخراج لدوافع داخلية في شكل موضوعي ، والغرض من ذلك هو حماية الانسان من دوافع الخوف والقلق(٢٠) ٠

وقد يبدو من خلال الدراسات الحديثة لطبيعة الفكر العربي في تاريخه القديم أنها وصلت الى أحكام مطلقة ، نهائية نتيجتها ــ كما مر بنا ــ وصف العرب بالمادية المفرطة ، وبضعف الخيال ، وجمود العواطف »(٢١) ، وكأن هذه الأحكام غير قابلة للنقاش ، أو أنها أحكام لحقائق نهائية في نظر أصحابها ٠

واذا كنا نعترض على سبل المنهج الذي اتخذه أصحابها للوصول الى هذه الحقائق فذلك لا يعني أننا نقدس العرب « ولا نعبأ بمثل هذا النمط من القول الذي يمجدهم ويصفهم بكل كمال ، وينزههم عن كل نقص ، لأن هذا النمط من القول ليس نمط البحث العلمي ، انما نعتقد أن العرب شعب ككل الشعوب له ميزاته وفيه عيوبه ، وهو خاضع لكل نقد علمي في عقليته ونفسيته وآدابه وتاريخه ككل أمة أخرى(٢٢) ٠

ان خصائص التفكير لكل أمة من الأمم هي انعكاس لواقعها المتطور ، بل ، هي وثيقة الصلة بمجموعة الأفكار التي يتكون منها المناخ الثقافي ، لذلك من غير المعقول أن نتصور العرب في سذاجة الشعوب البدائية من حيث المستوى الفكري ــ على وجه الخصوص ــ وذلك أمر يتناقض مع ما وصلوا اليه من حضارة ، وما عرف عنهم من أديان ، ومن آثار أدبية تمثلت خاصة في الشعر والحكمة ٠

ويرى مصطفى عبدالرزاق(٢٣) أنه لا يمكن أن « نقطع بأن ما يروى من هذه الأخبار صحيح ثابت ، ولكنا نرى أنه في جملته يكفي في الدلالة على وجهة التفكير الذي كان يسمى حكمة عند العرب وحكماً ، ويسمى أهله حكماء وحكاماً ٠ وهو تفكير عملي متصل بالفصل فيما يقع بينهم من نزاع ، والفتوى فيما يحدث لهم من أقضية والطب لما يعرض لهم من مرض » ٠

ومن هذا كله نستطيع الا نستبعد أن يكون هناك نوع من مستوى التفكير عند نخبة ممتازة من العرب في ثقافتها التي اكتسبتها على سبيل التجربة ، لا عن طريق التعليم أو نظرية مؤسسة ، خاصة فيما جاءت به العرب من « حكم مضارعة لحكم الفلاسفة »(٢٤) ٠

كما أنه بامكان الحكمة أن ترقى الى مستوى الفلسفة لولا ظهور الحدث الجلل المتمثل في ظهور الاسلام الذي غير مجرى تفكير عقلية العربي ، ورفع من شأن مستوى معرفة العقل الانساني ــ عموماً ــ وليس معنى هذا أن القرآن كان عائقاً في نشوء الفلسفة العربية ــ عبر هذا التاريخ ــ ولكنه أعطى دفعاً جديداً في تحريره للعقلية العربية ، والعقلية الانسانية عموماً ، عن طريق المعرفة المستبصرة ٠

أضف الى ذلك أن المعرفة الحقة في تكوين البنية الذهنية تنبع أساساً من المعرفة الصوفية ، ثم تتبلور في ذهنية نخبة الأذكياء فتتخذ عنوان المعرفة الفلسفية ، تماماً كما حدث للفلسفة اليونانية أو لأي فلسفة أخرى نبعت في أصلها من التصورات الشعبية الى أن تطورت في شكل حكم ثم صعدت على مستوى التفكير المتطور الى ميادين العقل الخالص ، فسميت بذلك فلسفة. « واذا نظرنا الى ما تطورت اليه صفتا الحكمة والحكماء بعد الاسلام ثم بعد نشوء الفلسفة حيث صارت الحكمة تعني الفلسفة ذاتها وصارت صفة الحكيم تعني الفيلسوف استطعنا أن

نجد مجالا لاستنتاج أن هاتين الصفتين كانتا تعنيان في مفهومهما الجاهلي نوعاً أولياً من النظر العقلي الذي يحاول محاولة عفوية وبسيطة استخلاص أحكام عامة تصلح للانطباق على حالات لاحقة قياساً على حالات سابقة »(٢٥) ٠

لذلك يمكن اعتبار الحكمة لأية أمة من الأمم أنها بداية التفكير الفلسفي ، وذلك ما وصلت اليه العرب فيما قبل الاسلام من مظاهر حياتهم العقلية ، بعيدين في تفكيرهم عن الفلسفة القائمة على نظريات وأسس علمية محكمة ، بل ، كانت نظرتهم قائمة على الخطرة الفلسفية والفرق كبير بين مذهب فلسفي له أصوله وأحكامه وبين الخطرة الفلسفية ، « فالمذهب الفلسفي نتيجة للبحث المنظم ، وهو يتطلب توضيحاً للرأي ، وبرهنة علمية ، ونقضاً للمخالفين ، وهكذا ، وهذه منزلة لم تصل اليها العرب في الجاهلية أما الخطرة الفلسفية فدون ذلك ، لأنها لا تتطلب الا التفات الذهن الى معنى يتعلق بأصول الكون ، من غير بحث منظم وتدليل وتفنيد ، وهذه درجة وصل اليها العرب »(٢٦) ٠

□ الحواشـي :

١ ـ راجع هذا الرأي الذي اورده ، أحمد أمين (لاوليري وغيره) في فجر الاسلام ٣٦ ٠
٢ ـ انظر : لطفي عبد الوهاب يحيى : العرب في العصور القديمة ٤٢٦ ٠
٣ ـ المصدر السابق ص ٤٣٥ ـ ٤٣٦ ٠
٤ ـ أحمد أمين : فجر الاسلام ص ١٣ ٠
٥ ـ د٠ جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٦/ ٥٨٨ ٠
٦ ـ احمد أمين : فجر الاسلام ص ١٦ ٠
٧ ـ د٠ ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي وقيمته التاريخية : ١٦ ، ١٧ ٠
٨ ـ د٠ رشيد الناضوري : المدخل الى التطور التاريخي للفكر الديني ١٤٨/٣ ٠
٩ ـ اخبار مكة ص ٦٦ ٠ عن الأساطير والخرافات عند العرب ١٠٦ ٠
١٠ ـ سورة النجم ١٩ ، ٢٠ ٠
١١ ـ الألوسي : بلوغ الأرب ص ١٩٧ ، ١٩٨ ٠
١٢ ـ انظر ، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، د٠ السيد عبد العزيز سالم ٤٦١ ٠
١٣ ـ سورة الأنعام : ٧٣ ـ ٧٨ ٠
١٤ ـ انظر ، المرجع السابق ٤٧٨ ٠
١٥ ـ نفسـه : ٤٨٥ ٠
١٦ ـ انظر ، العرب في العصور القديمة : د٠ لطفي عبد الوهاب يحيى ص ٣٩١ ٠
١٧ ـ د٠ عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية ٤٨٢ ٠
١٨ ـ د٠ جعفر آل ياسين : المدخل الى الفكر الفلسفي عند العرب دراسة في التراث ص ٤٠ ٠
١٩ ـ انظر : من الفلسفة اليونانية الى الفلسفة الاسلامية : د٠ عبد الرحمن مرحبا ص : ٢٦٢ ٠
٢٠ ـ د٠ نبيلة ابراهيم : الأسطورة ١١
٢١ ـ انظر ، جواد على : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ٦٦/١ ٠
٢٢ ـ أحمد أمين : فجر الاسلام ١٤٤ ٠
٢٣ ـ تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ١١/١ ٠
٢٤ ـ ابن قتيبة : الشعر والشعراء ١١/١ ٠
٢٥ ـ حسين مروة : النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية ٢٩٨/١ ٠
٢٦ ـ أحمد أمين : فجر الاسلام ص ٤٩ ٠

الحـجّاج ابـن يوسـف الثقـفي

مصطفى الشماع*

الحجّاج هذا الانسان العربي الغريب في مزاجه وأطواره وسياسته التي انتهجها وقد شغلت الناس والمؤرخين السياسيين والقادة في عصره وبعد عصره عصوراً طويلة فجعلتهم يتحدثون عنه وعن أعماله في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وكانوا في ذلك بين مؤيد وساخط .

ان الحديث عن الحجاج وما قام به من أعمال يحتاج الى وقت طويل وطويل جداً على أني سأحاول ما استطعت أن أبحث عنه بالمامه أوجز فيها ايجازاً غير مخل .

ولد الحجاج زمن معاوية بن أبي سفيان في مدينة الطائف عام ٤٢ للهجرة واسمه كليب وأبوه يوسف بن الحكم الثقفي وأمه فارعة بنت عروة ، وذاع صيته أيام عبد الملك ابن مروان وابنه الوليد ، اذ أنه اشترك في معظم الأحداث التي وطدت عرش عبد الملك والوليد فقضى على عبد الله بن الزبير وأخمد ثورات العراق وشرد الخوارج حتى كاد يبيدهم وفتح رجاله وقد امتاز بحسن اختيارهم بلاداً في المشرق امتدت حتى وصلت الى الهند والصين .

كان الحجاج قبيح المنظر مشوه الخلقة أخفش العينين (أي ضعيف البصر) مبسوط الرأس وكبيره ولم يكن فارع الطول ولكنه كان ذا مهابة قوي الحجة والبيان وكان فوق هذا خطيباً بليغاً لا يكاد يعادله أحد في الفصاحة من أهل زمانه وكان من قراء القرآن وحفاظه المعدودين كما كان أكثر ما يعجبه الصراحة والصدق .

(*) باحث من القطر العربي السوري .

وهو يحكي عن نفسهفيقول ان أكبر لذاته في الحياة سفك الدماء وارتكاب أمور لا يقوى على ارتكابها غيره وكانت للحجاج نفس تحب العلوّ في الأرض ولا تقبل أن يقف في طريقها عظيم من العظماء أو سيد من السادات وكان يثق بنفسه ثقة عظيمة دل عليها اقدامه على ولاية العراق على حين أحجم عنها بنو أمية الذين استشارهم عبد الملك بن مروان عندما قال من للعراق فسكتوا وقال الحجاج أنا لها ثلاث مرات ٠

وكان الحجاج يعتقد أن قبح الخلقة من دواعي الضعف في الرجل الذي يتطلع الى عظائم الأمور كما أنه مدعاة لسخرية الناس لهذا كان يحاول جهده في اخفاء بشاعته فيرجل شعره ويخضب أطرافه ، وكان فظاً وهو يصف نفسه بأنه حديد ، جسور ، حقود ، لجوج ، ذو قوة وحينما بلغ الحجاج سن الفتوة زاول مع والده مهنة تعليم الصبيان في الطائف وقد عيره الشعراء بهذه المهنة التي كانوا يعتقدون في ذلك الوقت أنها حقيرة فقالوا :

أينسى كليب زمان الهزال وتعليمه سورة الكوثر
رغيف له فلك دائر وآخر كالقمر الأزهر

يشير الى أن خبز المعلمين كان يؤمن من قبل الأولاد ويختلف حجمه بين الكبر والصغر تبعاً لحال أولياء هؤلاء الأولاد بين الغنى والفقر ٠

ومما يدل على أن هذه المهنة لم تكن ذات مكانة ان أحد العلماء اضطر تأميناً لمعيشته أن يمتهن تعليم الصبيان فلم يشعر بعد فترةمن الزمن الا ّ وقد طرأ بعض التشويش على ذهنه فقال على الفور :

ما عاش تحت الخافقين أقل عقل من معلم
ولقد دخلنا فن الصناعة من جديد رب سلم

ويروى أن الجاحظ مرّ يوماً بمعلم كتاب فوجده يحفظ أحد الصبيان آيات من القرآن على النحو الآتي : واذ قال يوسف لأبيه يا أبت لم تعبد ما لايسمع ولا يبصر فقال له أراك تدخل آية في آية فقد جمع بين آية منسورة يوسف وآية من سورة مريم فأجابه.والله ان والد هذا الطفل يدخل شهريته شهراً بشهرفأردت أن أعامله بمثل ما عاملني به فصرت أحفظ ابنه آية تدخل في آية ٠

لم تطب لنفس الحجاج الاقامة في الطائف فأخذ يحس رغبة عظيمة في مغادرتها ، وكان يرجح أن يغادرها الى دمشق ، حيث الترف والعز وحيث السياسة والسيف ، وكان يشعر أنه لم يخلق ليكون معلماً ، وأن آتيه سيكون قاتماً اذا ظل مقيماً في الطائف ، لذلك غادرها

ولكن لم يعلم الى أين ، غير أن الأغاني يذكرمن أخباره ، انه حضر مذبحة (الحـرة) في المدينة المنورة سنة ٦٣ للهجرة ، وأنه هرب منها تاركاً والده وحده ، وفي سنة ٦٥ ، وجد الحجاج مع أبيه في الجيش الذي أرسله مروان بن الحكم لمهاجمة الزبير في مكة،والذي انهزم، وتمكن الحجاج وأبـوه من الهرب والنجـاة بنفسيهما ٠

وعلى رواية ابن قتيبة ، أن أول ولاية وليّها الحجاج ، كانت تبالة في تهامة ، ولكـن نفسه لم تطق قبول هذه الولاية لضيق رقعتها،وضآلةالعمل فيها ، فتركها ، وقد قيل في المثل (أتفه من تبالة على الحجاج) ٠

وعاد الحجاج بعد ذلك الى مسقط رأسه في الطا ئف، ثم غادرها الى حيث كانت نفسه تتوق ، غادرها الى دمشق ، فدخل في عداد رجال الجيش الذي كان يشـرف على قيادتـه وتدبير أموره المسمى ، روح بن زنباع الجذامي وزير الحرب زمن عبد الملك بن مروان ، وكانت الفوضى اذ ذاك توشك أن تكون عامة بين أفراد هذا الجيش ، وروح التمرد فاشية فيهم ، فنصح ابن زنباع الخليفة ، أن يقلد الحجاج أمر هذا الجيش ، لما وجـد فيـه من صفات تؤهله لذلك ، فاستجاب عبد الملـك لطلبه ، وأخذ الحجاج في تأديب أفراد الجيش بقساوة ، بلغ من شدتها أن جاء ابن زنباع نفسه ، شاكياً باكياً الى عبد الملك ، فقال له ، ما بالك ، فقال يا أمير المؤمنين ، الحجاج بن يوسف الذي كان في عديد جيشي ، ضـرب رجالي وأحرق خيامي ، فقال له : علي به : فلما دخل عليه قال له:ما حملك على ما فعلت، قال : ما أنا يا أمير المؤمنين ، بل أنت والله فعلت ، انما يدي يدك ، وسوطي سوطك، وقد اقتنع عبد الملك بأن ما قام به الحجاج في اخضاع الجند وتاديبهم ، حتى أصبحوا أطوع مـن بنان أمير المؤمنين اليه ، كان في محله ، لأنه لم ينس تلك الأيام التي ظهرت فيها الفوضى ، وتفشت بين أفراد الجيش ، وكان في هذا ما دل عبد الملـك على ما تحلى بـه الحجاج من مقدرة ومهارة في ادارة الأمور ، وحسن تسييرها ، كما كـان من شأن ذلـك ، ان ارتفعت منزلة الحجاج ٠

وللحجاج اعتقاد غريب في خليفة المسلمين ، وفي اسلوب طاعته ، لم يسبقه اليه أحد من الولاة ، فهو يرى ، أن خليفة المسلمين تتجمعفيه صفات كاملة تجعله فوق مصاف البشر ، ويرى أنه مؤيد بالولاية ، معصوم من خطل القول وزلل الفعل ، وهو يقول : ان من خـدم الخليفة فقد خدم الحق ، ومن خرج عليه فقدحاد عن طريق الرشاد ، وجاز قتلـه ، تمشياً مع قوله تعالى (**انما جزاء الذين يحاربون اللهورسوله ويسعون في الأرض فساداً ، أن يقتلوا أو يصلبوا ، أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض**) ٠

حدث الشيباني عن الهيثم عن ابن عباس الذي قال : كنا عند عبد الملك بن مروان ، واذ أتاه كتاب الحجاج يعظم فيه الخلافة،ويرى أن السموات والأرض لم تقوما الا بها ، وأن

الخليفة أفضل من الملائكة المقربين ، والأنبياء المرسلين ، وذلك لأن الله خلق آدم بيده ، وأسجد له الملائكة ، وأسكنه جنته ، ثم أهبطه الى الأرض ، وجعله خليفة ، وجعل الملائكة ، رسلاً اليه ·

وانه لمن الغريب حقاً ، ان عبد الملك بن مروان قد أعجب بما جاء في هذه الرسالة اعجاباً عظيماً ·

ولقد ظل الحجاج على هذه العقيدة ، في جميع ما اتبعه من أساليب في السياسة والادارة ·

ولما خرج عبد الملك لقتال مصعب بن الزبير في العراق سنة ٧٢ للهجرة اصطحب معه الحجاج ، الذي أبلى في قتال مصعب وجنوده بلاء حسناً ، أظهر فيه ضروباً من الشجاعة التي تصحبها كفاية ودراية ، وظل يدير الأمور بقيادة عبد الملك بحنكة ، وحسن تدبير حتى هزم مصعب ، وقتل وتفرق جنده ، وبعدذلك استتب الأمن في العراق ، وخضع لسلطان بني أمية ·

لم يعد يشغل بال عبد الملك بن مروان سوى بلاد الحجاز ، وللحجاز بالنسبة لبقية أجزاء الامبراطورية الاسلامية الخاضعة لسلطان الأمويين ، منزلة كبرى لأن بلاد الحجاز هي بلاد المسلمين المقدسة ، واليها تتجه أنظارهم، وتهفو قلوبهم ، وفيها تقام شعائر ومناسك الحج ، الذي يعتبر أكبر ظاهرة في حياة المسلمين الدينية والاجتماعية ·

وكان عبد الله بن الزبير بن العوام أحد كبار الصحابة ، قد أعلن نفسه خليفة على المسلمين بعد موت يزيد بن معاوية ، وبايعه أهل الحجاز واليمن ، فخاف عبد الملك بن مروان على سلطانه ، ورأى أن لا بد من محاربته لتصبح بلاد المسلمين قاطبة ، خاضعة لسلطان بني أمية ·

فكر عبد الملك ، فيمن يعهد اليه بقيادة الجيش الذي يحارب ابن الزبير ، فلم يجد سوى الحجاج لما رآه فيه حتى ذلك الوقت ، من مقدرة وحسن ادارة وحزم وتدبير مع طاعة وولاء ، فارسله سنة ٧٢ للهجرة ، على رأس جيش كبير من رجال الشام ، ثم عززه بعدد وافر آخر ، وكان الحجاج أنذاك في عنفوان شبابه ما تجاوز الواحدة والثلاثين من عمره ، فحارب ابن الزبير بشراسة وضراوة في البلد الحرام ، ونصب المجانيق ، ورمى الكعبة بها ، واشتد الأمر على ابن الزبير ، حتى تفرق عنه كثير من أصحابه وأهله ، ومما يروى انه دخل في اليوم الذي قتل فيه على أمه أسماء بنت أبي بكر ، وقال لها : يا أمه : خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ، ولم يبق معي الا اليسير ممن لا يصبرون على القتال طويلا ، وعبدالملك ابن مروان أوصى باعطائي اذا أنا تخليت عن الخلافة ما أريده من الدنيا ، فماذا ترين ؟ فأجابته بقولها المأثور :

أنت والله يا بني أعلم مني بما في نفسك،ان كنت ترى أنك على حق واليه تدعو ، فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية ، وان كنت أردت الدنيا فبئس العبد أنت ، فقال لها : اني أخاف يا أمه ، ان قتلوني أن يمثلوا بي ، قالت يا بني : ان الشاة لا يضيرها سلخها بعدذبحها ، ثم ودعها وخرج ، وظل يقاتل بشجاعة وايمان ، حتى قتل هو وأكثر أصحابه وتفرق من حوله ٠

ولما خشي الحجاج عاقبة ما أصاب جماعة بني الزبير ، وما كان لهم من أشياع ، وهم ممن لهم شأنهم ومكانتهم في الحجاز ، بعد أن انكسرت شوكتهم ، ودالت دولتهم ، الأمر الذي قد يؤدي الى انحياز الناس اليهم ، والعطف على ما أصابهم ، فتعود الفتنة الى ما كانت عليه من النقمة عليه وعلى الخليفة عبد الملك ،عمد الى تلافي الأمور ، فأخذ يدعو الى ما يبرر مقتل ابن الزبير وأصحابه ، وقد خطب في الناس خطبته التي قال فيها : الا ان عبدالله بن الزبير ، كان من أحبار هذه الأمة ، حتى رغب في الخلافة ، ونازع فيها وخلع طاعة الله ، واستكن بحرمه ، ولو ان عاصياً يكرم ، لما كان الله أخرج من جنته آدم لما عصاه ، وهو الذي خلقه بيده ، وأسجده ملائكته ، وأدخله جنته ، وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة ٠

هذا وقد التزم الحجاج بعد مقتل ابن الزبير الشدة ، وأمعن في اضطهاد أعوانه حتى ضج منه الناس ، فخشي عبد الملك سوء المغبة ، فعزله عن الحجاز ، بعد أن اطمأنت نفسه الى طاعة أهلها له ٠

ويقال : ان سبب عزل الحجاج عن الحجاز ، ان الحجاج قصد عبد الملك بعد مقتل عبد الله بن الزبير ، ومعه رجل اشتهر في الاسلام ، ولما دخل على الخليفة وسلم عليه قال : قدمت عليك يا أمير المؤمنين برجل الحجاز ، في الشرف والأبوة، وكمال المروءة والأدب، وحسن المذهب والطاعة والنصيحة مع القرابة ، وهو ابراهيم بن محمد بن طلحه ، فان شئت أكرمته بما يستحق ، فقال عبد الملك : يا أبا محمد :أذكرتنا حقاً واجباً ، ائذنوا لابراهيم ، فلما دخل وسلم ، أمره عبد الملك بالجلوس في صدر المجلس ، وقال له : ان أبا محمد الحجاج ، ذكّرنا ما لم نزل نعرفه منك من الأبوة والشرف ، فلا تدع حاجة في خاصة أمرك وعامته الا سألتها فقال ابراهيم : أما الحوائج التي نبتغي بها الزلفى ، ونرجو بها الثواب ، فما كان لله خالصاً ولنبيه ، ولكن لك يا أمير المؤمنين عندي نصيحة لا أجد بداً من ذكري اياها : قال : أهي دون أبي محمد ؟ قال نعم ،قال : قم يا حجاج ، فنهض الحجاج خجلا لا يبصر أين يضع رجله ، ثم قال عبد الملك :قل الآن يا ابن طلحة ، فقال : تالله يا أمير المؤمنين ، انك عمدت الى الحجاج في ظلمه وتعديه على الحق واصغائه الى الباطل ، فوليته الحرمين وفيهما من فيهما من أصحاب رسول الله ﷺ ، وأبناء المهاجرين والأنصار ، يسومهم الخسف ، ويطأهم العسف بطغام أهل الشام ، قال : فاطرق عبد الملك ثم رفع رأسه ،

وقال : كذبت يابن طلحة ، ظن فيك الحجاج غير ما هو فيك ، قم ، فربما ظن الخير في غير أهله ، قال فقمت ، وأنا ما أبصر طريقي ، وقدأتبعني بحارس وقال له : أشدد يدك به ، وقال ابراهيم : فما زلت جالساً ، خارج مجلس أمير المؤمنين ، حتى دعا الحجاج اليه ، فمازالا يتناجيان طويلا ، حتى ساء ظني ، وأنا لا أشك أن تناجيهما هو في أمري ، ثم دعا بي، فلقيني الحجاج في الصحن وهو خارج من مجلس أمير المؤمنين فقبل ما بين عيني ، وقال : أحسن الله جزاءك ، قال فقلت في نفسي ، انه يهزأ بي ،ودخلت على عبد الملك ، فأجلسني مجلسي الأول ثم قال: يابن طلحة: هل اطلعت على نصيحتك أحداً، فقلت لا والله يا أمير المؤمنين، فقال عبد الملك : قد عزلت الحجاج عن الحرمين ، وأعلمته أنك استقللت ذلك عليه ، وسألتني له ولا ية أكبر ، ولقد وليته العراقين ، وقررت له ، ان ذلك بسؤالك ، ليلزمه من حقك ما لا بد له من القيام به ، فاخرج معه غير ذام لصحبته .

سافر الحجاج الى العراق سنة ٧٥ للهجرة ، فبدأ بمسجد الكوفة وهو متلثم بعمامة خز حمراء ، قد غطى وجهه، متقلداً سيفاً ، متنكباًقوساً ، وكان أهل الكوفة يعلمون بقدومه ، وكان الناس في فزع منه ، فصعد المنبر ، ومكث فترة طويلة لا يتكلم ، فقال بعض الجالسين ، لعن الله هذا ، ولعن من أرسله ، أرسل الينا غلاماً عيياً ، لا يستطيع أن ينطق ، وأراد بعضهم أن يحصبه ، ولما رأى الحجاج عيون الناس اليه ، حسر اللثام عن فيه ، وألقى خطبته الملتهبة المشهورة :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني(١)

ثم قال : يا أهل العراق : اني لأرى رؤوساً قد أينعت ، وحان قطافها ، واني لصاحبها وكاني أنظر الى الدماء بين العمائم واللحى ثم قال :

هذا أوان الشد فاشتدي زيم قد لفها الليل بسواق حطم(٢)
قد لفها الليل بعصلبي أروع خراج من الدوي(٣)
مهاجر ليس باعرابي
قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدّت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عردّ مثل ذراع البكر أو أشد(٥)
لا بد مما ليس منه بد

وتابع قوله : اني والله يا أهل العراق ، ما يقعقع لي بالشنان(٦) ولا يغمز جانبي كتغماز التين ، ولقد فررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ، وأن أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، نثر كنانته بين يديه ، فعجم عيدانها ،فوجدني أمرها عوداً ، وأصلبها مكسراً ، فرماكم بي ، لأنكم طالما أوضعتم(٧) في الفتنةواضجعتم في مراقد الضلال ، والله لأحزمنكم

حزم السلمة(٨) ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل ، (**فانكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة ياتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بانعم الله ، فاذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون**) واني والله ، لا أقول الا وفيت، ولا أهم الا أمضيت ، ولا أخلق الا فريت،وان أمير المؤمنين أمرني أن أعطيكم أعطياتكم ، وان أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة ، ، واني أقسم بالله : لا أجد أحداً ،تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام الا سفكت دمه ، وأنهبت ماله ، وهدمت منزله • ثم قال: يا غلام اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين ، فقرأ عليهم :

بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين ، الى من بالكوفة من المسلمين ، سلام عليكم ، فلم يقل أحد منهم شيئاً ، فقال الحجاج : اسكت يا غلام ، ثم أقبل على الناس وقال : سلم عليكم أمير المؤمنين ؟فلم تردوا شيئاً : هذا أدب ابن نهية(٩) والله لاؤدبنكم غير هذا الأدب ، أو لتستقيمن ، اقرأيا غلام كتاب أمير المؤمنين ، فلما بلغ الى قوله سلام عليكم ، لم يبق أحد في المسجد الا وقال وعلى أمير المؤمنين السلام • ويقال انه لو لم يستعمل الحجاج الشدة في هذه الخطبة لأخفق في سياسته •

ظل الحجاج يقاتل المرتدين ويلاحقهم حتى استتب الأمر في العراق وخضع أهله للامويين وهكذا امتدت بعد ذلك الفتوحات نحو الشرق حتى وصلت الى حدود الصين •

لعل من أهم ما يسترعي اهتمام من يطلع على ما كتب عن الحجاج ، وعن أعماله ، في مختلف البلاد العربية التي ولي شؤونها ،وادارتها خلال مدة طويلة، هو الشدة القاسية، التي كثيراً ما كان يرجع اليها ، وعلى الأخص، في العراق حيث بلغت أقصى حدودها مع ضروب من القسوة التي جنح اليها في قوله وعمله ، في كثير من المواقف الخشنة ، التي كان يواجه بها أخصامه أو معارضيه فيتحداهم تحدياً سافراً يبلغ قسوته أن يصبح نوعاً من التعذيب والتنكيل دون خشية أو حذر ، ويكفيني تدليلا على ذلك ، أن أشير الى بعض مقاطع من خطبه ، التي كان يجابه بها الناس ممن ولي أمرهم ، يريد بها اخضاعهم الى ما يطلبه منهم من طاعة واستسلام •

لقد قال في واحدة من خطبه ، حينما صعد المنبر ، وأشرف على الناس في المسجد المكتظ بالمصلين •

يا أهل العراق : اني لم أجد لكم دواء أدوى لدائكم ، من هذه المغازي والبعوث ، لولا طيب ليلة الاياب ، وفرحة القفل(١٠) من عندكم فهي تعقب راحة ، واني لا أريد أن أرى الفرح عندكم ، ولا الراحة بكم ، وما أراكم الا كارهين لمقالتي ، أنا والله لرؤيتكم أكره ، ولولا ما أريد من تنفيذ طاعة أمير المؤمنين فيكم ، ما حملت نفسي مقاساتكم ، والصبر على النظر اليكم ، والله أسأل حسن العون عليكم • ثم نزل عن المنبر •

وحين أراد الحجاج السفر الى الحج ، صعد المنبر في يوم سفره ، والمسجد مليء بالناس ، فبادأهم القول متحدياً اياهم بصوت أجش غاضب : يا أهل العراق ، اني أردت الحج ، وقد استخلفت عليكم ابني محمداً ، وما كنتم له بأهل ، وأوصيته فيكم : بخلاف ما أوصى رسول الله ﷺ في الانصار ، فانه أوصى أن يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم، وأنا أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ، ولايتجاوز عن مسيئكم ، الا أنكم قائلون بعدي، مقالة ، لا يمنعكم من اظهارها ، الا خوفكم ،تقولون : لا أحسن الله له الصحابة ، واني أعجل لكم الجواب فلا أحسن الله عليكم بالخلافة ، ثم نزل عن المنبر .

ولعل من أهم ما تجب الاشارة اليه هنا ، بعد أن أوردت هذه النماذج من الأقوال والخطب المشحونة بالكلمات القارصة والمعاني المؤذية ، أن ذلك لم يقتصر على الأقوال التي هي أشبه ما تكون بالسباب والشتائم ، بل كثيراً ما كان الأمر يتعدى الى الأعمال الخشنة الظالمة ، التي تذهب بأرواح الكثيرين من الناس وذلك بمجرد أحكام متروكة لمشيئته وعلى أساس ما يتراءى له .

ولعل الحجاج في مجمل أعماله ، وخلال الأزمان التي قضاها ابان ولايته ، في مختلف الجهات ، قد قضى على الآلاف من الناس ، بمجرد حكمه عليهم بأنهم ممن يستحقون القتل بنظره ، وبمجرد شعوره بأنهم غير جديرين بأن ينعموا بالعيش ، وهم على ما هم عليه من رأي وعقيدة . لا تتمشى مع الطاعة والولاء لأمير المؤمنين الذي عهد اليه بالولاية عليهم .

ويروى أن الحجاج حينما يستدعي بعض الناس اليه ليتحدث معهم ويستمع اليهم في أيام الشدة كان يجلس في قاعة ذات بابين اثنين ،وكان الباب الأول ، لا يخرج منه الا من رضي عنه ، أما الباب الثاني ، فلا يخرج منه الا من وجده الحجاج انه ما زال على ضلاله بعيداً عن التسليم بما يطلب منه من طاعة ، وليس أمامه الا سيف الجلاد الذي ينتظره وراء الباب الثاني .

ويقال : ان أحد المستدعين الى هذه القاعة ، وقد طال الجدل بينه وبين الحجاج ، فقال له الحجاج ، اذن لم يبق لك الا أن تنصرف ،وكان الرجل ذكياً فطناً ، عليماً بأسرار المجالس ، يعرف ما لا يعرف غيره ، وشعر من حديث الحجاج معه ، انه لا بد هالك ، فقال للحجاج : قبل أن ينصرف ، يا حجاج : ان النصيحة أمانة في عنق المؤمن ، ولهذا فاني أسألك من أي باب تنصحني أن أخرج ، فاطرق الحجاج حيناً ، ثم رفع رأسه ، وقال : لقد غلبتني أيها الرجل ، أشهد الله اني قد عفوت عنك ثم أخرجه من باب النجاة .

لقد وفق الحجاج بسياسته هذه توفيقاً عجيباً ، وأخذ على الفور بعد ذلك ، التطلع الى ما من شأنه ارضاء الناس عنه ، ساعده على ذلك أيضاً ان الجيوش الاسلامية ما برحت تسير ظافرة ، يقودها من بعثهم الحجاج من رجال الخليفة مخترقة قلب آسيا ، موفقة بسيرها أينما اتجهت وحيثما حلت .

فكر الحجاج ، اذ ذاك ، بما لم يفكر بهأحد من ولاة الاسلام ، قبله فمال الى العمران، وابتدأ ببناء مدينة تقومجديدة بذاتها وحديثة بالنسبة الى ذلك الزمن بكل ما فيها ، يؤمهـا الناس ، وتقصدها الجماعـات من كل حـدبوصوب فتزيد في توسيع رقعة البلاد الاسلامية ، وقد سماها (واسطا) وولى ابن أخيه واليـاًعليها ، ثم اتخذها مركزاً له ، وقد شجعه هذا التوفيـق في كل أعمـاله وتصـرفاتـه التيقـام بهـا ، عـلى الالتفـات الى الأخـذ بالاصلاح في جميع نواحيه ، فأقام الجسور التيهدمتها الحرب ، كمـا فتح الأقنيـة ، وجفف المستنقعات وعني بالنظافة فعـود الناس ما استطاع عليها في المدن والقرى، بعد أن أوصى بها وعاقب من خالف تعاليمها ، ولم يدع ناحيةمن نواحي الاصلاح الا وحققها ، وكان مـن أهم ما عني به ، لغة الدواوين ، فقد جعلهـاعربية صرفة، بعد أن كانت يونانية في سورية، قبطية في مصر ، وبهلوية في العراق ، كما عني بتنقيط القرآن ، فاودع أمر ذلك الى العلماء والشيوخ الثقات الذين انصرفوا للعمل حتـىأتمـوه ٠

وجدير بي بعد أن شرحت ما شرحت عنالحجاج وسيرته أن أنتقل الى جو آخر له صلة بطائفة من قصص وقعت مع الحجاج ففي سردها أشياء من المتعة تحلو وقد اقتصرت في هذه القصص على التي ورد لها ذكر في أكثر المصادر التي بحثت عن الحجاج ٠

روى صاحب زهر الآداب :

ان الحجاج لما ظفر بعمران بن حطان الشاري أحد الخوارج قال : اضربوا عنق ابن الفاجرة ، فقال عمران : لبئس ما أدبك بـهأهلك يا حجاج.قال : ويحك المثلي يقال هذا ؟ قال عمران : ثكلتك أمك ، أبعد الموت تريدنيأن أصانعك ؟! فاطرق الحجاج برهة ، ثم نادى أن أطلقوا سراحه فقد عفوت عنه ٠

وقيل : ان الحجاج ، خرج يوماً للصيد معقواده ، فضل الطريق ، فقابله أعرابي يرعى الغنم ، فسأله الحجاج ، ما رأيك يا أعرابي فيالحجاج ؟ فقال : لا حياه الله ، ولا بياه فهـو ظالم غاشم ، فقال الحجاج : لم لا تشكونه الىعبد الملك بن مروان ، فقـال : لعنه الله هـو الآخر ، لو لم يكن أظلم منه وأغشم ، لما ولاه علينا ، فلمـا لحق بالحجـاج قواده ، وتبيـن للأعرابي أنه هو الحجـاج ، همس في أذنـهقائلا : اجعل الحـديث الذي دار سراً بيننـا يا حجاج ، لا تطلع عليه أحداً فضحك من قولهولـم يسيء اليه ٠

وهنالك قصة أخرى ما برحت تنقـل فيكتب الأدب ، فقـد روي عن أبي عباد قـال : أدركت الخادم الذي يقوم على خدمة الحجاج،فقلت لـه : أخبـرني بأعجب شيء رأيتـه في الحجاج ، قال : ولّي ابن أخ الحجاج أميراً على مدينة واسط ، وكان بها امرأة يقال لهـا (أبّه) لم يكن بواسط في ذلك الوقت أجملمنها ، فارسل ابن أخ الحجاج اليها يراودهـا عن نفسها مع خادم له ، فأبت عليه ، وقالت :ان أردتني فاخطبني الى اخوتي ، وكان لهـا

أربعة اخوة ، فأبى ، وقال الا كذا ، وعاودها ،فأبت ، فراجعها وأرسل اليها بهدية ذات قيمة فاخذتها وعزلتها ، وأرسل اليها عشية ليلةجمعة ، اني أتيك الليلة ، فقالت لأمها : ان الأمير بعث الي بكذا وكذا ، فأنكرت أمها ذلك، وقالت لاخوتها ان اختكم قد زعمت كيت وكيت ، فانكروا ذلك • وكذبوها ، فقالتانه وعدني أن يأتيني الليلة فترونه قال فقعد اخوتها في بيت حيال البيت الذي هي فيه ،وجارية لها على باب الدار تنتظره فجاء ونزل عن دابته وقال لغلامه : اذا اذن المؤذن أذانالصبح فأتني بدابته ، ودخل والجارية أمامه، فوجد أبّه على سرير مستلقية ، فاستلقى الىجانبها ، ثم وضع يده عليها ، فقالت له : كف يدك يا فاسق ، ودخل اخوتها عليه ، وبأيديهم السيوف ، فقطعوه ثم لفوه في نطع وجاؤوا به ، الى سكة من سكك واسط ، فألقوه فيها • وجاءالغلام بالدابة فجعل يدق الباب دقاً رقيقاً فلا يجيبه أحد ، فلما خشي الضوء وأن تعرفالدابة ، انصرف وأصبح الناس ، فاذا هم بأمير واسط قتيلا على تلك الصفة ، فأتوا بهالحجاج، فقال عليّ بمن كان يخدمه ، فأتي به، فقال له : اصدقني عن خبره وقصته فترددفقال له : ان صدقتني لم أضرب عنقك ، وان لم تصدقني فعلت ، قال : فأخبره الأمر علىجهته ، فأمر بالمرأة وأمها واخوتها ، فجيء بهم ، وعزلت المرأة عنهم ، وسألها فاخبرتهبمثل ما قال الخادم ، ثم سأل اخوتها فأخبروه بمثل ذلك ، ولم يختلفوا وقالوا نحن صنعنا بهالذي ترى ، فقالت المرأة هديته عندي • فقال لها الحجاج ، بارك الله لك فيها ، وكثر فيالنساء أمثالك ، وان كل ما ترك من شيء فهو لك ، وقال لأعوانه مثل هذا لا يدفن ألقوهللكلاب •

وقيل :

دخل الحجاج على الوليد بن عبد الملك ،وعليه درع وعمامة سوداء وقوس عربية وكنانة ، فبعثت الى الوليد أم المؤمنين بنتعبد الملك بن مروان تقول له ، من هذا الأعرابي المستلئم في السلاح عندك ، وأنت فيغلالة ، فبعث اليها ، ان هذا هو الحجاج ابن يوسف ، فأعادت الرسول اليه تقول ، واللهلأن يخلو بك ملك الموت أحب الي من أن يخلو بك الحجاج ، فأخبره الوليد بذلك ، وهويمازحه ، فقال يا أمير المؤمنين : دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول ، فانما المرأةريحانة وليست بقهرمانة ، فلا تطلعها على سرك ومكايدة عدوك ، فلما دخل الوليد عليها،أخبرها بمقالة الحجاج فقالت يا أمير المؤمنين، حاجتي أن تأمره غداً يأتيني مسلماً ، ففعلذلك ، فأتاها الحجاج فحجبته طويلا ثم قالت له : أيه يا حجاج أنت الممتن على أمير المؤمنينبقتلك عبد الله بن الزبير وابن الأشعث ، أما والله لولا أن الله علم أنك من شرار خلقه ،ما ابتلاك برمي الكعبة ، وقتل ابن ذات النطاقين ، اخرج لا أريد أن أرى وجهك ،فخرج ولم ينبس ببنت شفة •

وهذا أنموذج آخر وقع مع الحجاج :

حكي أن هند ابنة النعمان كانت أجمل أهل زمانها ، فوصف للحجاج حسنها ، فانفذ اليها يخطبها ، وبذل لها مالا جزيلاً ، ثم تزوجها وشرط لها عليه بعد الصداق مائتي ألف درهم ، ثم انها جاءت معه الى بلد أبيها في المعرة ، وكانت فصيحة أديبة ، فأقام بها

الحجاج بالمعرة مدة طويلة ، ثم رحل بها الى العراق ، فاقامت معه فيها وقد دخل عليها في بعض الأيام ، وهي تنظر في المرآة وتقول بصوت عال :

وما هند الا مهرة عربية سليلة أفراس تحللها بغل
فان ولدت فحلا فلله درها وان ولد بغلا فجاء به البغل

فانصرف الحجاج غاضباً ، ولم يدخل الدار ، ولم تكن هند قد علمت به ، فاراد الحجاج طلاقها ، فانفذ اليها ، عبد الله بن طاهر ، وانفذ معه مائتي ألف درهم ، وهي التي كانت عليه وقال له : يا بن طاهر طلقها بكلمتين ولا تزد عليهما ، فدخل عبد الله عليها فقال لها يقول لك أبو محمد الحجاج كنت فبنت ، وهذه المائتا ألف درهم التي كانت لك قبله ، فقالت : اعلم يا بن طاهر ، والله كنا فما حمدنا ، وبنا فما ندمنا ، وهذه المائتا ألف درهم بشارة لك بخلاصي من كلب بني ثقيف ، ثم بعد ذلك بلغ أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان خبرها ، ووصف له جمالها ، فارسل اليها يخطبها ، فارسلت اليه كتاباً تقول فيه بعد الثناء عليه : اعلم يا أمير المؤمنين ان الاناء ولغ به كلب ، فلما قرأ عبد الملك الكتاب ضحك من قولها ، وكتب اليها يقول ، اذا ولغ الكلب في اناء أحدكم فليغسله سبعاً ، احداهن بالتراب ، فلما قرأت الكتاب لم يمكنها المخالفة ، فكتبت اليه بعد الثناء عليه ، يا أمير المؤمنين ، والله لا أحل العقد الا بشرط ، فان قلت ما هو الشرط ، قلت أن يقود الحجاج محملي من المعرة الى بلدك التي أنت فيها ، ويكون ماشياً حافياً ، بحليته التي كان فيها ، أو (لا) فلما قرأ عبد الملك ذلك الكتاب ، ضحك ضحكاً شديداً ، وانفذ الى الحجاج يأمره بذلك ، فلما قرأ الحجاج رسالة أمير المؤمنين ، أجاب وامتثل الأمر ، ولم يخالف وأنفذ عبدالملك الى هند يأمرها بالتجهز ، فتجهزت وسار الحجاج في موكبه حتى وصل المعرة بلد هند ، فركبت هند في محمل الزفاف وركب حولها جواريها وخدمها ، وأخذ الحجاج بزمام البعير يقوده ويسير بها ، فجعلت هند تتواغد عليه وتضحك مع الهيفاء دايتها ، ولما قربت من بلد الخليفة ، رمت بدينار على الأرض ، ونادت يا جمال : قد سقط منا درهم فارفعه الينا ، فنظر الحجاج الى الأرض ، فلم يجد الا ديناراً ، فقال انما هو دينار ، فقالت بل هو درهم ، قال بل دينار ، فقالت الحمد لله الذي أبدل درهمنا بدينار فخجل الحجاج ولم يرد جواباً .

ومن مباذله ان الحجاج قد أهدي جاريتين احداهما سوداء والثانية بيضاء فقال لهما في ليلة من لياليه أريد من كل منكما أن تمدح نفسها وتذم رفيقتها فقالت السوداء :

ألم ترَ ان المسك لا شيء مثله وان بياض اللفت حمل بدرهم
وان سواد العين لا شك نورها وان بياض العين لا شيء فافهم

فأجابتها البيضاء :

ألم ترَ ان البدر لا شيء مثله وان سواد الفحم حمل بدرهم

وان رجال الله بيض وجوههم ولا شك ان السـود أهل جهنـم

فضحك الحجاج وأكرمها ٠

أدركت الحجاج المنية سنة ٩٥ للهجرة فيمدينة واسط التي بناها وكان له من العمـر أربعة وخمسون عاماً وقد دخل عليه وهو فيغمرات الموت يعلى بن مخلّد المجاشعي وقـال كيف ترى حالك يا حجاج من سكرات المـوتفقال : يا يعلى : غماً شديداً ، وجهداً جهيداً ، وألماً مضيضاً ، وسفراً طويلاً ، وزاداً قليلا ،فويلي ان لم يرحمني الجبار ٠

ومما لا شك فيه ان الحجاج كان في مجملما قام به من شؤون في العراق والحجازوغيرهما رجلا فذاً جريئاً مقداماً يعجبه الصدق ويطمئنللكلمة الحسنة وقد أقدم على أعمال لها شأنها وأثرها في ادارة الأمور التي تتطلبها سياسـةالشعوب بما يتفق والتقاليد والعقائد التـي كانت متأصلة في النفوس وهو أول من وضـعلبنة في توحيد البلاد العربية واخضاعها الـى سلطان واحد وهو الى هذا خطيب بليغ قـل انيجود الزمن بمثله غير انه مات ولسان حـال النـاس فيـه ٠

وكم شامت بي ان هلكت وقائل لله دره ٠

☐ المصـادر :

١ ـ ابن جلا : رجل فاتك من فتاك العرب ٠

٢ ـ زيم : اسم فرس الحجاج وناقته ٠ السواق الحطم : الذي يسوق الجمال بقسوة ٠

٣ ـ العصلبي : الشديد القوي ٠ الأروع : الذكي ٠ الدوي : الفلاة المتسعة التي يسمع لها دوي في الليل ٠

٤ ـ أي ليس ساذجة غر ٠

٥ ـ العرد : الشديد ٠

٦ ـ الشنان : جلد يابس يضرب عليه فيسمع له صوت تخاف منه الابل ٠

٧ ـ اوضعتم : اسرعتم ٠

٨ ـ السلمة : شجرة كثيرة الشوك ٠

٩ ـ ابن نهية : والي عبد الملك على الكوفة قبل الحجاج ٠

١٠ ـ القفل :لعودة ٠

قطب العصر
عمر البكري الحسيني
اليافي الدمياطي
١١٧٣ - ١٢٣٣ هـ - ١٧٥٩ - ١٨١٨ م

د. عمر موسى باشا

☐ **اسمه ونسبته ولقبه وكنيته :**

أبو الوفاء ، قطب الدين عمرُ بن محمد بن محمد(١) ، (الدمياطي) محتداً، (اليافي) شهرة ومولداً ، (الغزي) وطناً ، (الحنفي) مذهباً ، (الخلوتي) طريقة، (البكري) مشرباً ، (الحسيني) نسباً »(٢) .

نبدأ بلقب الشاعر « الدمياطي » ، نسبة الى دمياط وهي مستقر أجداده العرب فيها « وهي مدينة قديمة بين تنّيس ومصر على زاوية بين بحر الروم الملح والنيل مخصوصة بالهواء الطيب وعمل ثياب الشرب الفائق وهي ثغر من ثغور الاسلام »(٣) ، وجرت فيها مواقع مشهورة مع الفرنجة بسبب موقعها الجغرافي بوابة على بحر الروم .

وقد أشار ياقوت الى أهميتها ، وأورد ما جاء في الحديث عن عمر بن الخطاب أنه قال : « قال رسول الله (ﷺ) : يا عمر انه سيفتح على يديك بمصر ثغران: الاسكندرية، ودمياط ، فأما الاسكندرية فخرابها من البربر ، وأما دمياط فهم صفوة من شهداء من رابطها ليلة كان معي في حظيرة القدس مع النبيين والشهداء ... »(٤) .

هذه هي دمياط ثغر من ثغور الاسلام والمرابط فيها في حظيرة القدس مع النبيين والشهداء .

وأما نسبته (اليافي) فهي بالنسبة الى(يافا) ، بالفاء والقصر ، وهي مدينة « على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا »(٥) ، وكانت معرضة للهجوم عليها من الفرنجة في كثير من الأحيان،وقد استعادها منهم صلاح الدين الأيوبي سنة

٥٨٣ هـ/١١٨٧ م • ثم استولى عليها الأفرنج في سنة ٥٨٧ هـ ، واستعادها الملك العادل أبو بكر بن أيوب سنة ٥٩٣ هـ/١١٩٦ م • والنسبة اليها (يافيّ) ، وربما نسب اليها فقلوا : (يافوني) والعامة تنسب اليها بقولهم: (يافاوي) • وممن نسب اليها أبو العباس محمد بن عبدالله بن ابراهيم » ابن عُمَير اليافوني، وأبو طاهر عبدالواحد بن عبدالجبار اليافوني(٦) •

وأما نسبته (الغزي) فهي بالنسبة الى (غزة) بفتح أوله ، وتشديد ثانيه وفتحه ، وهي « مدينة في أقصى الشام ، من ناحية مصر ••• وهي من نواحي فلسطين غربي عسقلان »(٧) ، بينهما فرسخان أو أقل ، ويقال لها (غزة هاشم)(٨) • وهذه الاضافة توضح أهميتها في تاريخنا العربي وحضارتنا التليدة • فالمعروف أن هذه المدينة تضم قبر جد الرسول (ﷺ) هاشم بن عبد مناف ، وقد مات فيها في العشرين أو الخامسة والعشرين من عمره ، وقد ورد ذكرها في شعر أبي ذؤيب الهذلي(٩)، وشعر أبي نواس(١٠)، وشعر مطرود بن كعب الخزاعي(١١) •

وهذه الشواهد توضح أهمية هذه المدينة قومياً وعلمياً ، فقد كانت الموطن الذي ولد فيه الامام المجتهد الكبير أبو عبدالله محمد بن ادريس الشافعي ، وكان يحن اليها كثيراً ، ويذكرها مشتاقاً(١٢) :

وانـي لمشتـاق الى أرض غـزة   وان خانني بعـد التفـرق كتمـاني
سقى الله أرضـاً لو ظفـرت بتربهـا   كحلت بهـا مـن شدة الشوق أجفاني

هكذا كانت غزة المدينة العريقة ذات تأثير كبير في ثقافة الشاعر ، وسوف نجد أهميتها في تصوف الشاعر •

وأما نسبته (الخَلوتي) فهي نسبة الى (الخَلوة) ، والمقصود بها الصوفي ، وخاصة من يلتزم من المتصوفة الخلوة التامة ، والبعد عن الناس بعداً كلياً، وقد أطلق هذا الاصطلاح على طائفة منهم عرفت بذلك •

ولا بد لنا من الاشارة الى المعنى الاصطلاحي ، فقد عرّف الشريف الجرجاني (الخلوة) بقوله : « محادثة السرّ مع الحق ، حيث لا أحد ولا ملك »(١٣) • وأصبحت الخلوة مذهباً صوفياً معروفاً ، تنسب اليه طائفة من المتصوفة واليافي واحد منهم •

وأما نسبته (البكري) التي اشتهر كثيراً بها ، وتغنى بها في كل مناسبة شعرية تعرض له وخاصة في أواخر قصائده وقدوده وغيرها، ومن المستحسن أن نستأنس بما قاله الشاعر نفسه ، فمن ذلك قوله(١٤) :

محمدٌ عنـد الله حـيٌ وجَـدُنـا   ضجيعُ رسولِ الله في صدقِ مَقْعَدِ
له ثانيـاً ، في الغار ، كان ولم يزل   (أبو بكر الصدّيق) عنـد محمّدِ

وقد يقرن اسمه (عمر) بنسبته (البكري) أو (الصديقي) ، أي أن نسبه يرتفع الى أبي بكر الصديق ، عبدالله بن أبي قحافة عثمان بن عامر بن كعب التيمي القرشي ، وهو سيد من سادات قريش ، وأول من آمن بالرسول محمد (ﷺ)، وأول الخلفاء الراشدين، ذكر أنه لقب بـ (الصدّيق) قيل كان ذلك في الجاهلية ، وقيل كان ذلك في الاسلام لتصديقه النبي في خبر الاسراء ٠

ولذلك كان الشاعر حريصاً على التغني باسمه مقروناً بـ (البكري) أو (الصدّيق) و (الصديقيّ) ٠ ومن ذلك قوله في مقطوعة ثنائية قيلت في ممدوحه علي بك متولي عكا(١٥) :

أحييتُ من أضحى علياً كاسمه فطفقت أنشد والنشيد يلذ لي

أنا خادم (الصدّيق) واسمي في الورى (عمر) ولكني أميل الى (علي)

ومن ذلك قوله ذاكراً نسبته (البكري)(١٦) :

وأنني (عمر) الفاني الفقير ومن بين البريّة بـ (البكري) متّصفي

وقد يقصد بالبكري أستاذه الأكبر ، فهو من السلالة نفسها ٠

وأما نسبته (الحسيني) فهو اشارة الى ما ورد عن الامام جعفر الصادق « ولدني أبو بكر مرتين ، الأولى عن طريق أمي ، والثانية عن طريق أمها » كما ورد في الأنوار البهية لعباس القمي ٠

أما اسمه (عمر) والنسبة المشهورة فقد تكررت في شعره عامة ، وخواتيم قصائده خاصة ، من ذلك قوله(١٧) :

أو ما (عمر اليافي) شدا قم نحو حماه وانصرف

وقوله في أحد قدوده(١٨) :

ما ذو الغرام الوافي (عمر المحب اليافي)

هذه النسبة السبعية التي تعمدنا الوقوف عندها ، لأنها مرآة العصر ، ومن خلالها نستطيع معرفة الاتجاهات الاجتماعية والفكرية والمذهبية ، وقد لاحظنا أهمية ذلك كله في حياة الشاعر نفسه ، وسوف يتضح ذلك كله من خلال بحث الحياة الخاصة به ، ضمن الأطر العامة التي حددناها من خلال الشعر والشاعر ٠

نستطيع الالمام بحياة الشاعر من خلال أربع مراحل ، اشتملت على طلب العلم ، وسلوك التصوف، والسياحة الاجازية العلمية، والاقامة المستقرة الدائمة بعد ذلك كله، ولا بد لنا من توضيح ذلك ٠

مرحلة النشأة

١١٧٣ ـ ١١٨٢ هـ

ولد الشاعر في مدينة يافا على ساحل بحر الشام سنة ١١٧٣ هـ ـ ١٧٥٩ م وقد عاصر خمسة من سلاطين آل عثمان هم: السلطان مصطفى الثالث، والسلطان عبدالحميد الأول، والسلطان سليم الثالث، والسلطان مصطفى الرابع، والسلطان محمود الثاني بن عبدالحميد، وقد أرّخ جلوسه على عرش السلطنة سنة ١٢٢٣ هـ بقوله(١٩):

جلوس سلطاننا المسعودُ طالعهُ ... عيد كبير له في الملك تأبيدُ
أبشِرْ وبَشِّرْ اذا ما أرّخوه وطب ... فالدهر أشرق والسلطان محمودُ(٢٠)

كانت نشأته الأولى في يافا كما ذكرنا، وبها اشتهر نسبه اليها، وكان القرآن مدرسته ومصدره، فقرأه تعلماً، وتلاه تفهماً، وهو دون العاشرة من عمره « تجويداً وحفظاً واتقاناً »(٢١)، وكان أستاذه الأول الذي شجعه على طلب العلم هو الشيخ علي الخالدي، ولم يقتصر الأمر على أستاذه، وانما تابع طلب العلم في بلده يافا قراءة على الشيخ نورالدين علي الرشيدي، والشيخ شمس الدين محمد مهيار، الحنفيين، والشيخ أبي التقي عبدالقادر الطرابلسي، والشيخ شهاب الدين أحمد زائد الغزي، وغيرهم، لاستكمال علومه الدينية، والعلوم العربية. وكان أثر هذه المرحلة كبيراً في حياته، اذ نحا في مذهبه منحى الفقه الحنفي، وأصبح بارعا في أصوله وعلله وفروعه، بالاضافة الى تضلعه من الحديث النبوي نفسه، بيد أن هذا لم يمنعه من التوجه الأدبي عامة والشعري خاصة منذ بواكير عمره، قبل أن يتجاوز العشرين من عمره.

مرحلة الطلب والعلم

١١٨٣ ـ ١١٩٢ هـ

شرع يطمح في المزيد من طلب العلم والاستزادة من المعرفة، فارتحل الى نابلس، فأخذ عن الشيخ صفي الدين محمد بن محمد البخاري، والشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد الباقاني، والشيخ محمد بن أحمد المنقاري، واستقر بعد ذلك عند الشيخ شهاب الدين النخال الغزي، والشيخ أبي النجا سالم السلمي، والشيخ سليم الدجاني، الشافعيين ذلك لأن حاضرة غزة كانت كعبة المتصوفة البكرية آنذاك لوجود الصوفي البكري الكبير أبي المعارف قطب الدين السيد مصطفى بن كمال الدين البكري الصديقي المتوفى سنة ١١٦٢ هـ، ونعته بأنه « الأستاذ الكبير »(٢٢)، وهو « العالم العلامة، الولي العارف الرباني، ذو الكرامات الظاهرة، والمكاشفات الباهرة »(٢٣)، وذكر أنه صاحب (الفتح القدسي والكشف الأنسي) المسمى بـ (ورد السحر)، كما ذكر أنه « ذو التآليف المفيدة والتصانيف الكثيرة المشهورة »(٢٤) في التصوف.

وخلفه ابنه شيخ الشيوخ أبو الفتوح كمال الدين الصديقي « العالم العلامة ، والعارف الحبر البحر الفهامة ، الأستاذ المرشد »(٢٥) صاحب البديعية النبوية ، وله تأليف حسان ، المتوفى سنة ١١٩٦ هـ ، وهو أستاذ الشاعر اليافي ، وقد خصهما الشاعر بالذكر في شعره تصريحاً وتلميحاً ، عشرات المرات · ذلك لأن أجداده كانوا ينحدرون من أصل مصري ، هم في الأصل من أهل دمياط محتداً ونسباً وأصلاً ، ومن حق أجداده أن يؤدي واجب الوفاء الى كعبته موطن الأسرة اليافية في أرض الكنانة ·

ودعاه طموحه الى متابعة رحلته العلمية الى مصر ، وقد عرف عنه أنه أخذ عن معظم شيوخها ممن يرتحل اليهم لطلب العلم ، وهم كثيرون ، ويبدو أن مقامه لم يكن طويلاً اذ لم يذكر ولم يشر الى أحد منهم في ديوانه مدحاً ، أو ثناء ، وربما كانت رحلته استكمالاً لطلب الاجازات العلمية جرياً على سنة ارتحال الشداة من العلماء ، فكانت قاصرة على نابلس ومصر ·

مرحلة التصوف
١١٩٣ ـ ١١٩٧ هـ

يبدو لنا أن الشاعر اليافي بدأ بحكم ثقافته الدينية ، يتوجه توجهاً صوفياً ، ذلك لأن الثقافة الاسلامية في هذا العصر وانتشار التصوف فيه انتشاراً منقطع النظير جعلا الشاعر يكب على مطالعة كتب المتصوفة ، ومن ثم الانخراط في طوائفهم والاقتداء بسلوكهم في مجالسهم ·

وكانت عودته من مصر تحولاً جذرياً في حياته واتجاهاته ، وكانت غزة نقطة التحول ، فلم يعد الى بلده يافا ، وانما آثر الاقامة في غزة ، ويصح أن نطلق على هذه المرحلة ، المرحلة الصوفية الغزية ·

والمعروف عن الشيخ الشاعر اليافي أنه كان من مريدي الصوفي البكري كمال الدين فأخذ عنه الطريقة الخَلْوتية الصوفية واستكمل منه مذهبه الصوفي ، واطلع على علوم الحقيقة ·

كان شيخه كمال الدين أبو الفتوح نقطة التحول الكبرى في حياته لأنه قد احتضنه وسلكه بين مريديه منذ أن التقى به في غزة ، وأخذ عنه خِرْقة التصوف ·

كان الشاعر على صلة بهذين الصوفيين البكريين الغزيين ، الصوفي الوالد أبي المعارف قطب الدين السيد مصطفى الصديقي ، والصوفي الابن أبي الفتوح كمال الدين الصديقي ، وعلاقته بهما مزدوجة علاقة النسب أولاً ، وعلاقة التصوف ثانياً ·

يؤكد ذلك عشرات الاشارات اليهما في قصائده ، لأن في ذلك تجسيداً لواقع الحال انتساباً وصلة ومآلاً ·

أما علاقتـه بقطب‌الدين فتظهر في الديوان في طرة احدى قصائده :

« ومما نقل عن الأستاذ السيد كمال‌الدين ··· قدس سره أن حضرة والده عند احتضاره شرع ينظم قصيدة مطرزة بحروف‌الهجاء فنظم منها تسعة أبيات ، وانتقل الى رحمة ربه فأتمها حضرة صاحب هذا الديوان،وهذه صورتها بتمامهـا ··· »(٢٦) ·

وهي قصيدة ميمية مؤلفة من ثمانية وعشرين بيتاً ، تسعة منها من نظم قطب‌الدين مصطفى البكري ، والباقي مـن نظم الشاعرقطب‌الدين اليافي(٢٧) :

أسعفي يـا ذات ربـي بالمنـى وارأفي بالعبـد قـد طـال العنـا

روحـي روحـي بـراح قدست مـن قـديم في قنـاني شـربنـا

كما أنه خمّس قصيدة مشهورة للصوفي الوالـد مصطفى البكري وسـوف نعرض لذلك كله في معرض دراسة الأغراض والمعاني ·

مرحلـة التطـواف

١١٩٨ ـ ١٢٠١ هـ

كانت دمشق قبلته العلمية بعد انتقاله‌من مسقط رأسه في يافا، وارتحاله الى نابلس وغزة ومصر في المراحل الثلاث السابقة ، بعدأن استكمل ثقافتـه العلمية ، واستقامت له علوم العربيـة والمعارف الدينية ، وتفتقت‌فنونه الذاتية ومواهبه الابداعية ، ونضجت عنده السلوكات الصوفية والعرفانية فانخرط‌في مذاهبها ، وهذا الذي دفعه ليطوف في الآفاق كما يفعل المتصوفة مجاهدة ومكابدة وسلوكاً،ويبـدو أن ارتحاله كان بتوجيه من أستاذه كمال‌الدين البكري لينشـر مذهبـه الصوفي‌الخَلْوتي ، ويقوم بما تطلبه مجالس الذكر والحضـرة ·

ولم تستمر هذه المرحلة طويلاً لأنهـا اقتصرت على التنقل في أرجـاء بلاد الشام والحجـاز ، وكانت في الواقع ارساء الدعائم‌للاقامـة الدائمة في بلاد الشـام عامـة ، والاستقرار في دمشق خاصة ، واتخذ له مكاناًيفيد فيه طلبة العلم ، في مسجد بني أميـة ، عرف بالمشهد اليافي ، ما زال حتى يومنا هذامعروفاً باسـمه ·

يقول الشيخ عبدالباسط فاخوري زادة مفتي مدينة بـيروت :

« تجول وساح البلاد الشامية والحجاز وغيرها لاقامة الطرائق والأذكار ونشر العلم والارشاد ، وملازمة الأوراد ، وحـج وزارالأماكن المقدسة ، والمشايخ العظام، والأولياء والصالحـين والعلماء الأعـلام ، بكل جـدٍ‌واجتهـاد »(٢٨) ·

يؤكد هذا القول القصائد التي نظمها الشاعر فذكر فيها قبور الأنبياء والصحابة ، والصالحين والأولياء والمتصوفة ، وغيرهم ،وقد خص كل واحد منهم بقصيدة مستقلة ، أو أشار اليه في بعض قصائده ·

ويستبد به المرض العضال ، وهو بعد في أواخر العقد الستيني من عمره ، وأوائل العقد السبعيني ، ويبدو أن هذا المرض كان يتناوب عليه في أواخر حياته ، بيد أنه كان يائساً من الشفاء كما في هذه المقطوعة الثنائية(٣١) :

اذا لم تكن أنت الدليل فلا هدى ... وان أنت لا تشفي من الداء من يشفي؟

فيا دعوة المضطر قد آن وقتها ... ويا بارىء الأسقام جد لي باللطف

لم يبق أمامه أمل في الشفاء البشري راجياً من ربه الشفاء الالهي ، فدعاؤه اياه ، ضارعاً خاشعاً راجياً من لدنه الشفاء العاجل خير ما يمثّل نفسية الشاعر المريض اليائس في قوله (فيا دعوة المضطر !) ، (ويا بارىء الأسقام !) وكأنه لم يبق له الا رحمة ربه ٠

ويأسى الشاعر على حاله ، ولم يبق الا أن يتداوى بذكر الله حين عجز علم الطب عن شفائه ، فرفض عقاقير الأطباء كما يتضح لنا في هذه المقطوعة الثنائية(٣٢) :

ألا ان علم الطب قد غار ماؤه ... ولم يبقَ منه، ياخليلي، سوى الرسم

تداو بذكر الله واترك جماعة ... عقاقيرهم تدني الى البؤس والسقم

كان البؤس والسقام اذاً يهيمنان عليه ، ويحيطان به ، وهو على هذه الحال التي عجز فيها الأطباء ، ويئسوا من الأمل في شفائه فنادى ربّه ضارعاً(٣٣) :

يا رب ! قد عجز الطبيب فداوني ... بخفيّ لطفك ، واشفني يا شافي !

أنا من ضيوفك قد حُسبت وان من ... شيم الكريم البرّ للأضياف

لا تحرمنّي نيلَ عفوك واسقني ... من حَضرة القدس الرحيقَ الصافي

واجبر لكسري انني بك واثق ... وبك اكتفيت وأنتَ أنتَ الكافي

حاشاك ربي أن تخيبني وقد ... أعطيت ما أرجوه منك خلافي

وتوسلي ــ فيما أروم ــ محمّدٌ ... خير الأنام وسيّد الأشراف

ثمة أمر هام عجيب حقاً ، قد استرعى انتباهنا ، يحيّرنا كل الحيرة ، اذ أورد جامع الديوان بعد هذه المقطوعة قصيدة في الزهد والتصوف ، تلتها مقطوعة رباعية في مدح الرسول (ﷺ) ، ثم تلتهما مقطوعة ثلاثية نظمت في عام وفاته ، وربما كانت في ساعات مرضه الأخيرة ، كما يُرجّح ، وأرخ نظمها بحساب الجمل ، سنة ١٢٣٣ ، صوّر فيها حياته فلكاً يجري في البحر الكوني ، يرفع شراعه ، وتسري به رياح الحفظ الرباني في الملكوت الواسع ، وهي قوله(٣٤) :

في بحر ملكك يا رب الوجود جرت ... سفينتي وبريح الحفظ مَسْراها

فيا حفيظاً عليها أنت مالكها ... فاحفظ بلطفك مَجْراها ومُرْساها

والحفظ فلحفظك أرخنا نؤمله(٣٥) ... واجعل ببحرك بسم الله مجراها(٣٦)

وتلت هذه المقطوعة الثلاثية مباشرة ثلاث مقطوعات ثنائية أخرى في الديوان • يتنبأ من خلالها بموته ، وكأنما كان يرثي نفسه حياً ، وكأنما يجدد مأساة مالك بن الريب في تاريخنا الأدبي • تضمنت المقطوعة الثنائية النبوية الأولى مدح بيت آل محمد (ﷺ) وأنهم سفينة نوح ، فمن ركبها صادف النجاة ،وتضمنت المقطوعة الثنائية النبوية الثانية في مخاطبة الله وأنه وجه وجهه اليه (لا الى الطلل) •

وتضمنت المقطوعة الثنائية النبوية الثالثة النداء المؤثر المرخّم (يا رب) في مطلع كل من البيتين والتوسل ب (المصطفى الشفيع)لاستمطار شآبيب الرحمة •

لم ينقطع الشاعر عن الافادة حتى مرضه الأخير ، وقد لاحظنا أنه نظم في ساعاته الأخيرة مقطوعة ، وما زال يدرّس ويفيد مستحضراً الذكر بجد واهتمام، وتوفي في « غرة ذي الحجة الحرام سنة ١٢٣٣ هـ / ١٨١٨ م » • ودفن بتربة مرج الدحداح ، وله قبر يزار ويتبرك به بكل توقير واكرام ، وزكّاه أهل العصر من أهل بلده من العلماء والأدباء بالمراثي الطنانة •

وجدير بالذكر أن تلميذه البر ومريده الوفي الشيخ أمين الجندي خصّه بمرثيتين : مرثيته الصغرى ومرثيته الكبرى •

أما مرثيته الصغرى فهي مقطوعة رباعية ارتجلها يوم وفاته مخاطباً سحائب الرضوان والغفران(٣٧) :

سحابَ الرضا بالعفو حيِّ مدى الدهر ... ضريحاً حوى فاروق آل أبي بكر
نعم هو (قطب العصر) والعارف الذي ... أنار منار الهدى في البر والبحر
أقام على التوحيد بالصدق مرشداً ... لنهج نبي الصدق بالسر والجهر
فلا برح الرحمن مذ قيل: أرخوا(٣٨) : ... (بمقعد صدق راحماً عمر البكري)

أبرز ما يلاحظ اشارته الى أنه (قطب العصر) وتأكيده المعنى نفسه في المرثية الكبرى •

أما مرثيته الكبرى فهي القصيدة الدالية وهي مؤلفة من واحد وخمسين بيتاً ، ومطلعها قوله(٣٩) :

قِسيُّ المنايا ما لأسهمها ردُّ ... فما حيلتي والصبر قد دكّه البعد

وصف الشاعر فيها حزنه العظيم وأساه العميق على أستاذه الكبير ، ثم خاطب حمام الحمى وطلب منه أن يسعفه بالنوح على سيده ، وخاطب أخلاءه ، وعينه ونفسه ، ثم قال :

هو ابن رسول الله والعلم الذي ... لسؤدده السامي انتمى المجد والفخر
هو البحر الا أن تيار لجّه ... يفيض فيهدي دره الفخرُ والمجدُ
هو الروض انساً والنسيمُ لطافةً ... هو الطود حلماً اذ به اعتصم الأسدُ

هو السيف لا تخفى مقاتله على ... خبير ولا ينبو لقائمه حدّ
إمام يحاكي ليلةَ القدر فضله ... ببرهان صدقٍ لا مراء ولا جحدُ
همام (لقطبانية العصر) حائز ... وفي المنصب الأعلى له الحلُ والعقدُ
فتى للفتى الصدّيق أضحى خليفةً ... الى الحق يدعونا ونحن له جُنْدُ
نشا بحجور الخَلْوتية راضعاً ... لبانَ المعالي والكمال له مهدُ
الى أن كساه الله أفخر خلعةٍ ... تجسّمَ فيها العلم والحلم والزهدُ
حدانا لِوِردِ المنهل العذب منّةً ... فيا حبّذاك المنهل العذب والوِرْدُ

وتحدث بعد ذلك عن تصوفه وطريقته وموقفه من الشريعة والتزامه بها وهاجم أعداءه الجهلة الذين ينكرون فضله ، ثم اختتم ذلك كله بوصف الفراغ الكبير وعدء موته مصيبة كبرى حلّت بالاسلام والمسلمين :

فيا بحر فضل كيف وارتك حفرةٌ ... ويا بدر هَدْيٍ كيف غيّبك اللحدُ
لقد ثلم الاسلام بعدك ثلمة ... مدى الدهر والأعوام ليس لها سد
رعى الله أمراً كان بالأمس صادراً ... عن السيد البكري لم يحكه عهدُ
وعزّ بشاراتٍ أتت منه لي على ... لسانك تتلوها العناية والرفدُ
ولي منك وعد آخريٌ مقرّرٌ ... بحضرة سيف الله ما فوقه عهدُ
يكاد له الانجاز يسبق بالوفا ... نعم هو آسٌ بالحقيقة لا وَرْدُ

واختتم هذه المرثاة الصادقة داعياً بالسقيا لهذا الضريح ومؤرخاً وفاته جرياً على سنة الشعر في هذا العصر :

فلا زال هتان الرضى هامياً على ... ضريح به الفيض الالهيّ يمتد
لمن كان في العشر اصطفاه مؤرّخا : ... (بباء به حسن الختام به يبدو)

هذه هي حياة قطب العصر الشيخ عمر اليافي كما اتضحت لنا من خلال مراحلها وأحداثها، وسوف نحاول تبيان بعض دقائقها من خلال دراسة تصوف الشاعر وأغراضه وفنونه ·

القسم الثاني

آثاره الأدبية والشعرية والصوفية

لاحظنا كثرة الآثار التي خلفها لنا الشاعر اليافي، أولها الآثار الشعرية ، وثانيها الآثار النثرية ·

يقول الشيخ عبدالباسط فاخوري زادة انه : « صنّف وألّف وحقّق ودقّق وأفاد ، وله نظم وموشحات كثيرة أكثرها على مصطلح القوم والعرفان ، وله أشعار رقيقة ومعان رشيقة تدل على كثرة اطلاعه وتفننه وتحقيقه وتحققه »(٤٠) ·

الآثــار الشــعريـة

□ الديــوان الكبــير :

أما آثاره الشعرية فتتمثل لنا في هـذا الفيض الشعري مـن القصائـد والمقطعـات وغيرها مـن الفنون المستحدثة ، وقـد جمع بعضها حفيـد الشاعر الشيخ عبدالكريم بن الشيخ محمد أبي النصـر اليافي الخَلْوتي ،خـادم السجادة الخلوتية في مدينـة بيروت ، يضاف اليه ديوانان صغيران مؤلفان من سفينةشعريـة ومجموع شـعري · وصف الشيـخ عبدالباسط عمـل حفيـد الشاعر بقـوله :« وجعلها مجموعة لطيفة بعـد جـد وجهـد ليجتني مـن قطوفها الدانية ، فتـح الله عليهفتـوح العارفـين »(٤١) ·

ووصف حفيده جامـع الديوان عمله فيخطبة الاستهلال بقوله :

« ·· لا يخفى أن جدّي ··· كان كتبفي حياته ما سنح اله مـن نظم ونثر ، فجمعت ما وصلت اليه يدي من ذلك ، وأثبته في هذاالديوان ، ليكون من جملة آثاره الحميدة ، ومحاسنه العديدة ، وهو شيء قليل بالنسبةلمـا نقـل عنـه ··· مـن فرائـد الأشعار والمخاطبـات ··· »(٤٢) ·

والملاحظ أن آثاره كثـيرة ، معظمها فيالتصوف شعراً أو نثراً ، شرحـاً أو تعليقاً ، ويمكن أن تصنف آثاره في قسمين :

القسم الأول : يتضمـن مجموعاً فيـه شعره وبعض كتبه ورسائله ومخاطباته ·

القسم الثاني : يتضمن سـائر آثاره الصوفية مـن شروح ورسائل ومخاطبـات في التصـوف ·

ان الديوان المجموع الموجود بين أيدينا لا يضم شعره كلـه · ومما يؤكد ذلك بعض الاشارات العابرة التي ذلك الموجودة فيـه ،منها مثـلاً قـوله : « وله هذه الأبيات مـن قصيـدة طويلة ، بحرها الخفيف »(٤٣) وهيقصيدة سينية مطلعها قوله :

كلنـا في جمـالـه ذو هيـام   وعلينـا مـن حبـه دار كـاس

واقتصر جامع الديوان على تسعة أبيات منها ، ولا ندري هل هو الذي اختارها ، وأهمل الباقي ، أم أنها هي كل ما وصله منالقصيدة المذكورة ·

ثمـة اشارة أخرى في الديوان ، يقول فيها جامعه « وله مطلـع قصيدة لم أطلع على سواه (من الطويل) : وهو(٤٤) :

أرى الكـل في عـين الحقيقة كالأفيـا   اذا أشرقت شمس الوجـود على الأشيا

هكذا تتضح لنـا أهمية هذا الديوان المجموع ، لأنه يمثل مرحلة سياسية واجتماعية وتاريخية هامـة في العصـر العثماني · ومنالمستحسن أن نعرض أيضاً ما قالـه حفيـده جامـع الديوان : « تم ولله الحمـد والمنـّة التقاط دراري أقوال سيدي وسندي جـدي الكبير وجمعها على أسلوب عند ذوي الذوق السليم محبوب ، فرقّ طبعاً ومعنىّ ، وجـاء

كتاباً جزيل النفع ، كثير الفائدة ، يؤانس من يتخذه جليساً في ليالي وحدته عند مراقبة معنى (ليلى)، و (هند)، و (سلمى)، و (دعد)، ويتنسم ريّا الصبّا وقت السحر ، فلا يلقى به ضجر ، في طالع عصر اليُمن والسعود ، عصر موفقية مولانا وولي نعمتنا السلطان ابن السلطان (السلطان الغازي عبدالحميدخان) حفظه الله وأدامه ، وأعزّ سلطانه بجاه روحانية سيد الأنام محمد الصادق الأمين (ﷺ) »(٤٥) .

وتم طبع الديوان في محرم الحرام سنة ١٣١٢ هـ أي بعد وفاة الشاعر اليافي بتسع وسبعين سنة ، وقد أشار حفيده البرّ الى أمور ذات شأن في توثيق بعض ما ورد في الديوان في قوله : « فنرجو من اطلع عليه أن يصلح الطبع بحسن الظن ، لأن جمع شمله المبدد في أقطارنا الشامية وخلافها ، شغل جملة اخوان محبيه ، صادقين في محبة الله ورسوله ، لهم حسن اعتقاد فيه ، قدس الله سره العزيز ، وأعاد الله علينا وعليهم من بركاته »(٤٦) .

هذا النص الهام يؤكد أن مجموعة من العلماء والمتصوفة أسهموا في جمع شعره المفرّق والموزّع بشكل جدّي وفعّال .

واختتم خاتمته بالاشارة الى مقطوعتين شعريتين منسوبتين لبعض معاصريه : « وقد وجدت مقطوعتين منسوبتين له ولبعض معاصريه ، وانما خرطهما بسلكه حيث أنهما وردا علينا من عدة مصادر ، والله أعلم في الحقائق ... »(٤٧) .

تؤكد أقوال الحفيد الجامع لديوان جده أنه اعتمد على جماعة من محبيه الصادقين من العلماء والمتصوفة .

يضاف الى ما ذكره أننا وجدنا في ديوان تلميذه الشاعر أمين الجندي الحمصي مقطوعة منسوبة اليه ، وهي في الحقيقة للشاعر اليافي أستاذه .

ورد في الديوان : « وله أيضاً عشيران »(٤٨) :

في ريـــاض الصـالحيـــه نجتني زهـــر الكمـــال

وهي مؤلفة من لازمة وأربعة أدوار .

وورد القدّ نفسه في ديوان أستاذه اليافي ، وقدم له بقول جامعه : « وله عن وض (العيون النرجسية) نغمة حسيني »(٤٩) .وهو فيه مؤلف من لازمة وخمسة أدوار ، لا أربعة كما وردت في ديوان الجندي نفسه .

لقد اتضح لنا بعد التثبت من هذين النصين المتماثلين أن هذا القدّ هو لأستاذه اليافي لأسباب عدة :

أولها : بعض التصحيف المخلّ الموجود في رواية الجندي، وهو صحيح في نص اليافي.

ثانيها : أنها منسجمة مع موشحات قدود اليافي بشكل عام .

ثالثها : وجود دور خامس زائد غير موجود في ديوان الجندي ، وهــذا وحــده كاف للتأكــد من صحة النسبة اليــه .

رابعها : عروضه الايقاعي ، فهو مــن اللحن المنصوص عليه في القدّ اليافي (نغمــه حسيني) ، وليس من (نغمة عشيران) كما هو مثبت في قــدّ الجندي .

يتضمن الديوان ثلاثة أبواب يهمنا الوقوف عند البابين الأول والثاني . أما الباب الأول فهو خاص بالقصائد والمقطوعات والمزدوجات اذ بلــغ عددها جميعاً مئــة وتسعاً وستين قصيدة ومقطوعة ومزدوجة ، منها مئةوثلاث عشرة قصيدة وست وخمسون مقطوعة ومزدوجة ثنائية وغيرها .

وأما البــاب الثاني فهو في التخاميس والتشاطير والموشحات القدّية ، والمواليات :

أولاً : عــــدد التخــاميــس : سبعة تخاميس .

ثانيـاً : عــــدد التشــاطــير : ثلاثــة وثلاثون تشطيراً .

ثالثـاً : عــدد موشحات القدود : مئــة واثنــان .

رابعـاً : عــدد المــواليــات : سبعة مواليــات .

يضاف الى الديوان الكبير ديوانان صغيران آخــران : همــا ديــوان صغــير مجموع ، وسفينة شعرية .

☐ الديــوان الصــغير :

مجموع شعري صغير يتضمن ، على الأرجــح ، المقطّعات الثنائية الصغيرة ، وقــد وردت الاشارة اليــه في قــول جامــع الديوانالكبــير : « قال ـ نفعنا الله به ـ بمجمــوع له ... »(٥٠) ، ولا يعرف أي شيء عن هذاالمجموع غير قول الشاعر نفسه مشيراً اليه في احدى ثنائياته بقوله (مجموعي)(٥١) :

اسمع مثــاني توحيد الســماع على قانــون أوتــار وتــر غــير مشفوع
وكــل ألحــان آلات الوجــود تــرى بها جميعي وقد لاحت ب (مجموعي)

☐ ســفينة اليــافي :

سفينة شعرية ، وهــذا ضرب جديد من الشعر مــن مستحدثات العصــر العثماني ، تتضمن ضرباً آخر مــن المقطّعات المختلفة ،وهي ـ على الأرجــح ـ تأملات في الحيــاة ، وتعليقات ومذكرات يوميــة شخصية ، وقــدوردت الاشارة اليهــا في قــول جامع الديوان أيضاً : « وله تأريخ سفينة مشتملة على بعضأقواله ... »(٥٢) . كما وردت الاشارة اليها في شعر الشاعر نفسه عدة مرات .

منها قوله في مقطّعة ثنائية(٥٣) :

(سفينة) نوح آل بيت محمّد ... فمن كان فيها راكباً صادف النّجا
وأما الذي عنها تخلّف هالك ... غريق ببحر الغيّ لم يلقَ مخرجا

ووردت الاشارة اليها ثانية في مقطّعة رباعية أيضاً(٥٤) :

سيري (سفينة) انشادي عسى كرماً ... تهبّ ريح وصالي عند مسراكِ
ثم انشري قِلْعَ(٥٥) أشواقي ميمّمة ... منازل القرب من حيٍّ لسلماكِ
مشحونة ولهاً ووَجْد وفَرْط جوىً ... وسُهْد جفنٍ قريح طَرْفه باكِ
ويمّمي للتداني بالمسير فيا ... (سفينة) الشوق باسم الله مجراكِ !

ووردت الاشارة اليها ثالثة في قصيدة مؤلفة من سبعة أبيات ، وهي قوله(٥٦) :

أقبلَتْ دُرّةُ الوداد الثمينه ... وهي في بحر حسنها (كالسفينه)
يا لها من رسالة هي آيا ... ت كرام من الوفاء مبينه
بمعان كالبدر في ليل سطر ... من حروف الأسرار وهي أمينه
أذكرتني تلك العهود وما زا ... لت من القلب في الحصون الحصينة
عهد بيروت وهو تابوت قلب ... قد أتى بالصفاء وفيه سكينه
يا رعى الله ذلك العهد اذ كا ... نت لياليه خير عيد وزينه
طالما قد جنيت أثمار أنسٍ ... من رياض المنى بتلك المدنيه

تؤكد هذه الشواهد الملتقطة من الديوان أن الشاعر كان يتغنى بذكر السفينة البحرية ، فيذكر (القِلْع) و (البحر) و (الشحن) و (الرياح) و(الماء) و (نشر القلاع) للابحار وغيرها من اصطلاحات البحر والبحّارة .

وفي اعتقادنا أن هذا الموضوع الجديد يرجع الى طبيعة البيئة البحرية التي عرفها الشاعر في مسقط رأسه بيافا وغيرها ، وقداتخذ من هذا الموضوع سبيله للاعراب عن تأملاته وانطباعاته فيما يعرض له في حياته الخاصة والعامة .

□ الآثار النثرية :

خلّف اليافي آثاراً نثرية كثيرة ، اضافة الى آثاره الشعرية ، ضاع معظمها ، وهي ذات طابعين : طابع عام ، وطابع خاص ، وقد تبقى لنا منها ثلاثة عشر كتاباً .

□ الآثار النثرية العامة :

الملاحظ كثرة آثاره النثرية العامة ، وصلنا منها ستة كتب ، ذلك لأنه كانت « له اليد الطولى في الفقه ، والتفسير ، والحديث ،والنحو ، واللغة ، وكلام القوم والعارفين » . فمن ذلك شواهده من هذه الآثار الرسائل التالية :

١ ـ رسالة (في الحضّ على برّ الوالدين) .

٢ ـ رسالة (لباب المغنم وجنة المغرم في معنى الاسم الأعظم) .

٣ ـ رسالة (في الفرق بين الواحد والأحد) .

٤ ـ رسالة (في آداب دخول الحمّام) .

٥ ـ رسالة (منح العليم في بسم الله الرحمن الرحيم) .

٦ ـ رسالة في (اسم علي) ألّفها لحاكم عكار وقتئذ (علي آغا) « وقد أجاد بها كل الاجادة »(٥٧) .

وقد أورد جامع الديوان بعضها في الباب الثالث « وكتب ـ نوّر الله ـ ضريحه ـ لرجل اسمه علي »(٥٨) .

□ الآثار النثرية الخاصة :

أما الآثار النثرية الخاصة فقد جعلتها مقصورة على التصوف ومظاهره وأحواله :

١ ـ رسالة (في معنى التصوف والصوفي) .

٢ ـ رسالة (في الطريقة النقشبندية) ، وتفسير الاحدىعشرة كلمة المبنيعليها الطريقة .

٣ ـ رسالة (في حكمة اجتماع الذاكرين وحركاتهم على طريقة الصوفية) .

٤ ـ رسالة (قطع النزاع ، وكشف القناع ،في الرد على من اعترض على العارفالنابلسي في اباحة السماع) ، كما أن الشاعر خصّ النابلسي بمقطوعة قديّة(٥٩) ، وهي مؤلفة من لازمة وأربع خانات وثلاثة أدوار ، استهلها بقوله :

عبدالغني الروض الجني ‏ ‏ ‏ للمجتني مجنى التحف

ويقول في الدور الثاني :

واسمع سماع لحونه ‏ ‏ ‏ اذ طاب في اللحن الغنا

وبشجو لطف شجونه ‏ ‏ ‏ فاطرب وطب فلك الهنا

٥ ـ رسالة في (هداية أهل المحبة) في معنىقوله (ﷺ) (من عرف نفسه عرف ربه) .

هكذا استخدم اليافي هذا الأسلوب في توجيه بعضالأبيات توجيهاً صوفياً شرحاً وتعليقاً كما هو الحال في بعض كتبه .

٦ ـ رسالة في حل البيت المشهور لكثير عزة وتفسيره تفسيراً صوفياً « على طريقة أهل العرفان ، وهي رسالة بديعة » وهو قوله :

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولّت

وهذا البيت يحتمل تفسيرات صوفية وتأويلات رمزية خاصة بالمتصوفة ، ففي اسم (عزة) رمز لأن أسماء النساء كلها رموزعندهم ، والبكاء عند المتصوفة اشارة الى الندم ، وهذا سبيل من سبلهم في الخلاص ،والتضرع الى الله · والتولّي هنا هو غياب المحبوب ، والمقصود به الذات الالهية ·

٧ ـ رسالة في (حل تفسير البيتين للشيخ الأكبر ابن عربي) وقد تكررت فيهما (إياك) ثلاث عشرة مرة، ومن المناسب أن ندعوها (الرسالة الاياكية) :

اياك اياك يا اياك من اياك واخرج لاياك من اياك عن اياك
وافن باياك عن اياك من اياك وانظر لاياك تلق اياك هو اياك

لم يقتصر الأمر على مجموع الديوان ، وعلى هذه الآثار النثرية ، وانما لاحظنا أن « له غير ذلك من حل عبارات من (الفتوحات)، و (فصوص الحكم) ، و (كلام أهل العرفان)، و (رسائل كثيرة) ، و (مراسلات ومكاتبات)الى تلامذته »(٦١) ·

اهتم حفيده عبدالكريم جامع الديوان ، فعقد الباب الثالث (في الرسائل والمخاطبات) وبلغ عددها سبعاً وخمسين مراسلة ومكاتبة·

بعض هذه المراسلات والمكاتبات ، أبهم عنوان صاحبه ، واكتفى بالدعاء لصاحبها كما في قوله (ومن انشائه نفعنا الله به) أو(ومن مراسلاته أمدنا الله بمدده ، ونفعنا بعظيم بركاته)(٦٢) · أو (وكتب قدس الله سره)(٦٣) · أو (وله رحمه الله تعالى)(٦٤) ·

أما الذين أشير اليهم معرفاً بهم ، أو بالمناسبة التي أنشأ من أجلها هذه المكاتبة فهم قليلون ·

من ذلك مثلاً ما كتب به الى السلطان محمود خان من رقعة «استرحم بها تعيين مرتب ليستعين به على معاشه ومعاش عائلته ومريديه الملازمين لاقامة الأذكار معه من زاوية في دمشق الشام ، فاصدر ارادته السنية باجابة استرحامه »(٦٥) ·

وقد أورد الجامع شذرات من العريضة المذكورة ·

ومنها ما كتبه « لمقام الصدارة العظمى وقتئذ »(٦٦)· وما كتبه لحاكم مصر محمد علي باشا « بالتماس العالم الفاضل الشيخ محمد العطار »(٦٧) ·

ومنها ما كتبه للشيخ عبدالرحمن البجيرمي(٦٨) ، والشيخ أيوب المجذوب(٦٩) ، والشيخ مسعود الماضي(٧٠) ، والشيخ خليل أفندي المرادي ، مفتي الشام وقتئذ(٧١) ·

ونشير أيضاً ، بصدد هذه الرسائل ، الى ما كتبه على « نسب السادات بني الزعبي في طرابلس الشام »(٧٢)، وما كتبه « لصرافخزينة »(٧٣) ، وما بعث به الى بعض اخوانه مــن المغــاربة »(٧٤) ، و « لصــادق بــك فيالآستانة »(٧٥) و « الى أحد أحبابه »(٧٦) ، و « لرجل اسمه عبدالفتاح ، وهو بالحجاز »(٧٧) ، ومما كتبه جواباً عن سؤال(٧٨) •

هؤلاء بعض الذين ذكرهم جامع الديوان عرضاً ، أما الباقون من المكاتبين فهم أكثر مــن أن يحصيهم عــدٌ •

والواقع أن هــذه المكاتبات تدلنا على مكانة اليــافي الصوفية ، ومنزلته الفكريــة • يضاف الى ذلك أنــه كــان محترماً مسموعالكلمة في المقامات السياسية العليا بدءاً مــن السلطان العثماني نفسه ، والصدر الأعظم ،كما رأينا ذلك من قبــل •

وقد كانت له سلطة معنوية على الكثيرين من عارفيــه وأصحابه ومريديه ، وكانت كلمته مسموعة وطلبــه الشفاعة مستجاباً ،وهذا كله يؤكد ما سبق فيه القول عن ظواهر الحيــاة السياسية والاجتماعيــة والصوفيــة والفكريــة •

* * *

□ الحواشــي :

١ ـ الشطي (محمد جميل) روض البشر ١٨٥ ، وزيدان (جرجي) : تاريخ آداب اللغة العربية ٤/٢٢٣ ، وشيخو (الأب لويس) : الآداب العربية في القرن التاسع عشر ١/٢٢ ، ومقدمة الديوان ١ ـ د•والزركلي الإعلام ٥/٢٢٦١ •

٢ ـ مقدمة الديوان ١ •
٣ ـ معجم البلدان ٢/٤٧٢ •
٤ ـ معجم البلدان ٢/٤٧٢ ـ ٤٧٥ •
٥ ـ معجم البلدان ٥/٤٢٦ •
٦ ـ المصدر السابق ٥/٤٢٦ •
٧ ـ المصدر السابق ٤/٢٠٢ •
٨ ـ المصدر السابق ٤/٢٠٢ •
٩ ـ المصدر السابق ٤/٢٠٢ •
١٠ ـ المصدر السابق ٤/٢٠٢ •
١١ ـ المصدر السابق ٤/٢٠٢ ، ٢٢٣ •
١٢ ـ المصدر السابق ٤/٢٠٢ ، ٢٠٣ •
١٣ ـ كتاب التعريفات ١٠٦ •
١٤ ـ الديوان ١٤٧ •
١٥ ـ الديوان ١٠٩ •
١٦ ـ الديوان ٣٧ •
١٧ ـ الديوان ٤٠ •
١٨ ـ الديوان ٢١٢ •
١٩ ـ الديوان ص ٨١ •
٢٠ ـ التاريخ بحساب الجمّل كما يلي: وه (١١) + وطب(١٧) + فالدهر (٣١٠) + أشرق (٦٠١) + والسلطان (١٨١) + محمود (٩٨٧) = ١٢٢٤ • ولم يستقم له التاريخ الجمّلي الا بزيادة عام واحد فاصبح ١٢٢٤ بدلا من ١٢٢٣ • وهو عيد الجلوس السلطاني • او أن التتويج جرى بعد البيعة السلطانية له كما جرت العادة •
٢١ ـ مقدمة الديوان ، ص ١ •
٢٢ ـ طرة القصيدة في الديوان ، ص ١٩ •
٢٣ ـ مقدمة الشيخ عبد الباسط فاخوري زادة ، ص ب •
٢٤ ـ المصدر السابق ، ص ب •
٢٥ ـ المصدر السابق ، ص ب •
٢٦ ـ ديوان عمر اليافي ، ص ١٩ •
٢٧ ـ المصدر السابق ، ص ١٩ •
٢٨ ـ مقدمة الديوان للشيخ عبد الباسط فاخوري زادة ، صب •
٢٩ ـ المصدر السابق ، ص ج •
٣٠ ـ المنقذ من الضلال ، ص ١٢٩ ، ١٣٠ •
٣١ ـ الديوان ، ص ١٢٥ •

٣٢ ـ الديوان ، ص ٧٨ .
٣٣ ـ الديوان ، ص ٧٣ .
٣٤ ـ ديوان عمر اليافي ، ص ٧٥ .
٣٥ ـ في الأصل (تاملها) ، ولا يستقيم بها حساب تاريخ الجُمّل وهو ١٢٣٣ هـ سنة وفاة الشاعر والصواب ما أثبتناه ليعم التطابق في حساب الجُمّل وفيه صواب المعنى .
٣٦ ـ تاريخ حساب الجُمّل كما يلي : نؤمله (١٢٦) + واجعل (١٠٩) + ببحرك (٦١٢) + باسم (١٠٢) + الله (٣٥) + مجراها ٢٤٩ = ١٢٣٣ .
٣٧ ـ ديوان الشيخ أمين الجندي ، ص ١٠٦ .
٣٨ ـ حساب الجمل التاريخي هو كما يلي : بمقعد (١١٦) + صدق (٢٤٤) + راحما (٣٠٠) + عمر (٣١٠) + البكري (٢٦٣) = ١٢٣٣ هـ .
٣٩ ـ ديوان الشيخ أمين الجندي ، ص ٤٥ ـ ٤٧ .
٤٠ ـ مقدمة الديوان للشيخ عبدالباسط فاخوري زاده ،ص ب
٤١ ـ المصدر السابق .
٤٢ ـ مقدمة جامع الديوان الشيخ عبد الكريم بن الشيخ محمد ابي النصر اليافي ، ص ٢ .
٤٣ ـ ديوان اليافي ، ص ١٣١ .
٤٤ ـ ديوان اليافي ، ص ١٣٢ .
٤٥ ـ ديوان اليافي ، ص ٢٨٤ .
٤٦ ـ ديوان اليافي ، ص ٢٨٤ .
٤٧ ـ ديوان اليافي ، ص ٢٨٤ .
٤٨ ـ ديوان الجندي ، ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، القد ١٧٨ .
٤٩ ـ ديوان اليافي ، القد ٧٥ ، ص ٢٢٠ .
٥٠ ـ الديوان ، ص ١٢٣ .
٥١ ـ الديوان ، ص ٧٥ .
٥٢ ـ الديوان ، ص ٧٥ .
٥٣ ـ الديوان ، ص ٧٥ .
٥٤ ـ الديوان ، ص ١١٢ .
٥٥ ـ القِلع : بالكسر هو الشراع ، والجمع (القلاع) ، وسفن (مقلعات) بفتح اللام ، ومثل القِلع القِلاعة ، واقلع السفينة : رفع شراعها .
٥٦ ـ الديوان ، ص ١٠٧ ، ١٠٨ .
٥٧ ـ مقدمة الشيخ عبد الباسط فاخوري زاده ، ص ج .
٥٨ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، في الرسائل والمخاطبات ، ص ٢٦٨ .
٥٩ ـ ديوان اليافي ، القد ٢٥ ، ص ١٨٥ .
٦٠ ـ مقدمة الشيخ عبد الباسط فاخوري زاده ، ص ج .
٦١ ـ مقدمة الشيخ عبد الباسط فاخوري زاده ، ص ج .
٦٢ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٤١ و ص ٢٤٣ .
٦٣ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٤٤ .
٦٤ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٤٥ .
٦٥ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٤٧ .
٦٦ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٤٨ .
٦٧ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٤٩ .
٦٨ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٥٠ .
٦٩ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٥١ .
٧٠ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٥١ .
٧١ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٥٦ .
٧٢ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .
٧٣ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٦٤ .
٧٤ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٦٦ .
٧٥ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٦٨ .
٧٦ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .
٧٧ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٧٦ .
٧٨ ـ ديوان اليافي ، الباب الثالث ، ص ٢٥٩ .

* * *

أدب المقامات في التراث العربي

د. محمد زهير البابا

☐ أدب المقامات :

لقد فضّل العرب منذ جاهليتهم الشعر على النثر ، فحفظوه بعقولهم ، وتداولوه على ألسنتهم في مجتمعاتهم وأنديتهم ، فتناقله رواتهم ، واستشهد به علماؤهم وصعاليكهم ، وافتخر العرب بشعرائهم لأنهم كانوا السيوف المسلطة على أعدائهم ، يزودون عن حياضهم بهجومهم ،وينشرو فضائل قومهم بفخرهم ، ويعبرون عن عواطفهم بغزلهم ٠

الا أن القصائد الشعرية مهما طالت لا يمكنها أن تكون واسطة سهلة لذكر القصص والنوادر والفكاهات أو ذكر المحاورات والمجادلات ، وان كانت مجالا رحباً لذكر الأمثال والحكم والوصف المعبر الموجز والمحكم ٠ والنثر مهما اهتم الحكماء والكتاب بتجويده وتنميقه ، الا أنه صعب الحفظ ، وتسجيله في السطور وخاصة عند أمة كان أكثر أبنائها يجهلون القراءة والكتابة ٠

لقد اشتهر في الجاهلية وصدر الاسلام بعض الخطباء المجيدين أمثال سحبان وائل ، وقس بن ساعدة الأيادي والنابغة الذبياني ، كما اشتهر بعض الحكماء والكهان ورواة القصص والأساطير ، أمثال لقمان الحكيم ، وسطيح الغساني ، وخنافرين توأم الحميري ، وقد حفظت بعض خطبهم وأقوالهم وحكمهم المأثورة ، لأنها كانت على شكل جمل موزونة ومسجعة ، بحيث كانت أشبه بالشعر منها بالنثر ٠

وحينما اشتدت حاجة الخلفاء والأمراء الى وزراء وكتاب يدبجون الرسائل المرسلة الى الملوك ، والأوامر الموجهة الى قادة الجيوش ، وأصبح عامة الشعب يتشوق لسماع القصص والأساطير ، والنوادر والأخبار العجيبة ، والتي تروى فيها الأمثال والحكم ، وتوصف فيها الشهامة والهمم ، وأيام العرب والعجم ، فقد أصبح النثر مفضلا على الشعر ٠

لقد جمع الثعالبي المهمات التي يتولجها الكتاب ، والتي يلجأون فيها الى النثر فقال :

« الكتّاب ، وهم ألسنة الملوك ، إنما يتراسلون في جباية خراج أو سد ثغر ، أو عمارة بلاد ، أو اصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة ، أو دعاء الى الفة ، أو نهي عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية برزيّة ، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب ٠ ومعظم الشؤون التي يحتاجون فيها الى أن يكونوا ذوي آداب كثيرة ومعارف مفننة » ٠

مما لا شك فيه أن القرآن الكريم يعتبر أحسن صورة للنثر ظهر في أواخر العصر الجاهلي ٠ وقد جاء بلسان عربي مبين ليرشد الرسول ﷺ به قومه الى الصراط المستقيم ، فيأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وينظم لهم حياتهم العائلية وصلاتهم الاجتماعية وواجباتهم الدينية ٠

اعتبر القرآن منذ نزوله معجزة البلاغة العربية ، ففيه كلام فريد من نوعه اعتبره بعض المفكرين وسطاً بين الشعر والنثر الفني،فهو خال من السجع المتكلف ولكنه يضم كثيراً من الجمل المسجوعة والموزونة ، والسجع موجود في الحديث دون اطراد ، كما لا يطرد في القرآن ، فهو كما يقول زكي مبارك « حلية تُقصد ولكنها لا تُلتزم » ٠

والسجع يعتبر من مميزات البلاغة الفطرية ، في جميع لغات العالم المتطور ٠ لذلك نجده منتشراً على ألسنة الخاصة والعامة في الحكم والأمثال بصورة خاصة ٠ واذا كان السجع حلية يزان بها النثر ،ويساعد على الحفظ ، فهو مقبول ما دام يجري في حدود الاعتدال ، دون تكلف وتطويل ، مع عدم انتقاء الكلمات الصعبة الفهم ، وتكرار الجمل المتماثلة المعنى لأنها متماثلة الوزن ٠

لقد كان من المعقول أن يبتعد الفقهاء والنحويون ورجال العلم والدين عن اعتماد الشعر وسيلة للتعبير عن أفكارهم وتجاربهم ونظرياتهم ، وأن يلجأوا الى النثر العادي ٠ذلك لأن التزام الأوزان الشعرية والقافية يجعل من الصعب التعبير بصورة واضحة عن تلك الأمور بأسلوب سهل الفهم ٠

ولكن من الملاحظ أن بعض من اشتغل بالعلم رغب في صياغة أفكاره على شكل قصائد شعرية ، منظومة غالباً على بحر الرجز ، لذلك عرفت بالأراجيز ٠ ومن أشهرها أرجوزة خالد بن يزيد في الكيمياء ، وألفية ابن سينا في الطب ، وألفية ابن مالك في النحو ٠٠٠ وقد بقيت هذه الطريقة متبعة في كثير من العلوم ، لأنها كانت تساعد طلاب العلم على الحفظ ، ولكن فهم ما جاء فيها يحتاج دائماً الى الشرح ٠

وفي أواخر القرن الرابع للهجرة ظهر شكل جديد من النثر أطلق عليه اسم فن المقامات ٠ ويقال بأن الذي ابتدعها هو بديع الزمان الهمذاني (٣٥٧ ــ ٣٨٣هـ) ، وأنه أخذها عن استاذه ابن فارس ٠ وكان الهدف فيها تعليمياً ، فراقت القوم من بعده ، وجرى كثير على منواله ٠

تمتاز المقامات ، عن بقية أشكال النثر الفني ، والمسجع غالباً ، بكونها خصصت بالأصل لرواية القصص والنوادر ، التي يتسامر بها أفراد الشعب في أوقات السرور والراحة ، وتدور مواضيع المقامات غالباً حول أشخاص أذكياء ، يسلكون طريق الكدية (الشحادة) ، أو يلجأون الى الحيلة والكذب والخداع لكسب القوت أو للايقاع بخصومهم ٠

ومن المقامات ما خصص للكلام عن حُسن الصفات ومكارم الأخلاق ، وتفاوت الطباع والعادات ، وكشف أسرار المجتمعات ، بالاضافة الى بيان بلاغة اللغة العربية وشرح معاني ألفاظها الغريبة ٠

ان اتقان كتابة المقامة يحتاج لموهبة لغوية ، وذاكرة غنية بالحكم والأمثال والأشعار ، بالاضافة الى أذن موسيقية لتزاوج بين الجمل المتتالية ، وتأتي بسجع مقبول بعيد عن التكلف ، وسنذكر فيما يلي لمحة موجزة عن أشهر المقامات المعروفة باللغة العربية :

أ ـ مقامات بديع الزمان الهمذاني :

ألفها أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى بن سعيد الهمذاني ، المعروف ببديع الزمان بدأ بكتابتها في شهر رجب عام ٥١٢ هـ ، وجعلها في واحد وخمسين مقامة ، ويقال أنه أنشأ من المقامات زهاء أربعمائة مقامة ، ولكن لم يصلنا منها سوى ما ذكر •

طبعت هذه المقامات لأول مرة في الآستانة دون تحقيق ، ويقول العلامة الشيخ محمد عبده ، الذي قام بتحقيقها اعتماداً على عدة نسخ ، لم يذكر مصدرها ولا صفاتها ، ان الانتفاع بها كان عسيراً لسببين : الأول ما عاث به النسخ في ألفاظها من تحريف يفسد المبنى ويغير المعنى • وزيادة تضر بالأصول وتذهب بالذهن عن المعقول • والوجه الثاني : غرابة بعض كلماتها وخفاء كثير من اشاراتها ، لذلك اضطر رحمه الله الى التعليق عليها ، وشرح بعض ألفاظها مع اجراء التنقيح عند الضرورة ، وقد قامت المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين في بيروت بطبع مقامات أبي الفضل بعد تحقيقها من قبل الشيخ محمد عبده في بيروت سنة ١٩٢٤

ان المتكلم في مقامات الهمذاني رجل يدعى عيسى بن هشام ، أما المحتال فهو أبو الفتح الاسكندري • وتجري الحوادث في هذه المقامات بين أذربيجان وأصفهان والأهواز وبخارى وسجستان والرصافة وشيراز ونيسابور وتنتهي كل مقامة غالباً بقصيدة قصيرة من شعر المؤلف فيها حكمة أو عبرة أو خلاصة •

وتتجلى براعة الهمذاني في حفظ أشعار العرب وحسن الاستشهاد بها ، بالاضافة الى الثروة الكبيرة التي يملكها من الألفاظ العربية • وقد أجاد وصف الفرس في المقامة الحمدانية ، ووصف أصحاب الحيل واللصوص والمجرمين في المقامة الرصافية ، وتجلى نقده الجيد لأشعار جرير وأبي نواس في المقامة الابليسية ، وكذلك فعل حينما تكلم عن الجاحظ في المقامة الجاحظية • وتعتبر المقامة المارستانية من أبدع ما كتب ، حيث قام مجنون مقيم بالبيمارستان بمناقشة أبي داوود المتكلم وأفحمه بالمنطق • أما أصعب المقامات فهماً وأكثرها تعقيداً فهي المقامة الشعرية لأنها تتطلب معرفة تامة لجميع ما قاله العرب من الشعر في الجاهلية والاسلام •

ب ـ مقامات الزمخشري :

مؤلفها أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري • كان أحد أئمة العلم والدين والتفسير واللغة والآداب • ولد في قرية زمخشر من بلاد خوارزم • سافر الى مكة فجاور بها زمناً لذلك حمل لقب جار الله • تنقل في البلدان ثم عاد الى الجرجانية ، من قرى خوارزم حيث توفي عام ٥٣٨ هـ • كان معتزلي المذهب ، مجاهراً شديد الانكار على المتصوفة ، فأكثر التشنيع عليهم •

يخاطب أبو القاسم في مقاماته نفسه فيعظها ، ويطلب منها الزهد في مطالب الدنيا ، ويطلب التوبة عما ارتكبه من ذنوب وآثام • لم يستعمل الزمخشري الشعر في استشهاداته الا قليلا • أما أسلوبه في التعبير عن أفكاره فهو أسهل مما كتب الهمذاني • فهو لم يلجأ الى ذكر الألفاظ العربية الغريبة والكتابات العويصة •

عدد مقاماته خمسون ، واذا استثنينا المقامات التي يحض فيها نفسه على الفقه والزهد ومكارم الأخلاق فاننا نجد خمس مقامات طرق فيها مواضيع تتعلق باللغة العربية ، من نحو وعروض ، كما خصص مقامة للكلام عن المصطلحات المتداولة في دواوين الدولة • وتكلم في المقامة الأخيرة عن أيام العرب المشهورة •

ج ـ مقامات الحريري :

مؤلفها أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريري البصري الحرامي • ولد في قرية المشان القريبة من البصرة عام ٤٤٦ هـ ـ وهو من بني حرام ، وهي قبيلة عربية سكنت تلك المنطقة • أما كنية الحريري فهي نسبة الى صنعة الحرير أو بيعه • وبالرغم من حقارة المنطقة التي كان يقطنها ، الا أنه كان من أهل اليسار • ويقال أنه كان يملك ثمانية عشر ألف نخلة الى جوار مسكنه •

كان الحريري أحد أئمة عصره في البلاغة والبديع والنحو ، كثير الاطلاع على أشعار العرب ومعرفة سيرتهم • له تآليف عديدة منها : درة الغواص في أوهام الخواص ، كما يوجد له ديوان رسائل وشعر كثير • ووضع منظومة في علم النحو دعاها (ملحمة الاعراب) • ولكن مما لا شك فيه أن أشهر مؤلفاته وأكثرها

شيوعاً هي المقامات التي رفعت من ذكره ،وجعلته بمصاف كبار علماء اللغة والأدب العربي .

أما السبب الذي دعاه الى تأليف مقاماته فيذكره ابنه أبو القاسم عبد الله فيقول « كان أبي جالساً في مسجد بني حرام ، فدخل شيخ رث الثياب ، يحمل مطري ، وعليه امارات السفر . فسأله جماعة ممن حضروا المسجد عن الشيخ ؟ ــ فقال من سروج ، فاستخبروه عن كنيته فقال أبو زيد » .

فاستملح والده حديث الشيخ ، الذي كان فصيح اللسان بليغ البيان ، فعمل مقامة عزاها الى أبي زيد السروجي ،ودعاها بالمقامة الحرامية . فلما تناقلها الناس ، وشاع ذكرها ومدحها ، بلغ خبرها الوزير شرف الدين أبا نصر القاشاني، وزير المسترشد بالله (ت ــ ٥١٢ هـ) ،فدعاه اليه وطلب منه أن يضم اليها غيرها ، فأتمها الى خمسين مقامة .

وهنالك رواية أخرى تقول أن الحريري قد صنف مقاماته للوزير جلال الدين عميد الدولة علي بن صدقة (ت ــ ٥٢٢هـ) وهو وزير المسترشد . ذلك لأنه عثر على نسخة مخطوطة من مقامات الحريري،وهي بخط مصنفها ، وقد دون عليهم أنها مهداة الى الوزير المذكور .

ويذكر الحريري في صدر مقاماته السبب الذي دعاه لتصنيفها فيقول « لقد جرى ببعض أندية الأدب ، الذي ركدت في هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه ، ذكر المقامات التي ابتدعها بديع الزمان ،وعلامة همذان رحمه الله ، وعزا الى أبي الفتح الاسكندري نشأتها والى عيسى بن هشام روايتها ، وكلاهما مجهول لا يُعرف ، ونكرة لا تُتعرف . فأشار من اشارته حُكم ، وطاعته غُنم ، الى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع . فلبيت دعوته تلبية المطيع ، وبذلت في مطاوعته جهد المستطيع .

وأنشأت ، على ما أعانيه من قريحة جامدة ، وفطنة خامدة ، وروية ناخبة ، وهموم ناصبة ، خمسين مقالة تحتوي على جد القول وهزله ، ورقيق اللفظ وجزله ، وغُرر البيان ودرره ، ومُلح الأدب ونوادره » .

ويقال أن الحريري لما عمل المقامات جعلها في أربعين مقامة، وحملها معه من البصرة الى بغداد • ولما بدأ بنشرها لم يصدق جماعة من أدباء بغداد أنها من تصنيفه، واتُهم بأنه استولى عليها من رجل مغربي مات بالبصرة • فاستدعاه الوزير الى الديوان وسأله عن عمله ومهنته فأجاب بأنه أديب ومنشيء • فاقترح عليه كتابة مقالة جديدة، فأخذ دواة وورقة وجلس يفكر مدة من الزمن • ولما عجز بالنهاية عن القيام بذلك انصرف خجلا • ولكنه تمكن فيما بعد أن يضيف الى مقاماته عشر مقامات أخرى، فأتم عددها الى الخمسين •

أراد الحريري أن يقلد بديع الزمان في مقاماته في مواضيع شتى • ويدور محور أكثرها على الاحتيال والكدية والسرقة، وهذا يدل على انتشار الفقر وفقدان الأمن في عصره • وفي بعض مقاماته يجري حواراً بين صاحب دين وصاحب أخلاق، كما في المقامة الصنعانية، أو يأخذ الحوار شكلا أدبياً فكاهياً كما في المقامة النحوية • ويذهب أحياناً مذهب أهل المجون كما في المقامة الكرجية •

ان أول مقامة وضعها الحريري هي كما ذكرنا المقامة الحرامية، وكان ذلك عام ٤٩٥ هـ، أما آخر مقاماته فهي البصرية وقد أنهاها عام (٥٠٤) هـ، وفيها يتوب أبو زيد السروجي ويعتكف في المسجد •

مما لا ريب فيه أن مقامات الحريري تفوق مقامات بديع الزمان لأسباب عديدة، فهي أغنى بالآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والأمثال والحكم والأشعار. يضاف الى ذلك أن الحريري أكثر تعمقاً بأسرار اللغة العربية وعلومها ومعرفة حقيقتها ومجازها، مع جمال وابداع في أسلوب الكتابة، نثراً وشعراً، بطرق لم يستطيع أن يجاريه فيها أحد من الكتّاب حتى الآن •

* * *

القاهرة
آخر ما خطّه يراع معروف الأرناؤوط

عبد اللطيف أرناؤوط

حين أصدر (معـروف الأرناؤوط) رائعته التاريخية « فاطمة البتول » نشر اعلاناً يَعِد فيه القراء بقرب صدور روايته « القاهرة » اضخم رواية عربية كتبها مؤلف (سيد قريش) وطلب من القراء أن يترقبوا صدور هذه الرواية ليقرؤوا فيهـا امجاد الدولـة الفاطمية التي بنت زمن المعز مدينة القاهرة عام ٩٧٥ م ٠ والتـي استطاعت ان تقهـر جيـوش بيزنطـة وجرمانية وايطالية مجتمعة في معركة ضاحية ستيليو في صقيلية ، كمـا وعدهم أن يتمتعوا بما فيها من الوان فاتنة في وصف غابات النخيل على ضفاف النيل ٠٠ وليالي الحب في الجواسق المرمرية عند شواطىء البحر المتوسـط ٠ واشـار الى أن عـدد صفحات هذه الروايـة سيبلغ ١٥٠٠ صفحة ، غير أن المنية لم تمهل الأديب الكبير لينجـز مشروعه ، فلم يعثر بين أوراقه الا على فصل واحد بعنوان (سيادة العرب في صقلية) ٠

هل كان هذا الفصل هو الفصل الأول من الرواية أو ضاعت فصول أخرى قبله كتبها الكاتب ٠٠؟؟

قد يتعذر الجزم بذلك ، وان كان الفصل الذي عثرت عليـه لا يوحي بأنـه الفصل الأول ، فقد درج معروف الأرناؤوط في رواياته السابقة أن يبدأها برسم شخصياتها في الفصل الأول ، ويمهد للأحداث بحبكة يجمع فيها بين الوقائع التاريخية والوقائع الروائية الخيالية التي يصوغها غالباً من بنات أفكاره ، ويؤلف بين هذين اللونين من الوقائع في سياق روائي ممتع، فماذا نجد في هذا الفصل ٠٠؟؟

لا وجود للوقائع الروائية في الفصل الـذي كتبه ، وانمـا هو سـرد تاريخي

يتناول وصفاً لمطامع الملك أوتون الثاني من أسرة الساكس الألمانية في احتلال صقلية والقضاء على النفوذ العربي في البحر المتوسط ، وكان العرب زمن الفاطميين قد بسطوا نفوذهم على هذا البحر وجزره ·

ويفصل (معروف الأرناؤوط) في الخطط التي رسمها ذلك الملك الألماني الذي امتدت سيادته الى ايطاليا ، وجهوده في اقامة جبهة موحدة تجمع الألمان والطليان والبيزنطيين لمواجهة العرب المسلمين ، وتصفية نفوذهم وسيادتهم على الأجزاء الأوروبية من البحر المتوسط ، وحصرهم في منطقة الشرق الأوسط ، ثم يتابع المؤلف أحداث الوقائع والمعارك التي تمت في صقلية ، وانتهت بهزيمة الامبراطور الألماني ، وتصدع جيشه بأسلوب مأساوي، واخفاق أحلامه التي لم يحسب فيها حساباً لصلابة خصمه العربي وقوة عزيمته ·

فبعد معركة برية وبحرية تمت قرب شواطىء بلدة روسانو وقتل فيها القائد العربي البطل أبيو القاسم من أغالبة المغرب العربي أمير صقلية حسب أوتون الثاني أن نصره كان حاسماً ، غير أن مصرع القائد العربي البطل أجج حماسة أبناء صقلية من العرب ، فلاذوا بشعاب الجبال بعد المعركة ، وكانت غلطة اوتون أنه ظن أن تعقب الفارين عمل سهل ليضمن إبادتهم في صقلية ، فاختار طريقاً ضيقاً تحده الجبال من جهة والشاطىء من جهة أخرى ، وورط جيشه في المغامرة بالتوغل في الشعاب والمعاقل الوعرة تحت حر الشمس ، حيث كانت السيوف العربية تنتظرهم ، فما أصبح الصباح الا القتلى من جيش أوتون وأشلاء جيشه منثورة على الصخور ، ومن نجا من القتل كان يرمي بنفسه في البحر حيث تترصده سفن العرب قتلاً أو أسراً · ومات في المعركة أغلب أمراء جيش أوتون من الدوقات والكونتات الشبان الذين كانوا زهرة المانيا وايطاليا ، أما أوتون فقد فر في البحر حيث أقلته سفينة صيد بيزنطية الى المانيا ·· ولبس شعبها الحداد على أفدح خسارة مُني بها برجاله · وعدت معركة ستيليو التي وقعت في ١٣ أيار ٩٨٣ م في ذكرى مولد الرسول الكريم محمد ﷺ في الثاني عشر من ربيع الأول سنة ٣٧١ هـ ·

ان غلبة الوقائع التاريخية على الفصل د ونأن يتضمن أي واقعة روائية توحي أنه ليس الفصل الأول من الرواية، فلعل الأديب الراحل (معروف) كتب فصولاً غيره مهدت له ثم ضاعت بين أوراقه ولم يصل الينا الا هذا الفصل ·

والكاتب (معروف الأرناؤوط) في هذا الفصل اليتيم لا يخرج عن أسلوبه في كتابة الرواية التاريخية ، فهو يعتمد على المصادر الوثيقة ، ويحرص على أن يسرد شهادات المؤرخين الغربيين أنفسهم في أحكامه التاريخية لكي لا يتهم بالتحيّز للعرب المسلمين ٠

فمن المصادر التي اعتمدها مؤلفات (غوستاف ستلمبرجر) عضو المجمع العلمي الفرنسي ٠٠ والكتاب الألمان ومن المصادر العربية (الكامل) لابن الأثير ، ولا ينسى أن يرد على المؤرخين الأجانب ، اذ زعموا أن صلات كانت تربط عرب افريقية وصقيلية ومصر بالدولة البيزنطية بغية الاساءة الى التاريخ العربي الاسلامي ٠

وهو لا يخرج أيضاً عن أهدافه التوجيهية التي وضعها نصب عينيه حين كتب سلسلة رواياته وهي بعث الروح القومية والاعتزاز بالماضي المجيد في نفوس الناشئة اليوم ليعيدوا مجدهم الغابر وحريتهم وسيادتهم التي كانت لهم عبر التاريخ ٠

أما أسلوبه في هذا الفصل فيبرهن على أن (الأرناؤوط) صاحب القلم الساحر ، والذي لم يبزه أحد من الكتاب في استصفاء سحر اللغة العربية واحياء ما انطوى من تعابيرها وكنوزها قد بلغ ذروة نضجه اللغوي بعد كتابة رواياته ، حتى بدت اللغة العربية بين يديه مطواعاً كأنها عجينة يشكل منها ما يشاء من التعابير التي تشهد أنها دانته ، فكان متميزاً في استخدام التراث اللغوي لا يجاريه في توظيف كنوزه أي كاتب قبله وبعده ، وحبذا لو أفاد كتّابنا واستخدموا ما أحيا من أوابد التعبير ٠

من ذلك على سبيل المثال قوله :« رجاة أن يتفرغ لمحاربة الدولة الفاطمية » « ربطوا جأشهم للحادثات »« هو سيد متز وغطريفها » « وهو قد تنكب أن ينازل عدوه » « تحت ستار ليل شديد التعبيس » « ان فجراً جميلاً سيضحك لهم عند شواطىء ايطاليا »« يقبلون على الموت في صورته الجاهمة » « أولئك الشهداء الذين ماتوا زلفى لايمانهم»الكاتب معروف الأرناؤوط كان يفيد من دراساته اللغوية في اطار عمله عضواً في مجمع اللغة العربية بدمشق ،

فيبعث ما توصل اليه من أسرار العربيةفي ثنايا أسلوبه لتتداول بين الناس ٠٠ لنأخذ مثلا قوله : لأن شمس أيار قد رمتهم بالحريق في ساحل تلفحه رمال افريقية بنار ذات صليل ،) فمن يعرفمن كتّابنا اليوم أن صوت النار يدعى صليلاً٠٠؟ وهم لا يستخدمون الصليل الا للتعبير عن صوت السيوف ٠ وهنا تكمن قيمة روايات الأرناؤوط ، فهي مدرسة قومية ومدرسة لغوية لتعليم الناس أسرار اللغة العربية التي أفسدتها الترجمة وما أدخلته اليوم من أساليب هجينة ٠

وبحسبنا أن نقدم هذا الفصل اليتيممن رواية /القاهرة/ ليستمتع بحلاوة نسجه اللغوي ، ولعل القارىء يخلص الىما خلصنا اليه من حقيقة جازمة هي أن فن الرواية تطور فنياً بعد معروف الأرناؤوط لكن أحداً لم يستطع أن يقدمه بثوبه اللغوي الفني الساحر ولا أن يعبرعن مكنونات القلوب أو يقدر على التعبير عن عالم الحس والضمير بلغة كفية تجذبالقارىء وتفرض عليه تقدير الكاتب بمثل ما قدم هذا الكاتب البليغ ٠٠

* * *

□ سيادة العرب في صقلية :

لما بويع (أوتون الثاني) من أسرةالساكس الألمانية امبراطوراً على ألمانيا وملكاً على ايطالية وبعض الممالك الأوروبية ، زيّن له الحلم وهو الشاب المحارب أن يترسم خطى أبيه أوتون الأول ، ويجري على سننه فيقوي أواصر الصداقة وروابط المودة مع الامبراطورية البيزنطية رجاة أن يتفرغ لمحاربة الدولة الفاطمية التي انبثقت من صميم الدولةالعربية في القيروان ، وكان سبيل أوتون الثاني الى تحقيق أبعد غاياته ومقاصدهأن يتزوج الأميرة تيوفانو كريمة امبراطور القسطنطينية أعدى عدو للدولة الفاطمية الناشئة ٠ وقد كانت سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة لميلاد السيدالمسيح بداية ذلك العراك القاسي الذي احتدم بين أمة عربية باسلة ، لم تكدتفرغ من تأسيس مدينة القاهرة ، حتى هبّت للذود عن مراكزها ومحارسها عندسواحل البحر المتوسط وبين الأمة الضخمة التي قدرت على التبسط في معظم أوروبا ما خلا الجزيرة البريطانية ٠

وليس من شأننا أن نكترث لبعض مزاعم المؤرخين حول الصلات التي كانت تربط عرب افريقية وصقلية ومصر بشيوخ السياسة في الدول البيزنطية ، فان هذه المزاعم التي تصورها مؤرخون متعصبون في ايطالية وجرمانية لم يكن القصد منها غير التقليل من حماسة الشعب العربي لحريته وغيرته على ميراثه من الفتح والألمعية ، وقد كان هذا العالم الفريد الذي نشر أعلام ثقافته المتسامحة على جميع افريقية وفي جميع آسية وفي بعض سواحل ايطالية الجنوبية واليونان لا يفكر في أواسط القرن العاشر الا في تنضير العاصمة الجديدة التي بناها على ضفاف النيل وأمتعها بجنى الحضارة التي أثلها في اسبانية وافريقية · كلا ، ليس من شأننا أن نعرض لهذه المزاعم لأننا نفرق من الاساءة الى التاريخ الذي خلد في صفحاته أجمل صورة لكفاح العرب في سبيل دولتهم الناشئة جديداً على ضفاف النيل وفي سبيل ثقافتهم التي نشرت منائرها على شاطىء صقلية ، ثم في سبيل منع الشعب الجرماني الذي يسيطر على أوروبة من العبث بسيادة الأمة العربية في البحر القديم الذي ظل مثاراً للتنافس بين الرومان واليونان ·

يقول غوستاف ستلمبرجر عضو المجمع العلمي الفرنسي انه لم يكن للامبراطور الجرماني الذي كان ينزل في بعض ايطالية بد من استصفاء شبه الجزيرة الايطالية جميعاً وطرد العرب من جزيرة صقلية فنزل في ترانتو وجعلها قاعدة لمهاجمة جزيرة صقلية التي كانت ترجع في أمورها وشؤونها الى القاهرة عاصمة الدولة الجديدة وريثة القيروان ، وعلى الجزيرة في ذلك العهد أمير من الأغالبة يكنى أبا القاسم وكان سيد جيله في نضرة أخلاقه ونضرة أعراقه ، وقد صوّره مؤرخو الجرمان والرومان في صورة إله الحرب والنصر عند العرب ولكن أبا القاسم الأمير الشجاع لم يفته شيء من مقاصد عدوه الضخم فأعد العدّة للقاء جحافل الجرمان وكتائب الرومان وحشد لهذا الأمر فرسان المغرب أصحاب البرانس البيض حتى ملأ بهم جميع سواحل (كالابرية) ·

كانت شواطيء بلدة (روسانو) الصعيد الأول الذي تلاقى عليه أبناء جرمانية الشقر وأبناء العربية السمر ، فلما تعالت أصوات الفريقين في ذلك المكان النابي الذي تلتف به الجبال الواعرة ومياه البحر الزاخرة خشي الجرمان الذين يلبسون الحديد من ذوائب رؤوسهم الى مواطىء أقدامهم أن يقارعوا أبطال

المغرب ، فهموا برجعة لولا أنهم ربطوا جأشهم للحادثات ثم خاضوا الغمار بقلوب لا ترعش ولا تميد • ثم اذا الليل يظلهم ويظل فرسان المغرب ثم اذا هم جميعاً ينغمسون في دجناته حتى اذا طلع عليهم الفجر أقفرت ضاحية (روسانو) من حماتها العرب وتعاورت أولئك الذين لبسوا الحديد من سلائل الرومان والجرمان دهشة عظيمة اذ سرعان ما أدركوا قدرة عدوهم الصليب الشديد على الانسحاب من ميدان لم يجد العرب على صعيده ما يكفل لهم النصر على عدوهم الضخم •

وأحس (اوتون الثاني) أن الجحفل الجرار الذي يقوده أبو القاسم قد وارته شوامخ الجبال عند الجنوب الغربي من (روسانو) ، وانه مسوق الى معاناة ظروف وأحداث لا تقوى جحافله وفيالقه على مصاولتها ومغالبتها ، فأجمل به أن أن يتعقب ساقة أبي القاسم لعله يظفر بما لم يظفر به في الملحمة الأولى ، ثم اذا هو ينزح عن (روسانو) بعد أن ولّى عليها عظيماً من عظماء الجرمان هو مستشار الامبراطورية (ديتريش) سيد مقاطعة (متز) وغطريفها ونزح معه رجال الحاشية ونبلاء جرمانية وأشراف ايطالية ولم ينس أن يصحب زوجه (تيوفانو) وكان عليه أن يتحمل لذع الشمس في ساحل يمور بالدفء والحرارة وأن يصعد في أعالي الجبال ، ويجوس خلال الحزون ولأودية باحثاً منقباً عن ذلك البطل الذي ملأت صورته واسمه جميع مدن البحر المتوسط من (سالونيك) الى (صقلية) الى الشواطىء الشاخصة الى المحيط الأطلسي •

يقول ابن الأثير مؤرخ العرب ان أبا القاسم شرع في الزحف في مستهل شهر ربيع الأول ، سنة احدى وسبعين وثلاثمائة لهجرة سيد قريش أي في اليوم الأول من شهر أيار سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة لميلاد السيد المسيح •

وكان على أبي القاسم أن يرقى جبال (كالابرية) عند ساحل البحر متريثاً مترفقاً حتى ينازل الجحافل الجرمانية والايطالية وهو قد تنكب أن ينازل عدوه في (روسلنو) على الرغم من أن قواده كانوا يلحون عليه في المنازلة ، ولعله كما قال مؤرخو زمنه : آثر أن ينزح عن (روسانو) لأن هذه البلدة الصغيرة ماكانت تصلح لِكَرٍّ وفَرٍّ •

ثم أخذ يبث أساطيله في البحر فراحت تذرع تلك الشواطىء المنتشرة عند سفوح الجبال والتي كانت تلقي بظلال هضباتها ومرتفعاتها الى الماء ، بينما كانت جيوشه وجحافله لا تمل أن تذرع الأرض والفضاء ، وليس لدى (أوتون الثاني) أسطول يصارع اللجة الثائرة لأن السيادة البحرية على البحر المتوسط قد استأثرت بها مدينة القاهرة العاصمة الجديدة ، بعد أن انتزع العرب هذه السيادة من البيزنطيين ، ثم من الايطاليين ثم من الجرمان ٠

ولا يلبث (أوتون الثاني) أن يستصرخ الى نجدته حمية الأمة البيزنطية فتمده بيزنطية ببعض السفن وعليها ربابنة ، تعودوا أن يستعملوا النار اليونانية المعروفة بنار (جريجوار) ثم اذا الأمر يضطر امبراطور الجرمان الى الخروج بسفنه الى عرض البحر لعله يستطيع أن يحرق هذه الأساطيل العربية التي لا تمل أن ترتاد البحر المتوسط من شواطىء اليونان الى شواطىء الرومان غير حافلة بحر وقر ، فوق لجج تهدر وتزمجر ، وتحت ستار ليل شديد التعبيس ٠

بل لعل امبراطور الجرمان وسيد الطليان آثر أن يقاتل في البحر بعد أن توهم أن عدوه لا يستطيع القتال على الأرض ، فلقد غرر بالعاهل الجرماني الذي ورث أوربة جميعاً ظنه أن الجيش الذي نهد الى محاربته أخذ يفر من المعركة وأن هؤلاء الفتيان السمر الذين جلبوا بالطيالس البيض ، ليس لهم قوة على مقارعة فتيانه الشقر ، وربما خيّل اليه أن النصر أخذ يضحك في وجهه ويضيء في عينيه ، فاتسع خياله وامتد وهمه فأزمع أن يكون على رأس الخميس العرمرم وهو لا يحتاج الى أكثر من أن يعتزم ، ثم لا يكاد يثخن في عدوه حتى يتقاصر ذلك العدو ويتصاغر ، ثم يعود وعلى كفه أثر من دم أبي القاسم ، وربما كان من بواعث تعاسته وعوامل شقائه كما قال مؤرخو عصره أنه كان لا يعلم شيئاً من أساليب العرب في القتال ، وانه توهم الرماد في قلب أمة حرقها بالشموس انتصاراتها في المحيطات الواسعة ، وفي الصحراوات الشاسعة ، وتحت كل سماء وفوق كل أرض ثم لا تلبث المعركة الطاحنة أن تنشب على الشاطىء ، فيختلط صليل السلاح بهدير الموج قبالة ساحل (ستيلو) في الطرف الجنوبي الى الغرب من (سكولاك) عند موضع يعرف بالعمود ،« وفي صباح اليوم التاسع من شهر ربيع الأول سنة احدى وسبعين وثلاثمائة للهجرة وهو العاشر من أيار سنة

اثنتين وثمانين وتسعمائة للميلاد أمر أبو القاسم جيوشه بالكف عن الانسحاب وقد آلى ليقاتلن الى النهاية سادة جرمانية وغطاريفها الذين كانوا يتدفقون في أثره تدفق السيل ٠

وعرّس جيش افريقية اللجب حيال شاطىء البحر بعد أن وطّن قادته نفوسهم على الاستهانة بأرواحهم ، وأحب أمانيهم أن يلقوا الامبراطور في الطريق وأن يمنعوه فلا يبلغ وطره من الزحف الذي شرع فيه ٠ ثم هم يعودون الى (صقلية) للاحتفال بمولد سيد قريش بل سيد العالم في اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول.

يقول ستلمبرجر عضو المجمع العلمي الفرنسي : ان تاريخ ألمانية في جميع أدواره وعصوره لم يعرف مثل هذه الساعة في روعتها وخطورتها حتى ليجوز القول ان فرسان الشمال لم يواجهوا منذ معركة (بواتية) المشهورة أمة أكملت ايمانها وسلاحها كالأمة التي خرجت من جزيرة صقلية ، لترد باسم خليفة القاهرة هذه الجحافل الجرمانية التي استفزها طاعاهلها الفتى وأحمسها حتى جعلها تعتقد أنها تستطيع أن تضيف الى انتصاراتها في أوروبة انتصارات جديدة في أرض عليها طابع القيروان في أزهى عصور ثقافتها ٠ فقد كانت الحماسة للدين وللشرف وللوطن تفور وتثور في صدور فتيان افريقية السمر بمثل غليان البغض وثورته في صدور سلائل الجرمان الشقر ،وكان كثير من الأشراف الذين تفيأوا رايات (أوتون الثاني) لا يؤمنون بالرجعة الى منابتهم الأولى ، ولا يصدقون أن فجراً جميلاً سيضحك لهم عند شواطىء ايطاليا ٠

ويقول ستلمبرجر في وصف حماسة الجرمان ان فارساً من اللورين هو الشاب (كونراد) نجل (الكونت رودلف) أمير مقاطعة (متز) كان قد وهب جميع أملاكه وأمواله للامبراطور رجاة أن ينفق ريعها على هذه الحرب التي طوت في سيلها شبان جرمانية فولاّه الامبراطور قيادة الكتيبة التي تحمل رايته اعترافاً بجميله واقراراً بصنيعه ٠

وترادفت كتائب الجرمان على الحومة وفي روح أي جندي من جنودها تلك الغلظة التي تفرد بها العنصر الجرماني بين شعوب أوربة ولم يكن من الهين اليسير على هذه الكتائب أن تربح المعركة في عنفوان الأمر ، لأن هؤلاء العرب الذين

عقدت شجاعتهم وحماستهم ما بين المشرق والمغرب ، والذين حملوا الى شعوب العالم جنى حضارة رحيمة • لم يكونوا أقل حماسة من أوائلهم الذين تقدموهم على هذه الأرض ، فلقي الجرمان منهم ما فتّ في أعضائهم وروّعهم • ان هؤلاء الذين لوحتهم شمس افريقية كانوا يغنون أغاني شعرائهم وانهم الى ذلك كانوا يقبلون على الموت في صورته الجاهمة وهم يضحكون لصورته ، ويهشون لطلعته ، ولا يخيفهم انه جعل ينظر اليهم بعينين يابستين جامدتين •

يقول ارنست لافيس المؤرخ الفرنسي المعروف في وصف هذه المعركة ثم تراءى للجرمان أن الامبراطور سيبلغوطره من النصر لأن جحفلاً من جحافله كان قد تغلغل في وسط كتيبة من كتائب المغرب وقد ظل الجحفل الألماني يدفق كالسيل حتى بلغ في دفقه رايات الأمير التي نهد للدفاع عنها نبلاء من عرب افريقية والمغرب تحت قيادة أبي القاسم .وكان طبيعياً وقد صاقب العدو الجرماني خيمة الأمير أن تشتد سورة المعركة حول تلك الرايات المقدسة وأن يهلك تحت النقع فرسان ما تعودوا أن يموتوا كما يموت الجبناء ، بل كان طبيعياً أن يعطي الأمير نفسه أروع دروس الشجاعة وأنبلها ، ثم أن يموت كما مات أوائله فيزيد موته في عدد أولئك الشهداء الذين ماتوا زلفى لايمانهم ومسايرة لوطنهم •

ولعل الأستاذ غوستاف ستلمبرجر هو المؤرخ الفرد الذي وفق في وصف هذا الموت المؤثر • فلقد قال : ان الجيل الأوربي الذي فتح عينيه على نور القرن العاشر ، قد قبس من حياة أبي القاسم ومن موته كل شعائر البطولة والأريحية •

ولكن موت الزعيم الغطريف على تلك الصورة البارعة لم يثمر اليأس في نفوس أصحابه ، ولم يثمر الأمل نفوس أعدائه • فلقد نذر أولئك الفرسان الذين صحبوه في طوافه الشجي ، أن يغلبوا عدوهم أو تبتلعهم لجج البحر المتوسط • حتى اذا عاشوا أو ماتوالقي العربي الناشيء في حياتهم وموتهم أمنيته الغالية من أغراض الشرف والمجد، ولم يكونوا في حاجة الى الاطالة في التفكير والتأمل فزالوا عن الميدان يحملون على مناكبهم رفات الرجل الذي ملأت حياته النبيلة كل البحر المتوسط ، من شواطيء اليونان الى شواطيء الرومان •

وخيل الى الجرمان أن المعركة كانت نصراً رائعاً عقد الريحان والورد على مفرق امبراطورهم ، وأن جرمانية لن تبطيء في توحيد ايطالية تحت سيادتها

من ساحل صقيلية الى (رافين) على ساحل الأدرياتيك ، ولكن هؤلاء الجرمان الذين أثملهم رحيق النصر ، كانوا يقاتلون وعليهم الحديد والفولاذ ، وكان طبيعياً أن لا يطيقوا الحديد والفولاذ لأن شمس أيار قد رمتهم بالحريق في ساحل تلفحه رمال افريقية بنار ذات صليل، وليس ثمة مشابهة بينهم وبين أعدائهم ، فلقد روض العرب منذ نعومة أظفارهم جماح الشمس، ومرنوا على الهاجرة، وألفوا أن يقاتلوا عدوهم تحت السماء الافريقية غير مكترثين للرياح البوارح ترمي بها الرمال الى ما يجاورها من الشطآن والخلجان ·

ورأى الامبراطور أن في ميسوره أن يلحق بالفلول المتراجعة ، وخُيِّل اليه أن النصر الكامل لن يفلت منه ، فجدَّ في اثر عدوه ، وكان عليه أن يسلك طريقاً واعرة يجاورها البحر الواعز من الشمال، وتتاخمها الجبال الكابية من اليمين ، وتشقها أخاديد ينبطح على حفافها الماء من غير أن يدخل في وهمه وتصوره أن طريقاً من هذا النوع الشديد العنيف ، ينتفع بها عدوه ولا ينتفع هو منها ، وغاب عن ذاكرته وخاطره أن أبناء الذين قاتلوا في (بواتيه) كانوا قد أتقنوا الدرس وأنهم خلفاء بشرف الآباء والأجداد ، ثم حدث أن استبدل أعداؤه أساليب المهاجمة والمقارعة بأسلوب جديد طريف لا يعرفه الجرمان وأحلافهم الطليان ، وبيان ذلك أن رفاق أبي القاسم كانوا محاربين قادرين على تحويل انتصارات عدوهم الى هزائم ، فلقد كان من السهل اليسير أن يتذروا الجبال الشم وأن يرصدوا عدوهم على الربوات والهضبات ، وأمنية أمانيهم أن يثأروا بزعيمهم وأميرهم من قاتليه ·

وكانت جيوش (أوتون الثاني) تسير في محاذاة البحر ومعها أعلامها وراياتها، وكان ذلك في اليوم الثاني عشر من ربيع الأول، وقد ملأ العرب ذرا الجبال وراحوا يعيدون ذكريين اثنتين ذكرى مولد نبيهم وذكرى مولد مدينة القاهرة عاصمتهم بعد القيروان ، ثم جعل ذلك العدو الذي انتبذ الساحل يتراءى لهم وهم على المرتفعات والهضبات ، فتساقطوا عليه وهم يغنون أغنيتين ، أغنية الميلاد الذي ضاء في بطاح مكة وأغنية الميلاد الذي انبثقت منه قاهرة المعز ، وأصواتهم تملأ الحزن والسهل والجبل والبحر ، ثم اذا عدوهم المتكبر قد أخذته رعدة خوف ، فلم يستطع أن يصاول أو ينازل فقد فتَّ عضده ، ان هؤلاء السمر الذين نذروا نذرهم لله وللوطن ، طفقوا يهاجمونه في طلائعه وينازلونه في مؤخرته ويصاولونه

عن يمينه ، فاما شمال الجرمان فقد كان منفتحاً على البحر وليس لديهم أسطول يدفع خطراً عنهم على حين كانت سفن صقيلية ومصر والمغرب تملأ عرض الدأماء ٠

يقول ستلمبرجر : إن المعركة الثانية التي خاض الجرمان غمارها كان مقدراً لها أن تقع بعد يومين اثنين من وقوع المعركة الأولى ، وقد جرت أحداثها وظروفها في موضع ليس بعيداً عن بلدة كوترون عند ناحيتي الجنوب والغرب بجوار موضع يعرف بموضع العمود٠وكانت أشنع مذبحة شمل خطبها أولئك التعساء من محاربي الجرمان والطليان، فلقدهلك تحت السماء التي تبعث النار والحريق، وبين فروج تلك الجبال النائية ، والبحر الذي يمور بلجج كأنها السعير ، جيل كامل من الفرسان لم تكن له قوة يغالب بها شجعان صقلية وأبطال المغرب ، وأبلغ القصص المؤثرة التي كتبها كتاب ايطالية وألمانية في وصف هذه التعاسة هي القصة التي تضع أمام عيون الناس صوراً شاحبة تمثل فرسان الشمال والجنوب ، وهم يلقون بأنفسهم الى البحر السائل الفائر فراراً من عدو شجاع لا يعرف أن يلين لعدوه ، وقد استمرت المعركة الليل بطوله فلم يكد الفجر يطل ، حتى كانت الأرض واللجج التي يطفو عليها الحريق قد ابتلعت أينع أزهار تفتحت في حقول الجرمان والطليان وبين النبلاء الذين أدركهم الموت في البر والبحروعلى حضيض الجبل الدوق ريشار حامل سلاح الامبراطور والكونت أوتو زعيم المحاربين الفرنج والماركيز كونت هير دي ميسني،والماركيز برتهولد، والكونت هنري فون اغسبورغ ، والدوق فارنرفون فولدا ، والكونت جيهار وشقيقه ازولين ، والبارون فون بوركا ، والأمراء كونراد وارمفريد وأرنولد ، ونبلاء آخرون لا يعرف أسماءهم غير الله ٠

يقول كاتب ألماني في وصف هذه المأساة المحزنة :

لم ينج من سيوف سمر افريقية واحد من كل أولئك الشبان الذين كانت شبيبتهم زينة في جبين وطنهم ، وزهرة في حياته فلقد طوى البحر في لججه كل هؤلاء الذين فخرت بهم جرمانية الشقراء ، وكانوا أعز الناس على قلب امبراطورهم ويقول ستلمبرجر ان بين الذين هلكوا من عظماء جرمانية عظماء من ايطالية من ألمعهم وأنضرهم البرنس لاندولف أمير مقاطعة كابو وهو الابن البكر للدوق لاندولف المعروف بصاحب الرأس الحديدي ، ثم الدوق رنالدو من أسرة سفورزا

العريقة والماركيز فاديبورتو • والكونت جويدو دي ساسا • والدوق نراسموند دي فوشي •وجميع هؤلاء كانوا حماة ايطالية في كهولة القرن العاشر •

وأما الأحياء الذين نجوا من هذه المذبحة فقد أهلكت بعضهم الأمراض والأوبئة والتعب والشرود واليأس وأرسل بعضهم مصفدين بالأغلال الى أسواق بالرمو عاصمة صقلية ، ثم الى أسواق المهدية وبعث العرب الظافرون بقسم كبير من عظماء الأسرى الى الاسكندرية والقاهرة ولم يقدر لواحد من هؤلاء أن يفلت من الأسر ويعود الى ألمانية أو الى ايطالية الا لقاء فدية • أما الامبراطور (أوتون الثاني) فقد كان الرجل الوحيد الذي نجا من الموت ، ذلك أنه رمى بنفسه الى البحر ومعه ابن أخيه أوتون الأول دوق بافارية ، وبيان ذلك أن سفينة صيد بيزنطية كانت تطوف حول شواطىء صقلية • فما عتم بحارتها أن شهدوا الامبراطور والدوق وهما يصاولان الموت ويصارعانه ، فسارعوا الى انقاذهما وردهما الى المانية التي لبست الحداد على قتلاها خلال شهور طويلة •

حدث هذا كله في ضاحية (ستيليو) في اليوم الثالث عشر من شهر أيار سنة اثنتين وثمانين وتسعمائة لميلاد المسيح ، وهو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة احدى وسبعين وثلاثمائة لهجرة سيد قريش •

* * *

آداب وخدمات السّكن الدّاخلي في المدرسة عند المسلمين

د. محمد منير سعد الدين

من مفاخر التعليم عند المسلمين تخصيص مساكن للطلبة بغرض الانقطاع للعلم ، والتفرغ للتحصيل والدرس والبحث ، وإقامة الشعائر الدينية ، ومراعاة المناخ العلمي والسلوكي الجيّد ، وتوفير الكثير من الخدمات التي تقدم لهم عادة في منازلهم .

ولقد وضعت قواعد تنظم السكن في تلك المدارس الداخلية بشكل دقيق « بحيث تراعي حالة الساكن الصحية ، واختيار المكان الملائم له ، كما روعي المستوى الأخلاقي للطلبة عند اختيار أماكن سكناهم بالمدرسة مما يضمن حسن العلاقة بين جميع الساكنين »(١) .

ووفر واقفو المدارس للطلبة « المسكن المناسب كي يجد الطلبة الغرباء والفقراء راحتهم وأمنهم واستقرارهم ، مما يساعد على الانقطاع للعبادة وطلب العلم ، فكان من مكملات المدرسة انشاء بيوت خاصة للطلبة ملحقة ببناء المدرسة وهي شبيهة بالمدن الجامعية اليوم ، مع الفارق الكبير في وفرة الخدمات التي تقدمها للطلبة الساكنين بها ، بتوفير جو من الهدوء والراحة والنظام »(٢) .

فالمدرسة مساكن للطلبة وأماكن للتعليم « حيث اعتمد في تصميمها المعماري على قاعة كبيرة للدرس اصطفت على جوانبها غرف الطلبة أو قاعة للنوم في بعض الأحيان من طابقين يتوسطهما صحن مكشوف ، وقد تضمنت مصلى صغيراً لتؤدى فيه الصلوات ، وكانت هذه المدارس تقدم للطلبة الغرباء غرفة لكل طالب ، وكان في بعض هذه المدارس ما يزيد على المائة غرفة »(٣) .

وكانت مساكن الطلبة آية من آيات الفن المعماري ، تبدو على جدرانها الزخارف بالنقش العربي الهندسي والبنائي ، وكان ما يبعث على الاعجاب ، وما يدل على الذوق

الفني الرفيع ذلك التقدم والتطور الذي يحدث على الزخارف سواء لجهة الصناعة أو الأشكال الزخرفية نفسها ، وتوافرت في هذه المساكن « أسباب الراحة والصحة حتى ينصرف الطالب الى حضور حلقات الدروس والمطالعة في المكتبة واعداد الدروس بغرفته ، ولا يتكلف الطالب نظير ذلك أي شيء مادي »(٤) .

وقد توفرت في السكن الداخلي الوسائل الترويحية الضرورية فلم « تخلُ الحياة داخل المدرسة من بعض الاحتفالات التي تقام للترفيه والتوسعة على العاملين في المدرسة سواء من المدرسين أو الطلبة وغيرهم في المواسم الدينية، فتفرق عليهم اللحوم والسكر والمأكولات والحلوى خصوصاً في الأعياد وشهر رمضان ويومي تاسوعاء وعاشوراء »(٥) .

ولم تكن أعداد الطلاب في غرفة السكن الواحدة بالأعداد الكبيرة كما يحدث عادة في أيامنا هذه ، بل كان هذا العدد وسطاً بحيث يكون مناسباً لتنمية الاتصال الاجتماعي واكتساب الفضائل والصفات الاجتماعية .

ولقد تنافس الطلبة على سكنى المدارس مما جعل المقريزي يشير الى ذلك وهو يتحدث عن المدرسة الصاحبية البهائية في مصر فيقول: « كانت من أجل مدارس الدنيا وأعظم مدرسة بمصر يتنافس الناس من طلبة العلم في النزول بها ، ويتشاحنون في سكنى بيوتها حتى يصير البيت الواحد من بيوتها يسكن فيه الاثنان من الطلبة والثلاثة »(٦) وفي هذا أيضاً اشارة الى عدد الطلبة في الغرفة الواحدة ، ويبدو استكثار ذلك في رأي المقريزي .

الخدمات المقدمة لطلبة الأقسام الداخلية في المدارس

١ ــ الطعام واللباس والجرايات أو الرواتب :

كان يقدم للطلبة في السكن الداخلي الطعام الذي يُعد في مطبخ خاص في المدرسة، ويقوم به طباخ خاص ، وله مساعدون يقومون باعداد الطعام وتوزيعه عليهم .

فهذه حجة السلطان حسن بن قلاوون تشير الى أنه كان يقدم لطلاب السكن الداخلي « خبز ، وأرز ، وعسل ، وحبوب ، وحب رمان ، وغير ذلك »(٧) .

وكذلك كانت تقدم للطلاب المعاليم أو الرواتب الشهرية « والثياب طيلة مدة اقامتهم فيها وكانت الأوقاف الخيرية هي التي تتحمل تلك النفقات »(٨) .

٢ ــ الرعاية الطبية :

لم يهمل مؤسسو المدارس الرعاية الطبية الشاملة للمدرسين والطلبة ومن معهم من أصحاب الوظائف بالمدرسة سواء كانوا من المقيمين فيها أو في خارجها ، فالطبيب لم يقصر مداواته على الموظفين والطلبة المقيمين بها فقط ، بل كان يداوي من يحضر من الطلبة وأرباب الوظائف ممن ليس لهم سكن فيها .

فهذه المدرسة المستنصرية كان من شروط وقفها أن يكون هناك طبيب « يطبب من يعرض له مرض من أرباب هذا الوقف ، ويعطي المريض ما يوصف له من أدوية وأشربة وغير ذلك »(٩) .

وجاء في حجة السلطان حسن بن قلاوون(٦٨٧ هـ/١٢٧٩ م ـ ٦٨٩ هـ/١٢٩٠ م) أن يرتب الناظر في المدرسة طبيبين كل منهما يحضر في كل يوم الى المدرسة ، « يداوي من يحتاج الى المداواة من ارباب الوظائف والطلبة المقيمين بالاماكن ومن يحضر اليها من الطلبة وأرباب الوظائف ممن ليس له سكن ، ويتوجه اليه الطبيب في مكان اقامته ولا يكلف المريض الحضور الى الطبيب »(١٠) ·

وكان من شروط مدرسة الطب في المستنصرية أن يكون فيها طبيب « يطب من يعرض له مرض من أرباب وقفها ، وأن يُعطى المريض ما يوصف له من الأدوية والأشربة والأكحال السائلة »(١١) ·

٣ ـ النظافة ، والحراسة ، والانارة :

لقد وضع للسكن في المدرسة نظام دقيق للدخول والخروج وخاصة بالنسبة لمساكنها الداخلية ، فكان هناك الحارس البواب ومهمته ملازمة باب المدرسة لصيانتها وحفظ ما فيها من متاع ، وعدم السماح لمن لا يقيمون فيها بالدخول أو غير المرغوب فيهم ممن هم متهمون بالفساد وسوء الخلق ، ويشير المقريزي أنه على البواب أن « لا يُمكن غريباً يصعد اليها »(١٢) · وعلى البواب أن يكون يقظاً أميناً ، ولا يترك الباب الا لعذر ويستخلف من يقوم مقامه في حال غيبته ·

وكان هناك الفراشون الذين يقومون بعملية تنظيف المدرسة ومساكنها الداخلية ، من كنس ورش وتنظيف الفرش ونفضها ،وكثيراً ما توزع الأعمال بينهم بالتناوب ·

وهناك أيضاً القَوَمَة الذين يتولون الاشراف على انارة المدرسة ومساكنها الداخلية ، وتعمير القناديل للطلبة ، وعمل الصيانة اللازمة لها من المسح والتنظيف ·

آداب السكن في الأقسام الداخلية في المدرسة

لقد حرص الفقهاء المسلمون على تحديد العلاقة بين الطلبة والمدرسين الساكنين في المدرسة ، والمحافظة على مبناها وصيانته ،وعلى سمعة المدرسة من خلال أدب وحسن العلاقة بالجيران ورفاق الدراسة ·

١ ـ اختيار غرف السكن :

لقد لاحظ الفقهاء المربون المسلمون تلك الفروق الفردية بين الساكنين من النواحي الجسمية ، والعقلية ، والاجتماعية ، والنفسية ، والسلوكية بشكل عام ، فرأوا أن تكون « المساكن العالية لمن لا يضعف عن الصعود اليها »(١٣) ، وخصصوا المساكن السفلى كما قال ابن جماعة « للضعيف ، والمتهم ، ومن يقصد للفتيا والاشتغال عليه ، فالمساكن السفلى أولى بهم ، والمراقي التي تقرب من الباب أو من الدهليز أولى بالموثوق بهم ، والمراقي الداخلة التي يحتاج فيها الى المرور بأرض المدرسة أولى بالمجهولين والمتهمين »(١٤) ·

٢ ـ أدب الدخول والخروج والصعود والنزول في المدرسة :

لقد طلب الى الساكن في البيوت العليا أن يخفف « المشي والاستلقاء على أرضها ، ووضع ما يثقل كيلا يؤذي من تحته »(١٥) .

واذا اجتمع اثنان من سكان الطبقات العليا في البناء فاذا كانا « في أعلى الدرجة بدأ أصغرهما بالنزول قبل الكبير والأدب للمتأخر ان يلبث ولا يسرع في النزول الى أن ينتهي المتقدم الى آخر الدرجة من اسفل ثم ينزل فان كان كبيراً تاكد ذلك ، وان اجتمعا في اسفل الدرجة للطلوع تأخر اصغرهما ليصعد اكبرهما قبله »(١٦) .

٣ ـ الحذر من المشي في باحة المدرسة دون حاجة :

على الطالب الساكن في القسم الداخلي أن « لا يكثر التمشي في ساحة المدرسة بطالاً من غير حاجة الى راحة أو رياضة او انتظار احد ، ويقلل من الدخول والخروج ما أمكنه ويسلم على من بالباب اذا مرّ به »(١٧) .

٤ ـ مراعاة حقوق الساكنين في المدرسة :

على الساكن في المدرسة أن يوطد علاقاته مع من يعيش معهم ، فهم أسرة واحدة تربطهم روابط متعددة ، مما يتطلب منه « افشاء السلام ، واظهار المودة والاحترام ، ويراعي حق الجيرة والصحبة والاخوة في الدين والحرفة لأنهم أهل العلم وحملته وطلابه ، ويتغافل عن تقصيرهم ويغفر زللهم ، ويستر عوراتهم ، ويشكر محسنهم ، ويتجاوز عن مسيئهم »(١٨) .

ويحذر الساكن في المدرسة من رفع « صوته جداً في تكرار أو نداء أحد أو بحث كيلا يشوش على غيره بل يخفضه ما أمكنه مطلقاً لا سيما بحضور المصلين أو حضور أهل الدرس .

ويتحفظ من شدة وقع القبقاب والعنف في اغلاق الباب ، وازعاج المشي في الدخول والخروج والصعود والنزول وطرق باب المدرسة بشدة لا يحتاج اليها ونداء من بأعلى المدرسة من أسفلها الا أن يكون بصوت معتدل »(١٩) .

٥ ـ النهي عن الجلوس في باب المدرسة :

على الساكن في المدرسة أن لا يتخذ من باب المدرسة مجلساً له « بل لا يجلس اذا أمكن الا لحاجة أو في ندرة لقبض أو ضيق صدر ، ولا في دهليزها المهتوك الى الطريق ... لا سيما [اذا كان جلوسه] فيما يستحيا منه أو ممن هو في محل تهمة ولعب »(٢٠) . لأن الداخل قد يكون طالباً بحوزته طعام أو حاجة يستحي أن يراها الآخرون ، أو يدخل نساء مما يربك الداخل أو الواقف بالباب .

٦ ـ الحذر من النظر في بيوت الآخرين وطاقات وشقوق الأبواب :

على الساكن « أن لا ينظر في بيت أحد في مروره من شقوق الأبواب ونحوه ، ولا يلتفت اليه اذا كان مفتوحاً ، وان سلّم سلّم وهو مار من غير التفات ، ولا يكثر من الاشارة الى الطاقات لا سيما اذا كان فيهن نساء »(٢١) .

٧ ـ الابتعاد عـن كل ما فيه ريبة وسوء :

ينبغي للساكن أن لا يُدخل الى المدرسةمـن هو مشـار شك وريبة ، ولا من « يكرهه أهلها ، أو من ينقل سيئات سكانها ، أو ينم عليهـم ، أو يوقـع بينهم أو يشغلهم عـن تحصيلهم ولا يعاشر فيها غير أهلها »(٢٢) ٠واذا كانت المدرسـة « مكشوفة الى الطريق فعلى السالك من باب أو شباك التحفظ فيه عن التجرد عن الثياب وكشف الرأس الطويل من غير حاجـة ، وعليه أن يتجنب ما يعـاب كالأكل ماشـياً وكلام الهزل غالبـاً والبسط بالنعل وفرط التمطي والتمايل على الجنب والقفـا والضحك الفاحش بالقهقهـة ، ولا يصعد الى سطحها المشرف مـن غير حاجة أو ضرورة »(٢٣) ٠

٨ ـ السماح بسكنى المدرسة والمبيت خـارجهـا :

لم يكـن الالتحاق بالساكـن المدرسية « ميسراً لكل راغب ، بل وضع واقفو المدارس قواعد معينة ، تحكم نظام المسكن كأن يكـون الطالب أعزب أو متزوجاً ، وكان جو السكن في المدرسة وسطاً بـين الحريـة والتضييق ،ويوفر فيه للطلاب شعور بالاطمئنان كالشعور الذي يحسون به في بيوتهم ، وقـد سمح لهم بالمبيت خارج المدرسـة ليتمكن الطالب مـن زيارة آهله أو قضاء حاجاته ورعاية مصالحه او للنزهة والترويح عن النفس حتى لا تصبح الاقامة في المدرسة منفرّة ومقيدة لحريتهم ،أما اذا لم تستوعب البيوت كل الطلبة فيسمح لمن ليس له مسكن بالمبيت خارج المدرسة لحين ترتيب مكان لـه أو خلو أحـد البيوت مـن ساكنيه فينزل مكانـه »(٢٥) ٠

كذلك لا يسمح أن يسكن المدرسة من هو « وسيم الوجه ، أو صبي ليس له فيها ولي فطن ، وأن لا يسكنها نساء في أمكنة تمر على أبوابها الرجـال ، أو لهـا كوى تشرف على ساحـة المدرسـة »(٢٦) ٠

٩ ـ صيانـة المبـاني المدرسية الداخلية وتجهيزاتهـا :

لقد حرص الفقهـاء وواقفـو المدارس على توجيـه الساكنين بالمحافظة على سلامتها انطلاقاً من أنها مؤسسات خيرية عامة رصدت للصالح العام ، فالساكن في المدرسة عليه أن لا « يتوضأ من الفسقية لأنها مخصصة للشراب أو الصهـريـج أو الزير ، وعلى سـطـوح المساجـد »(٢٧) ٠

وعليه المحافظة على الفرش والحصر والقناديل ، والأثاث ، والمبـاني « لأن مباني المدرسـة كانت ملكـاً عاماً لصالح الجماعـة الاسلامية لا يجوز لأحد أن يتصرف فيها كما لو كانت من أملاكه الخاصة »(٢٨) ٠

ويتضح من القواعد السابق ذكرها « طابع المغالاة في المحافظة على مباني تلك المدارس مما يعكس بدوره رغبـة المعاصرين في بقاء تلك المدارس أطـول فترة ممكنـة باعتبارها مرافق عامة تخدم المجتمع ككل »(٢٩) ٠

سكنى العلماء في المدارس

لقد سمح للشيوخ الأجلّة العلماء « الاقامة في المدارس والزوايا ليلاً نهاراً والمتعاهدين على أحوال الطلبة والمعيدين والمبتدئين جميعاً والملاحظين آداب المدارس العالية والمتوسطة والمكاتب الصغيرة، والمثبتين بأصول الدين وأحكام الشرع المتين والمعاونين للآخذين من سكان المدرسة خاصة والمتعلمين عامة في العلم والأدب والخلق وتزكية النفس، والمحافظين على خدام المدرسة والمهتمين بها ،والناظرين الى الخارجين والداخلين فيها ، والقائمين بخطط العمارات والزوايا والايوانات والجوامع والمحاريب والقباب وغيرها من الأوقاف والجرايات ، أمر عظيم تتحير بـه العقول وتتعجب فيه النفوس ولأولي الألباب فيه عبرة وبصيرة ، فأي آيات الله تنكرون ـ أو بأي آيات العلم تكذبون ـ »(٣٠) ٠

واشترط على المدرس الساكن بالمدرسة أن يلتزم بالوقار والهيبة ، وعدم الدخول أو الخروج من غير حاجة فتسقط حرمته ، وأن يكون القدوة والمثل لغيره ٠

وهناك أمثلة من التراث عن سكنى المدرسين في المدارس، فهذا ابراهيم بن يحيى الكلبي (ت ٥٢٤ هـ/١١٢٩ م) عندما دخل بغداد« أقام بالمدرسة النظامية سنين عديدة »(٣١) ٠

« وقـدّم الشيخ بهاء الدين أبو طالب سعد بن اليزيدي (ت ٦٣٧ هـ/١٢٣٩ م) الى بغداد شاباً وسكن المدرسة النظامية »(٣٢) ٠

ويذكر ستانلي لين بول

« أن المدرسة الناصرية التي بناها صلاح الدين الأيوبي بمصر كانت تشمل مساكن للطلاب والمدرسين »(٣٣) ٠

بعد هذا العرض للوائح والتعليمات الخاصة بالسكن في مباني المدرسة ، نرى ما هدفت اليه من توفير الهدوء والراحة والخدمات للطلبة والمدرسين ، والى تطبيقات سلوكية عملية ، من قيام أواصر الودّ والاحترام والتعاون بين الطلبة وزملائهم ، والطلبة ومدرسيهم ، مع الأخلاقيات المترتبة على ساكني المدارس مع الجيران ، والحفاظ على سمعة المدرسة وبالتالي على أسرتها كاملة ٠

ومما لا شك فيه أن « جميع هذه التوجيهات تتفق والسلوك التربوي الجاد ويقصد منها الصالح العام ، لا تناقض شيئاً من تعاليم الاسلام ، وليست قيوداً كما تصورها بعض الباحثين ، لأن التربية الحديثة ليست هي المقياس الأمثل الذي نقيس عليه الأنظمة التربوية الأخرى ، اذ لكل أمة نظمها وتقاليدها التربوية »(٣٤) ٠

وأيضاً يتضح من هذه التوجيهات أن الهدف منها « تدريب وتعليم الطلاب في المدرسة، وموظفيها على المحافظة على الملكية العامة ،واستثمارها الاستثمار الأمثل ، وتكوين حاسة الشعور بالمسؤولية »(٣٥) ٠

تلك هي الصورة الناصعة لأقسام داخلية في مدارس انتشرت في مصر والشام والعراق والمغرب العربي ، وأصبحت مرفقاً من مرافقها الهامة ٠

□ الهـوامش :

١ ـ عبد الغني محمود عبد المعطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، دار المعارف،القاهرة ، ١٩٨٤،ص ٣٠٥ .
٢ ـ علي سالم النباهين : نظام التربية الاسلامية في عصر دولة المماليك في مصر ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨١ ، ص ٣١٦ .
٣ ـ محمد عادل عبد العزيز : التربية الاسلامية في المغرب اصولها المشرقية وتاثيراتها الأندلسية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٧ ، ص ٥٢ .
٤ ـ المرجع نفسه : ص ٥٢ ـ ٥٣ .
٥ ـ عبد الغني محمود عبد المعطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، مرجع سابق ، ص ٣٠٣ .
٦ ـ المقريزي : الخطط ، ج ٢ ، دار صادر ، بيروت ، د٠ت ، ص ٣٧١ .
٧ ـ عبد الغني محمود عبد المعطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، نقلا عن حجة السلطان حسن بن قلاوون مرجع سابق ، ص .
٨ ـ محمد عادل عبد العزيز : التربية الاسلامية في المغرب اصولها المشرقية وتاثيراتها الأندلسية ، مرجع سابق،ص٥٣ .
٩ ـ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة ، تصحيح وتعليق مصطفى جواد ، مطبعة الفرات . بغداد ، ١٣٥ هـ ، ص ٥٩ .
١٠ـ عبد الغني محمود عبد المعطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، مرجع سابق ، (نقلا عن حجة السلطان حسن بن قلاوون ، ٨٨١ اوقاف ، ص ٢٠٦ .
١١ ـ ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ح١ ، مطبعة العاني ، بغداد ، ١٩٦٥ ، ص ٢٨٩ .
١٢ ـ المقريزي : الخطط ، ح٢ ، مرجع سابق ، ص ٣٨٢ .
١٣ ـ ابن جماعة : تذكرة السامع في أدب العالم والمتعلم ، تحقيق محمد هاشم الندوي ، دار المعارف ، حيدر آباد ، ١٣٥٤ هـ ، ص ٢٢٣ .
١٤ ـ المكان نفسه .
١٥ ـ المرجع نفسه ، ص ٢٣٠ .
١٦ ـ المرجع نفسه أيضا ، ص ٢٣١
١٧ ـ المكان نفسه .
١٨ ـ المرجع نفسه والمكان نفسه .
١٩ ـ المرجع نفسه ، ص ٢٣٧ .
٢٠ ـ المرجع نفسه ، ص ٢٣١ .
٢١ ـ المرجع نفسه ، ص ٢٣٧
٢٢ ـ المرجع نفسه ، ص ٢٢٩ . ٢٣ ـ المرجع نفسه ، ص ٢٢٣ ـ ٢٣٤ .
٢٤ ـ عبد الغني محمود عبد المعطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، مرجع سابق ، ص.٣٠٣ .
٢٥ ـ المرجع نفسه ، ص ٣٠٣ .
٢٦ ـ ابن جماعة : تذكرة السامع في أدب العالم والمتعلم ، مرجع سابق ، ص ٢٥٥ .
٢٧ ـ ابن الحاج العبدري : المدخل ، (٤ أجزاء) ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، ص ٢١٣ ، ٢١٧ .
٢٨ ـ عبد الغني محمود عبد المعطي : التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ، مرجع سابق ، ص ٣٠٥ .
٢٩ ـ المرجع نفسه .
٣٠ ـ تعليق محمد هاشم الندوي في مقدمة كتاب تذكرة السامع في أدب العالم والمتعلم لابن جماعة ، ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ .
٣١ ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ح١ ، دار المامون بمصر ، د٠ت ، ص ١٢١ .
٣٢ ـ ابن الفوطي : الحوادث الجامعة ، مرجع سابق ، ص ١٣٤ .
٣٣ ـ أحمد شلبي : التربية الاسلامية ، النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ٣٢٣ .
٣٤ ـ علي سالم النباهين : نظام التربية الاسلامية في عصر دولة المماليك في مصر ، مرجع سابق ، ص ٣١٩ .
٣٥ ـ المرجع نفسه : ص ٣٢٠ .

أدب

المفاخرة بين المدن

د. مصطفى العلواني

المفاخرة بين المدن هي ضرب من الأدب الوصفي الرفيع الذي يقوم على المفاضلة بين مدينتين أو أكثر ابتكره العرب في الأندلس وانفردوا فيه .

ويكاد يكون وقفاً على لسان الدين بن الخطيب وان كان قد ظهرت من قبل كتابات من هذا القبيل في فضل الأندلس للشقندي (المقري - نفح الطيب - رسالة الشقندي - ج٤ ص١٧٧) . غير أن رسالة الشقندي كانت رسالة بفضل بعض مدن الأندلس في حين أن رسالة لسان الدين بن الخطيب أكثر تحديداً وأشد تخصصاً وامتازت بالمقارنة وقامت على أصول علمية وفنية وكتبت بأسلوب أدبي رفيع ومسجوع . لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦ هـ) المقابل (١٣١٣ - ١٣٧٤ م) وزر لملوك بني الأحمر في غرناطة ووصف بالدهاء والعبقرية وكان شخصية فذة ، وهو فضلاً عن أنه أديب مبدع وشاعر ذائع الصيت اشتهر بأنه ذو ثقافة موسوعية في ميادين العلم والسياسة .

رافق ابن الخطيب سلطانه أبا الحجاج يوسف بن نصر الأول في رحلاته التفتيشية بمقاطعة غرناطة عام ٧٤٨ هـ وزار بلاد المغرب الأقصى سفيراً لغرناطة عام ٧٤٩ و ٧٥٥ هـ ثم التجأ اليها مرة ثالثة عندما نفي سلطانه المخلوع محمد بن يوسف بن نصر عام ٧٦٠ هـ ثم عاد الى مقر حكمه مرة أخرى بعد عودة سلطانه بمساعدة ملك قشتالة وسلطان بني مرين . كان ابن الخطيب كثير التجوال وله ولع بمشاهدة الآثار ولقاء العلماء والصالحين . وقد سجل ابن الخطيب كل ما رأته عيناه وسمعته أذناه في جميع هذه الرحلات فأعطاه بذلك مادة خصبة يرجع اليها في كل ما نعرفه عن حضارة العرب في الأندلس في تلك الفترة .

وقد جمع الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي رسائله في كتاب دعاه باسم (مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس) وهي أربع رسائل كتبها ابن الخطيب في هذا المضمار وهي حسب الترتيب الزمني :

١ ــ خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف ٠

٢ ــ مفاخرة مالقــة وســلا ٠

٣ ــ معيار الاختيار في ذكر المعاهــد والآثار ٠

٤ ــ رحلته التي دونها في كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب ٠

وقد يكون لابن الخطيب في هذا المضمارأكثر من هذه الرسائل الأربع ولا سيما انـك تلمح من خلال قراءتك لهذه الرسائل أنه مولع بهذا النوع من الكتابة محب له كـل الحب بل هو عاشق له مستغرق بعشقه فيه ، بل كأنك تقع على علاقة غرامية بينه وبين هــذا النوع من الكتابة ذات الأسلوب الرفيع المترف الذي يختلف عن أدب الرحلات ويفترق عن موضوع الرسائل بهذا السر المنبعث من خلال السطور المتوهجة والنسج البياني الذي يروع ويسحر بـل ما تشيعه أسماء الأماكن مــن ســرور في النفس وبهجـة في القلب ومتعـة في الخيـال وموسيقى في الشعور وما هذه النشوة المنبعثة عن الوصف الجمالي حتى كأننـا نحسبها ضرباً من أضرب الخيال ، انه الرونق الصادر عــن تآلف جوانب مجتمعة ٠

وهــذا النوع مــن الكتابة الذي يشعرك بذلك هو نوع من البيان الفريد اتسمت بـه الكتابات الأندلسية على درجة مــن التفاوت والتـألق ٠

يبدأ ابن الخطيب مفاضلته أو ما أحب أن أدعوه بأدب المفاضلة بين المدن بالاجابة عن سؤال يتعلق بالمفاضلة بين مدينة مالقة وسلا ٠

ومالقة مدينة وولاية تقــع على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوبي شرقي الأندلس، وفي أيام ابن الخطيب كانت مالقة تعد العاصمة الثانية بعد غرناطة في مملكة بني الأحمر ٠

أما سلا فمدينة رومانية قديمة على ساحل المحيط الأطلنطي بأقصى المغرب ويفصلها عن مدينة الرباط جنوباً نهر « أبو الرقراق » وقــد أقام بهــا ابن الخطيب عندما نفي مــع سلطانه محمد الخامس عام ١٣٦٠ م ، وظـل بهـا حتى عام ١٣٦٢ حينما عاد مــع سلطانه المذكور بفضل مساعدة ملك قشتالة وسلطان بني مرين ٠

وهو قبل الاجابة يشكر السائل على الثقة به والرضى بحكمه ولا سيما ان ابن الخطيب قد سكن هذين البلدين فهو يصدر في حكمه عن معرفة وفي رأيه عن بصر ومشاهدة ٠

ومــن الملاحظ أن ابن الخطيب يقرر قاعــدة علمية قبل المقارنة حتى تكون المقــارنة سليمــة والمفاضلة مقبولة فيقــول (على أن التفضيل يقع بين ما تشابه وتقارب أو تشاكل وتناسب والا فمتى يقع التفضيل بــين الناس والنسناس، والملك والخناس، وقرد الجبال وظبي الكنــاس ؟) ٠

وكأنه يقول لا تجوز المقارنة بين هاتين المدينتين لانتفاء توافر الحدود الدنيا في المقارنة وهذه قاعدة من قواعد منهج المقارنة في العصر الحــديث ٠

وهذا مما يشير الى أن ابن الخطيب قدأدرك بحسه العلمي قواعد المقارنة السليمة حين أورد النص السابق أعلاه . على أن ابن الخطيب رغم معرفته بذلك الا أنه يمضي بها لأنها سؤال رجل وجيه أو ربما يكون رجلاً ذاشأن أو السلطاننفسه ممن لا يستطيعلسؤالهم رداً ولا لطلبهم جحداً .

نعمانه رغمايمانه بأنه لا مجال للمقارنةولا مسوغ لها من الوجهة العلمية يشرع بها ، لأن الطلب على ما يبدو هو من الطلبات التيينبغي الرد عليها وذلك من قبيل السياسة وحسن التدبير رغم مخالفته للأصول العلميةحيث يقول (مالقة أرفع قدراً وأشهر ذكراً وأجل شاناً وأعز مكاناً وأكرم ناساً وأبعدالتماساً من أن تفاخر أو تطاول أو تعارض أو تصاول أو تراجع أو تناول ، ولكني سأنتهيالى غرضك وأبين رفع مفترضك وأباين بين جوهرك وعرضك) .

وقبلالشروع بالمقارنة بيّن ابن الخطيبالأوجه المتعارف عليها التي تشكل موضوع المقارنة والمفاضلة ، للمدن وهي المنعة ـ الصنعة ـ والبقعة ـ والشنعة (الشهرة) والساكن والحضارة ، والعمارة والاثارةوالنضارة .

ثم يأخذ بالمقارنة ويبين أن مالقة أمنعمن سلا لكثرة أوجه المنعة التي تتصف بها ... فأسوار مالقة مضاعفة في حين أن لسلا سوراًحقيراً وقصبتها بالبلد متصلة ومن دعوى الحصانة منتصلة ، ومن ثم يقول (ومنذسقطتدعوى المنعة فلنرجع الى قسم الصنعة، فبمالقة صنائع نفيسة ومتعددة في حين أنه لا توجد فيسلا صنائع يقصد اليها أو يعول عليها) .

(ومالقة فوقهذا وذاك تتصف بالاعتدالوالتربة المخصبة ... في حين أن سلا بلد الرمال ومزعج الجمال ، وهذا من باب فضل الصنعة ، أما اذا ألمنا بذكر الشنعة فمالقة مشهورة بين العرب والفرنجة ... ولا تتمتعسلا بهذه) .

وتشير الشواهد المختارة الى ارتفاع مالقةفي معارج الحضارة فيقول ابن الخطيب :

(ولنقل في الحضارة بمقتضى الشواهدالمختارة، ولا كالحليوالطيبوالحلل الديباجية والجلابيب والبساتين ذات المرأى العجيبوالقصور المبتناة بسفوح الجبال والجنات الوارفة الظلال والبرك الناطقة بالعذب الزلالوالملابس المختالة في أفنان الجمال ...) .

(فأما سلا فأحوال رقيقة وثياب في غالبالأمر خليعة وذمم منحطة ، ونفقات تحصرها من التقتير خطة ...) .

وأما العمارة فلمالقة القدح المعلّى ويقصد بالعمارة في هذا المجال العمران المادي والعمران البشري فالبناء كثير ومنتظم والناسكثيرون تغص بهم السكك والأرباض وأسواقها بالدكاكين متراصة وهو يقسم بأن ربضاً منأرباضها أعمر من مدينة سلا وسلا لا تأكل الا من غلالة جالب لا من فلاحة كاسب ومالقة مجتزئة بنفسها في الغالب .

والآن انظر الى وجه من وجوه المفاضلةينبع من الذوق ويصدر عن شاعرية رقيقة وأناقة مترفة ألا وهو النضارة فها هو ذا يقول(وأما النضارة فمن ادعى أنه ليس في الأرض

مدينة أنضر منها جناباً ولا أغزر منها غروساً وأرج أزهاراً ولا أضوأ نهاراً لم تكذب دعواه، ولا أزرى به هواه ، انما هي كلها روض وجابية وحوض وبساتين قد رقمتها الأنهار وترنمت بها الأطيار) .

وسلا بلد عديم الظلال أجرد التلال اذا ذهب زمن الربيع والخصب المريع صار هشيماً وأضحى ماؤه حميماً وانقلب الفصل عذاباً أليماً) .

وينتقل بعد ذلك الى الساكن والمساكن فمالقة ذات قصور بيض وملك طويل عريض وما أدراك ما بها من جنة دانية القطوف ظاهرة المزية والشفوف ، الى غيرها مما يشذ عن الحصر الى هذا العصر) .

(وأما الساكن بمالقة بين راهن قيد الحياة ومنتقل من جناتها الى روضات الجنات فاكبر به أن يفاضل أو يجادل فيه أو يناضل) .

أما مساكن سلا فهن قليل ورجالها ليس بالكثير وذيوع الصيت مثل رجال مالقة الذين أشادت بهم الكتب وشهدت عليها التآليف والتصانيف .

وبعد أن ينتهي لسان الدين بن الخطيب من ذكر وجوه المفاضلة يشير الى حكمه العادل واتصافه بالانصاف فيقول (فأنا يعلم الله قد عدلت لما حكمت ، ورفعت لما ألمت، وسكت عن كثير وجليس فضل أثير اذ لم تحوج اليه ضرورة الفخر ولا داعية القهر) .

ثم يرسل لمسة أخيرة كأنما يريد الاعتذار لمدينة سلا عما أبداه مضطراً وقد دعاه الى ذلك العدالة والانصاف فيقول (ولسلا الفضل لكن على أمثالها ونظرائها من بلاد المغرب وأشكالها اذ لا ينكر فضل اعتدالها وأمنها من الفتن وأهوالها عند زلزالها ومدفن الملوك الكرام بجبالها) .

وهو اذ يعتذر اعتذاراً خفيفاً يومىء الى الحيف الذي لحقها من المقارنة لأنه من الظلم أن تجري المقارنة بين مدينتين غير متماثلتين أومتناظرتين ولكن سلا تفوق نظيراتها من دول المغرب فهي معتدلة آمنة من الفتن كما انها مصب الأمطار ومرعى القطار .

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور العبادي كان مصيباً تمام الاصابة وموفقاً غاية التوفيق في وضع رسائل ابن الخطيب الأربع بين دفتي كتاب لاختصاصها في وصف المدن وذكر محاسنها ومساوئها الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية .

فالرسالة الأولى خصصت لمدن مملكة غرناطة أما الرسالة الثانية فهي رسالة مفاضلة بين مالقة وسلا في حين تقع الرسالة الثالثة في مجلسين يختص الأول بوصف بعض مدن الأندلس في حين يختص المجلس الثاني بوصف مدن مراكش ولا سيما المدن الغربية أو المقابلة للبر الغربي من الأندلس أمثال سبتة وغيرها . أما الرسالة الرابعة فهي مأخوذة عن كتاب نفاضة الجراب في علالة الاغتراب وهي بالأحرى فصل من فصول هذا الكتاب المذكور أي الفصل المختص بجبل هنتاته (هنتاته اسم يطلق على جبل من جبال الأطلسي) .

وقد رأيت تعميماً للفائدة واستكمالاً للصورة أن أقف على ما يلقي بعض الأضواء على أعماله الرفيعة في هذا الصدد وبخاصة (معيار الاختيار في ذكر بعض المعاهد والديار) ٠

وأشير أيضاً اشارة سريعة الى المعالم البارزة في رسالته الأخيرة :

ومن الواضح أنه في رسالته الثالثة (كتاب معيار الاختيار) يضع بعض الأسس ويتخذها معياراً للتحدث عن الديار والمعاهد وأغلب الظن أن عنوان الرسالة قد لحقه تصحيف في كلمة اختيار اذ ان هذه الكلمة صحفت الى الاختبار وتلك ملحوظة قد وردت واضحة في النص حيث يقول (وقد يتخذ الانسان مدينته اما جزافاً أو اتفاقاً أو عن اختيار وتحكيم معيار) ٠

ويشير في بداية رسالته هذه الى افتقار الانسان الى أخيه الانسان ، فالانسان لا يستطيع القيام بجميع حوائجه لذلك لا بد من اجتماعه وائتلافه وهذا يكون باتخاذ مدينة يختزن بها أقواته ويحاول فيها معاشه ٠

وقد يتخذ الانسان مدينته اما جزافاً أو اتفاقاً أو عن اختيار أو تحكيم معيار وتأسيس حكيم وتفويض للعقل عن طريق ذكر البلدان وذكر القاصي والداني ومزايا الأماكن وخصائص المنازل والمساكن والمقابح والمحاسن والطيب والآسن ولكن الانسان قد يختار اذا كانت المحاسن تزيد على المساوىء اذ وجود الكمال فاضح للآمال ولله در القائل :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها — كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

ويمضي بالمجلس الأول من هذه الرسالة بذكر بعض مدن الأندلس وبيان مساوئها ومحاسنها ، وعلى سبيل المثال فيقول في مدينة برشانة (فبرشانة حصن مانع ، وجناب يانع أهلها أولو عداوة لأخلاق البداوة ، وعلى وجوههم نضرة وفي أيديهم نداوة ، يداوون بالسلافة علل الجلافة ويؤثرون علل التخلف على لذة الخلافة فأصبح ربعهم ظرفاً قد ملىء ظرفاً ٠ وللمجون بها بسوق وللفسوق ألف سوق تشمر به الأذيال عن سوق ٠ وهي تبين بعض بيان عن أعيان ، وعلى وجوه نسوانها طلاقة وفي ألسنتهن ذلاقة ولهن بالسفارة عن الفقراء علاقة ٠ الا أن جفنها ليس بذي سور يقيه مما يتقيه ، ووغدها يتكلم بملء فيه ، وحليمها يشقى بالسفيه ، ومحياها تكمن حية الجور فيه) ٠

أما في المجلس الثاني فيتكلم على مدن مراكش فها هو ذا يقول عن مدينة فاس (رعى الله قطراً ينبت الغنى ظل على الدين ممدود وآفاقه نعم العرين لأسود بني مدين ٠٠٠ بلد نكاح وأكل ، وضرب وركل ، وامتياز من النساء بحسن زي وشكل ، يتنبه بها الباه وتتل الجباه ٠٠٠) ٠

وأما مدينة (الملك) أي فاس فبيضاء كالصباح أفق للغرر الصباح يحتقر لايوانها ايوان كسرى وترجع العين حسرى ٠٠٠ الى الناعورة التي مثلت من الفلك الدوار مثالاً ، وأوحى الماء الى كل سماء منها أمرها فابدت امتثالاً ومجت العذب البرود سلسالاً والفت أكوابها الترفه والترف فاذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى :

وقوراء مـن قوس الغمام ابتغوا لها — مثالا أداروها عليه بلا شك
فبين الثريا والثرى سد جرمها — وللفلك الدوار قد أصبحت تحكي
تصوغ لجين الماء في الروض دائما — دراهم نور قد خلصن من السبك
وترسل من شهبانها ذا ذؤابة — فتنتفي استراق السمع من حوزة الملك
تذكرت العهد الذي اخترعت به — وحنت فما تنفك ساجعة تبكي

أما رسالته الأخيرة نفاضة الجراب في علالة الاغتراب فهي أيضاً وصف للمدن التي زارها من خلال رحلته للمغرب ولكنه وصف مبسط فيه بعض التفصيل ويمتاز بوقفته على أهم رجال المدينة سواء الأحياء أم الأموات أم الغرباء الذين قبروا في ترابها الطاهر ٠

فها هو ذا يقول في أغمات (ثم أتينا أغمات في بسيط سهل موطأ لا نشز فيه ، ينال جميعه السقي الرغد وتركبه الخلجان وقد تموج به العشب٠٠٠ هذه المدينة قد اختطت في الفضاء الأفيح فبلغت الغاية من رحب الساحة وانقسام القورة ٠٠٠ ومسجدها المذكور عتيق عادي كبير الساحة ومئذنته لا نظير لها في معمور الأرض ٠٠٠ وأهل هذه البلدة ينسب اليهم نوك وغفلة٠ علتها أن صدقت الأخبار سلامة وسذاجة فتعمر بلحهم الأسمار وتتجمل بنوادر حكايتهم الأخبار ٠ فمنها أن ملك المغرب لما عجب من هذه المئذنة استأذنوه في نقلها الى بلده على سبيل الهدية ٠٠٠) ٠

ثم يتابع الى أن يقول (وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد أمير حمص (اشبيلية) وقرطبة والجزيرة وماالى ذلك الصقع الغربي ، رحمه الله ، وهو بالمقبرة القبلية عن يسار الخارج من البلد ، قد توقل نشزا غير سام والى جانبه قبر الحرة حظيته وسكن نفسه اعتماد اشراكا لاسمها في حروف لقبه المنسوبة الى رميك مولاها المتولعة بشأنه معها أخبار القصاص وحكايات الأسمار الى أجداث من ولدهما فترحمنا عليه وأنشدته :

قد زرت قبرك عن طوع باغمات — رأيت ذلك من أولى المهمات
لمَ لا أزورك يا أندى الملوك يداً — ويا سراج الليالي المدلهمات
أناف قبرك في هضب يميزه — فتنحيه حَفيَّات التحيات
كرمت حياً وميتاً واشتهرت علا — فانت سلطان أحياء وأموات

تلك صفحات من الأدب الفريد المبتكر الذي نهض وآتى أكله على يد أحد كبار الأدباء والشعراء والعلماء والسياسيين وهو لسان الدين بن الخطيب وهذا غيض من فيض مما حفلت به الأندلس ٠

ذلك الأدب الذي نقرؤه بمزيد من النشوة والمتعة أحياناً وبمزيد من الفخر والاعتزاز أحياناً أخرى وعندما نرتد الى أنفسنا أو نتأمل تاريخ هؤلاء القوم تنفجر فينا اللوعة والحسرة والخزي على حضارة شامخة سادت وأدب رفيع تألق وعلم تدفق ومجتمع ليس له مثيل لكن ذلك كله ما لبث أن خبا وانقضى وأصبح خبراً من أخبار التاريخ وكأنا بالتاريخ يقول هؤلاء الناس أعطوا الأمانة فلم يكونوا أهلاً لها وحملوا المسؤولية فأضاعوها بسبب الأنانية والأهواء والتشرذم ٠

عمرو بن معدي كرب الزبيدي *

سكينة الشهابي

المقدّمة

شاعر من الفرسان الأبطال في التاريخ العربي ، أولئك الذين امتزجت في أخبارهم الحقيقة بالخيال ، والشجاعة بالأسطورة الخارقة ، مثله في ذلك مثل عنترة شاعراً فارساً ، ومثل البطّال مجاهداً غازياً •

ومع ان الروايات تكاد تكون متواترة في انعمرو بن معدي كرب جاء رسول الله ﷺ ، وروى عنه حديث التلبية ، وأنه كان محبباً الى قلب عمر ـ رضي الله عنه ـ يحب مجالسته ، ويصغي الى ما يرويه من أخبار شجاعته ، وذكره في معركة القادسية مجمععليه ـ فقد أبلى في هذه المعركة وغيرها بلاء حسنا ـ الا أنه مما لا يختلف فيه المؤرخون أيضاً أن هذا الشاعر كان رقيق الاسلام ، وأنه ارتد مع من ارتد بعد وفاة النبي ﷺ ولكنه لم يلبث أن عاد الىالاسلام ، وشارك في معارك المسلمين الكبيرة •

وكانني بالمتتبع لأخباره كلها سيجد مزيجاً متناقضاً من الأضداد فيما يروي عن نفسه ، وما يروى عنه ؛ فقد امتدت حياته بين الجاهلية والاسلام ، ولانعرف عن حياته في العصر الجاهلي الا ما يرويه عن نفسه ؛ واذا تذكرنا أنه كان معروفاً بالكذبأيقنا أن خيط الصدق في هذا النسيج الذي يقدمه الشاعر عن نفسه سيكون ضئيلاً يحتاج مستخلصه الى تنبه وحذر شديدين •

جمع الحافظ الكبير ابن عساكر في تاريخه منأخبار عمرو بن معدي كرب ما لم يجمع غيره ، ولم أعثر على كتاب حكى عن هذا الشاعر ما يمكن أنيقارب ما حكاه عنه الحافظ • بل اننا في بحثنا عن مصادر ترجمته لا يهدينا البحث الا الى نتف مبعثرةفي زوايا الكتب ، وأكثر أشعاره وأخباره نجده في الكتب التي خصها مؤلفوها بغرائب الأخبار والأشعار •

فالى الباحث الكريم أقدم هذه المجموعة الغريبة العجيبة من الأخبار ، والمختارات الرائعة من الأشعار ، وسيجد فيها صورة للشاعر خَلْقية وخُلُقية متكاملة أهم ما يبدو فيها تجاوز الحد في كل شيء ، والتناقض في كثير من الأحيان •

* هذه الترجمة ماخوذة من مخطوطة تاريخ مدينة دمشق لابنعساكر،وقد رمزت لنسخة الأزهر ب «ز» ، ولنسخة أحمد الثالث ب « د » ، ولنسخة سليمان باشا العظم ب « س » •

عمرو بن مَعْدي كَرِب بن عبدالله بن عمرو بن عُصْم بن عمرو بن زُبَيْد بن ربيعة بن سَلَمة بن مازن بن ربيعة بن مُنَبِّه ـ وهو زُبَيد الأكبر ـ بن صعب بن سعد العشيرة بن مالك بن أدَد بن زيد بن يَشجُب بن عَريب بن زيد بن كَهلان بن سَبَأ بن يَشجُب بن يَعْرُب بن قحطان ، أبو ثور الزُبيدي(١) له وفادة على رسول الله (ﷺ)، وكان شجاعاً من فرسان العرب المذكورين ٠

روى عن رسول الله (ﷺ) حديثاً ٠

روى عنه شَراحيل بن القَعقاع ٠ وشهد اليرموك ٠

أخبرنا أبو الفضل محمد بن اسماعيل ، أنا أبو القاسم أحمد بن محمد بن محمد الخليلي ، أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمدبن محمد بن الحسن ، نا أبو سعيد الهيثم بن كليب، نا حنبل بن اسحاق بن حنبل، نا محمدبن زياد الكوفي ، نا شَرَقيّ بن القُطامي ، عن أبي الطَّلق العائذي ، عن شَراحيل بنالقَعْقاع قال : قال عمرو بن مَعْدي كَرِب(٢) :

الحمد لله ، لقد كنّا من قريب اذا حججنا قلنا : لبَّيك اللهم ٠

لبَّيْك تعظيماً اليك عُذرا هذي زبَيد قد أتتكَ قَسْرا
يَقْطَعْن خَبتاً(٣) وجبالاً وُعرا قد تركوا الأنداد خلْواً صِفرا
يَقْطَعنَ من بين غضاً وسمرا(٤)

ونحن اليوم نقول كما علَّمنا رسول الله (ﷺ) :

« لبَّيك لبَّيك ، لا شريك لك لبَّيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك » وان كنّا لنمنع الناس أن يقفوا بعَرفة ،وذاك في الجاهلية ، فأمرنا رسول الله (ﷺ) : أن خلّوا بينهم وبين عَرَفة، وان كان موقفهم ببطن مُحَسِّر(٥) عشية عرفة فرقاً من أن تخطّفنا الجن ، فقال لنا رسول الله (ﷺ) :أجيزوا بطن عُرَنة(٦)؛ فانما هم اذا أسلموا اخوانكم » ٠

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو الحسين بن النقور ، أنا عيسى بن علي ، أنا عبدالله بن محمد البغوي ، حدثني ابن زنجوية ، وابراهيم(٧) بن هانىء ، وأحمد بن منصور قالوا : نا محمد بن زياد بن زيَّان(٨) الكلبي ، نا شرقيّ بن قُطامي ، عن أبي طلق العائذيّ ، عن شَراحيل بنالقعقاع قال : قال عمرو بن مَعْدي كَرِب : ـ وقال ابن زنجوية : سمعت عمراً يقول ـ :

الحمد لله ؛ قد(٩) كنا منذ قريب اذا حججنا قلنا : لَبَّيْك :

لبَّيْك تعظيماً اليك عُذْرا هذي زُبيد قد أتتك قَسرا
تعدو بها مضمَّرات شزرا(١٠) يقطعن خَبتاً وجبالاً وُعْرا
قد تركوا الأنداد خلواً صِفرا يَقطعن من بَين غضاً وسفراً(١١)

ونحن اليوم نقول كما علّمنا رسول الله (ﷺ) : « لبّيك اللهم لبّيك ، لبّيك لا شريك لك لبّيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » . قال : وكنّا نمنع الناس أن يقفوا بعَرَفة، وذلك في الجاهلية، وأمرنا رسول الله (ﷺ) أن نخلّي بينهم وبين عرفة، وكان موقفهم ببطن مُحَسِّر عشية عرفة فَرَقاً من أن تتخطّفنا الجنّ ، فقال رسول الله (ﷺ) : « أجيزوا بطن عُرنة ؛ فانما هم اذا أسلموا اخوانُكم » .

واللفظ لابن هانيء .

كذا فيه ، والصواب : ابن زبّار(١٢) .

أخبرناه أبو القاسم علي بن ابراهيم ، وأبو الحسن علي بن محمد قالا : نا — وأبو منصور المقرىء : أنا — أبو بكر الخطيب(١٣)،أنا محمد بن عبدالله بنشهريار، أنا سليمان ابن أحمد الطبراني ، نا أحمد بن محمد بنعباد الجوهري البغدادي ، نا محمد بن زياد ابن زبّار الكلبي ، نا شَرَقي بن القُطامي قال : سمعت أبا طلق العائذي يحدث عن شراحيل بن القعقاع ، عن عمرو بن مَعديكَرِب(١٤) قال :

لقد رأيتنا من قرب ونحن اذا حججنا قلنا :

لبّيك تعظيما اليك عُذرا — هذي زُبيد قد أتتك قسْرا

يقطعن خَبْتا وجبالا وَعْرا — قد خلّفوا الأنداد خِلوا صِفرا

ولقد رأيتنا وقوفاً(١٥) ببطن مُحَسِّر نخاف أن تتخطفنا الجن ، فقال رسول الله (ﷺ) : « ارتفعوا عن بطن عُرَنة ؛ فانهم (١٦) اخوانكم اذ أسلموا » ، وعلّمنا التّلبية : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك(١٧) ، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك » .

قال سليمان : لم يروه عن شَرَقي الا محمد بن زياد .

أخبرنا أبو القاسم علي بن ابراهيم ، وأبو الحسن علي بن أحمد قالا : نا أبو منصور بن خيرون ، أنا(١٨) أبو بكر الخطيب(١٩)، أنا أبو عبدالله أحمد(٢٠) بن عبدالله بن الحسين المحاملي قال : وجدت في كتاب جدّيالحسين بن اسماعيل القاضي بخط يده : نا زهير بن محمد بن أبي(٢١) زهير المروزي، نا محمد بن زيد الكلبي — كذا قال لنا زهير — نا شَرَقي بن قُطامي .

ح وأنا محمد بن عبدالله بن شهريار ، نا سليمان بن أحمد الطبراني ، أنا أحمد بن محمد بن عباد الجوهري البغدادي ، نا محمد بن زياد بن زبّار الكلبي ، نا شرقي بن القُطامي عن أبي طلق العائذي ، عن شَراحيل بنالقعقاع قال: سمعت عمرو بن مَعدي كَرِب يقول : علمنا(٢٢) رسول الله (ﷺ) : « لبّيك اللهم لبّيك ، لبّيك لا شريك لك لبّيك(٢٣) ، ان الحمد والنعمة لك والملك ،لا شريك لك » .

لفظ حديث المحاملي .

قال الخطيب :

لا نعلم(٢٤) روى هذا الحديث عن شرقي غير محمد بن زياد بن زبَّار .

رواه غيرهم عن محمد بن زياد ، فقال : عن أبي طوق(٢٥) .

أخبرنا أبو الفتح يوسف بن عبدالواحد، أنا شجاع بن علي ، أنا أبو عبدالله بن منده، أنا أحمد بن محمد بن ابراهيم ، أنا أبو أميةمحمد بن ابراهيم، نا محمد بن زياد بن زبَّار الكلبي ، نا شرقي بن قطامي ، عن أبي طوق العائذي ، عن شراحيل بن القعقاع قال :

قال عمرو بن معدي كَرِب : الحمد لله ؛ لقد كنا منذ قريب حججنا ، فلبَّينا ، قلنا : لا شريك هو لك . فاليوم نقول :« لبَّيك اللهم لبَّيك ، لا شريك لك » .

قال ابن منده :

هكذا رواه جماعة عن محمد بن زياد .

ورواه أحمد بن محمد بن الصلت البغدادي عن محمد بن زياد ، عن شَرَقي بن قُطامي ، عن أبي الزبير ، عن جابر قال : سمعت عمرو بن مَعدي كرب يقول : ـ ثم ذكر الحديث .

قال ابن مَنْده :

أتاه أحمد بن ابراهيم بن نافع ، نا أحمد بن محمد بن الصَّلت بهذا .

وشرقي بن القطامي(٢٦) يكنى أبا المثنى، واسمه الوليد بن حصين .

أنا أبو محمد عبدالكريم بن حمزة ، نا أبو بكر الخطيب .

ح وأخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي، أنا أبو بكر بن الطبري .

قالا : أنا محمد بن الحسين ، أنا عبدالله بن جعفر ، نا يعقوب بن سفيان(٢٧) ، نا اسماعيل بن أبي أويس ، حدثني أبي ، عنعمرو بن شمر ، عن أبي طوق(٢٨) ، عن شُرحبيل(٢٩) بن القعقاع ، أنه سمع عمروبن مَعْدي كَرب يقول :

نحن اليوم نقول كما علَّمنا رسول الله (ﷺ) ، قال : فقلت له : يا أبا ثور ، وكيف علمكم رسول الله (ﷺ) ؟ قال : علَّمنا : « لبيك(٣٠ اللهم لبيك ٣٠) ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك ،لا شريك لك » .

وهكذا رواه محمد بن سعد كاتب الواقدي عن ابن أبي أويس ، وقال : عن أبي طوق . ورواه علي بن المبارك الصنعاني(٣١)،عن ابن أبي أويس ، عن أبيه ، عن عمرو ، عن أبي طوق .

أخبرنا أبو الفتح يوسف بن عبدالواحد، أنا شجاع بن علي ، أنا أبو عبد(٣٢)الله بن منده ، انا عبد(٣٣)الله بن جعفر البغدادي ـ بمصر ـ نا عبدالله بن محمد البُرْدي ، قال اسماعيل بن أبي أويس ، عن أبيه ، عن عمرو بن شمر ، عن شُرحبيل بن القعقاع أنه قال :

سمعت عمرو بن معدي كرب ، فقلت له: يا أبا ثور ـ ثم ذكر حديث التلبية ·

قال ابن منده :

رواه يونس بن بكير ، وأشعث بن شعبة عن عمرو بن شمر(٣٤)، عن أبي(٣٥) طوق، عن شرحبيل بن القعقاع قال : سمعت عمرو بن معدي كرب يحدث ـ نحوه ·

كذا قال في الموضعين : عن أبي طوق · والصواب : أبو طلق ، ذكره كذلك أبو أحمد الحاكم(٣٦) ، وسمّاه عديّاً · قال : ويقال :علي بن حنظلة بن نعيم ·

وقد رواه أبو جعفر محمد بن عبدالله بن المبارك المخرمي عن محمد بن زياد بطوله ـ نحو الأول ـ وقال في اسناده : عن أبي طلق ·

ورواه ابن عدي في كتاب « الكامل(٣٧) » عن حذيفة بن الحسن ، عن أبي أمية ، وقال: عن أبي طلق(٣٨) قال :

قرأت على أبي محمد بن حمزة ؛ عن أبي زكريا البخاري ·

ح وأخبرنا أبو القاسم بن السوسي ، أنا أبو اسحاق ابراهيم بن يونس ، أنا أبو زكريا ·

ح وأخبرنا أبو الحسين أحمد بن سلامة بن يحيى ، أنا أبو الفرج الأسفرائيني ، أنا رشأ بن نظيف ·

قالا : نا عبدالغني بن سعيد قال(٣٩) :

وأبو الطلق العائذي عدي بن حنظلة · روى عنه شرقيُّ بن القطامي ·

أخبرنا أبو القاسم بن السَّمرقندي ، أنا أبو علي بن المسلمة ، أنا أبو الحسن الحمامي ، أنا أبو علي بن الصواف ، نا الحسن بن علي القطان ، نا اسماعيل بن عيسى العطار ، نا أبو حذيفة اسحاق بن بشر القرشي قال :

وأمدّهم ـ يعني أبا عبيدة بن الجراح ـ بتسعة عشر رجلاً ممن شهد اليرموك ، منهم : عمرو بن معدي كرب الزبيدي · وذكر غيره ـ يعني يوم القادسية ·

أخبرنا أبو البركات الأنماطي ، أنا أبو طاهر أحمد بن الحسن ، وأبو الفضل بن خيرون قالا : أنا أبو القاسم عبدالملك بن محمد ، أنا أبو علي بن الصواف ، نا محمد ابن عثمان بن أبي شيبة ، نا هاشم بن محمد(٤٠) بن سعيد بن خُثيم الهلالي ، نا الهيثم بن عدي قال : قال ابن عيّاش(٤١) :

عمرو بن معدي كرب ذهبت عينه يوم اليرموك .

أخبرنا أبو البركات أيضاً ، أنا أبو طاهر وأبو الفضل .

ح وأخبرنا أبو العز الكيلي ، أنا أبو طاهر .

قالا : أنا أبو الحسين محمد بن الحسن ، أنا أبو الحسين الأهوازي ، أنا أبو حفص ، نا خليفة قال(٤٢) :

ومن زبَيد ــ وهو منبّه ــ بن ربيعة بنسلمة بن مازن بن ربيعة بن الحارث بن صعب بن(٤٣) سعد العشيرة (٤٤ يعني : ابن مالك بن أدد ٤٤) .

عمرو بن معـدي كرب بن عبدالله بن معديكرب بن عبدالله بن عمرو بن عُصم(٤٥) ابن عمرو بن زبيد ، يكنى أبا ثور . شهد القادسية . روى في التلبية . أمه أسَيلة(٤٦) بنت قيس ، من بني عِجْل .

أخبرنا أبو السعود بن المجلي ، نا أبو الحسين بن المهتـدي .

ح وأخبرنا أبو الحسين بن الفراء ، أناأبي أبو يعلى .

قالا : أنا عبيدالله بن علي بن أحمد ، أنا محمد من مَخْلد قال : قرأت على علي بن عمرو ، حدثكم الهيثم بن [عدي قال :

عمرو بن](٤٧) معدي كرب يكنى أبا ثور .

قرأت على أبي غالب بن البناء ، عن أبي محمد الجوهري(٤٨) ، أنا أبو عمر بن حيويه ، أنا أحمد بن معروف ، نا الحسين بن فهم ، نا محمد بن سعد

قال في الطبقة الرابعة من سعد العشيرة بن مالـك بن ادَد بن زيـد بن يَشجُب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطـان ، ثم من بني زبيـد الصَّغير ــ وهو منبّه ــ بن ربيعة بن سلمة بنمازن بن ربيعة بن منبّه ــ وهو زبيد الأكبر ، وهو جمـاع زبيـد ــ بن صـعب بن سـعدالعشيرة . وانما سمي زبيـد الصغير زبيداً لأنه لمّا كثر عمومته وبنو عمه قال: مَن يزبدرفـده ــ يعني يعطـي رفـده ــ على ابـن أدد(٤٩) ؟ فأجابوه : فسموا كلهـم زبيداً ، ما بين زبيد الأصغر الى زبيد الأكبر ، كلهم يقال لهم : زبيـد :

عمرو بن معدي كرب بن عبدالله بن عمرو بن عُصُم(٥٠) بن عمرو بن زُبيد الأصغر ، وكان عمرو فارس العرب ، ويكنى أبا ثور . وفد الى رسول الله (ﷺ) ، وأسلم .

أنبأنا أبو محمد بن الآبنوسي ، ثم أخبرني أبو الفضل [بن] ناصر عنه ، أنا أبو محمد الجوهري ، أنا أبو الحسين بن المظفر ، أناأبو علي المدائني ، أنا أبو بكر بن البرقيقال:

ومن بني زُبَيد بن سلمة بن مازن بنمنبّه بن صعب بن سعد العَشيرة بن مذحج : عمرو بن معدي كرب بن عبدالله بن عمرو بنعصم بن عمرو بن عَويج بن عمرو بن زُبيد ، جـاء عنه حديث .

أنبأنا أبو الغنائم الكوفي ، ثم حدثنا أبوالفضل بن ناصر ، أنا أحمد بن الحسن ، والمبارك بن عبدالجبار ، ومحمد بن علي ـ واللفظ له ـ قالوا: أنا عبدالوهاب بن محمد ـ زاد أحمد : ومحمد بن الحسن قالا : ـ أنا أحمد بن عبدان ، أنا محمد بن سهل ، أنا محمد بن اسماعيل(٥١) ٠

قال في تسمية الصحابة :

عمرو بن معدي كرب أبو ثور الزبيدي٠ كان بالمدينة ، ثم كان بالعراق زمن القادسية٠

أخبرنا أبو الحسين القاضي(٥٢) ، وأبوعبدالله الأديب اذنا قالا : أنا أبو القاسم بن منده ٠ أنا أبو علي اجازة

ح قال : وأنا أبو طاهر بن سلمة ، أنا علي بن محمد

قالا : أنا أبو محمد بن أبي حاتم قال(٥٣) :

عمرو بن معدي كرب أبو ثور الزبيدي(٥٤) ٠ كان(٥٥) بالعراق زمن القادسية ٠ سمعت أبي يقول ذلك ٠

أخبرنا أبو بكر محمد بن العباس ، أنا أحمد بن منصور بن خلف ، أنا أبو سعيد بن حمدون ، أنا مكي بن عبدان قال : سمعت مسلم بن الحجاج يقول(٥٦) :

أبو ثور عمرو بن معدي كرب الزبيدي٠ سمع النبي (ﷺ) ٠

قرأت على أبي الفضل بن ناصر ، عن جعفر بن يحيى ، أنا أبو نصر الوائلي ، أنا الخصيب بن عبدالله ، أخبرني عبدالكريم بن أبي عبدالرحمن ، أخبرني أبي قال :

أبو ثور عمرو بن معدي كرب الزبيدي٠ كان بالمدينة ، ثم كان بالعراق ٠

أخبرنا أبو الفتح نصرالله بن محمد الفقيه ، [أنا أبو الفتح نصر بن ابراهيم الزاهد](٥٧) ، أنا سليم بن أيوب الفقيه ،أنا طاهر بن محمد بن سليمان ، أنا علي بن ابراهيم الجوزي ، نا يزيد بن محمدقال : سمعت أبا عبدالله المُقَدَّميَّ يقول :

عمرو بن معدي كرب الزبيدي ٠ يكنى أبا ثور ٠

أخبرنا أبو القاسم اسماعيل بن أحمد ، أنا محمد بن أحمد بن محمد ، أنا هبة الله ابن ابراهيم بن عمر ، أنا أحمد بن محمدبن اسماعيل ، نا محمد بن أحمد بن حماد قال(٥٨) :

عمرو بن معدي كرب أبو ثور ٠

أخبرنا أبو القاسم أيضاً ، أنا [أبو](٥٩) الحسين بن النَّقور ، أنا عيسى بن علي، أنا عبدالله بن محمد البغوي قال :

عمرو بن معدي كرب بن عبدالله بن عمرو(٦٠) بن عصم بن زبيـد • سكن الكوفـة ، وروى عن النبي (ﷺ) •

رواه(٦١) ابن بطة عن البغوي فقال : ابن معدي كرب بن عبدالله بن عمرو بن عصم ابن عمرو بن زبيـد •

أنبأنا أبو جعفر محمد بن أبي علي ، أنا أبو بكر الصفـّار ، أنا أحمد بن علي بن منجويه ، أنا محمد بن محمد بن اسحاق قال(٦٢) :

أبو ثور عمرو بن معدي كرب بن عبدالله بن عمرو بن عصم بن عمرو بن زبيد ـ وهو منبـّه ـ بن ربيعة بن سـلمة بن مازن بن ربيعة بن الحارث بن صعب بن سعد العشيرة الزبيـدي • كان بالمدينة ، ثم كان بالعراق زمن القادسية • له سماع من النبي (ﷺ) • وأمه أسيلة(٦٣) بنت قيس ، من بني(٦٤) عجـل •

أخبرنا أبو محمد بن حمزة ، عن أبي زكريا •

[ح](٥٩) وأخبـرنا أبو القاسم بن السـّوسي ، أنا ابراهيم بن يونس بن محمـد ، أنا أبو زكريا •

ح وأخبرنا أبو الحسين بن سلامة ، أنا سهل بن بشـر ، أنا رشـأ بن نظيف قـالا : نا عبدالغني بن سعيد قال(٦٥) :

فأما الزّبيدي ـ بضم الزاي ـ فكثير ، منهم: عمرو بن معدي كرب الزبيدي أبو ثور• روي(٦٦) عنه حديث التلبيـة •

أخبرنا أبو الفتح يوسف بن عبدالواحد، أنا شجاع بن علي ، أنا أبو عبدالله بن منده قـال :

عمرو بن معدي كرب ، أبو ثور الزبيدي • عداده في(٦٧) أهـل الحجاز • روى عنه شَراحيل بن القعقـاع •

أنبأنا أبو علي الحسن بن أحمد المقرىء قال : قال لنا أبو نـُعَيم الحافظ :

عمرو بن معدي كرب بن عبدالله بن عمرو بن زبيد ، أبو ثور الزبيدي • له الوقائع المذكورة في الجاهلية ، وأدركه(٦٨) الاسلام ،فقـدم على النبي (ﷺ) ، وعلـّمه التلبيـة ، وله في الاسلام بالقادسية بلاء حسن حين بعثه عمر الى سعد بن أبي وقاص ، وكتب اليه أن يصدر عن مشورته في الحرب • وكان لعمرو سيف يسميه الصـّمصامة •

قرأت على أبي محمد السلمي ، عن أبي نصر علي بن هبةالله قال(٦٩) :

وأما الزّبيدي ـ بضم الزاي وفتح الباء ـ فجماعة ، منهم : أبو ثور عمرو بن معدي كرب الزبيدي • له صحبة ورواية •

أخبرنا أبو بكر محمد بن عبدالباقي ، أنا أبو محمد الجوهري ، أنا أبو عمر بن حيّويه ، أنا أحمد بن معروف ، أنا الحارث بن أبي أسامة ، نا محمد بن سعد(٧٠) ، أنا محمد بن عمر(٧١) ، حدثني عبدالله بن عمرو بن زهير ، عن محمد بن عمارة بن خزيمة بن ثابت قال :

قدم عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي في عشرة نفر المدينة ، فقال : من(٧٢) سيّد هذه البحرة(٧٣) من بني عمرو بن عامر ؟ فقيل له: سعد بن عبادة ، فأقبل يقود راحلته حتى أناخ ببابه(٧٤) ، فخرج اليه سعد ، فرحَّب به ،وأمر برحله فحُطّ ، وأكرمه ، وحَباه(٧٥) ، ثم راح الى رسول الله (ﷺ)(٧٦ هو ومن معه ، وأقام أياماً ، ثم أجازه رسول الله (ﷺ)(٧٦) بجائزة ، وانصرف الى بلاده ، فأقام مع قومه على الاسلام ، فلمّا توفي رسول الله (ﷺ) ارتدّ ، ثم رجع الى الاسلام ، وأبلى يوم القادسية وغيرها .

قرأت على أبي غالب بن البناء ، عن أبي محمد الجوهري ، أنا أبو عمر بن حيّويه، أنا أحمد بن معروف ، نا الحسين بن الفهم ، نا محمد بن سعد(٧٧) ، أنا محمد بن عمر ، حدثني عبدالله بن عمرو بن زهير ، عن محمد بن عُمارة نحوه ، وزاد في أوله : وكان عمرو قد قال لقيس بن مكشوح المرادي حين انتهى اليهم أمر رسول الله (ﷺ): يا قيس، انك سيد قومك اليوم ؛ وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش يقال له: محمد ، قد خرج بالحجاز، يقول : انه نبيّ ، فانطلق بنا اليه حتى نعلم علمه ؛ فان كان نبياً ــ كما يقول ــ فانه لن يخفى علينا اذ لقيناه ، اتبعناه ، وان كان غير ذلك علمنا علمه ؛ فانه ان يسبق اليه رجل من قومك سادنا ، وترأس علينا ، وكنّاله أذناباً . فأبى عليه قيس ، وسفه رأيه . فركب عمرو بن معدي كرب حتى قدم المدينة ،فقال حين دخلها وهو آخذ بزمام(٧٨) راحلته: من سيّد أهل هذه البحيرة(٧٩) من بني عمرو بن عامر ؟ ــ فذكر الحديث وقال : ــ وأقام عمرو مع زبيد قومه ــ وعليهم فروة بن مُسَيك ــ سامعاً مطيعاً ، فاذا أراد أن يغزو أطاعه . وكان فروة يصيب كل من خالفه . فلما بلغ قيس بن مكشوح خروج عمرو بن معدي كرب أوعد عمراً ، وتحطم(٨٠) عليه[وقال]: خالفني ، وترك رأيي ! وقال في ذلك شعراً .

قال محمد بن عمر : سمعتها من مشيختنا :

أمرتُك يوم ذي صَنعا ء أمراً بادياً رَشَدُه
أمرتُك باتّقاء اللـ ـه والمعروف تأتَفِدُه(٨١)
خرجتَ من المُنى مثل الـ حُمَيِّر عاره(٨٢) وتِدُه

وجعل عمرو بن معدي كرب يقول : قد خبرتك يا قيس بن مكشوح ؛ انك ستكون ذنباً تابعاً لفروة بن مُسَيك . وجعل فروة يطلب قيس بن مكشوح كل الطلب حتى فرَّ من بلاده ؛ فلما توفي رسول الله (ﷺ) ثبت فروة بن مسيك على الاسلام ، يُغير على من خالفه بمن أطاعه . وارتدّ عمرو بن معدي كرب بعد وفاة النبي (ﷺ) ، فقال حين ارتد(٨٣) : [من الوافر] :

وجدنا ملكَ فروة شرَّ مُلْكٍ   حمارٌ ساف منخرَه بقِذْرِ(٨٤)
وكنت اذا رأيت أبا عُمَيرٍ   ترى الحولاء من خبث وغدرِ(٨٥)

وجعل فروة يكالب(٨٦) من ارتد عن الاسلام ويقاتله ٠

أخبرنا أبو البركات الأنماطي ، أنا أبوالفضل بن خيرون ، أنا عبدالملك بن محمد ، أنا محمد بن أحمد بن الحسن ، أنا محمد بنعثمان بن أبي شيبة ، نا المنجاب بن الحارث، أنا ابراهيم بن يوسف ، نا زياد ، عن محمدبن اسحاق قال(٨٧) :

قدم على رسول الله (ﷺ) عمرو بن معدي كرب الزُبيدي في ناس من زبيد ، فأسلم ؛ وقد كان عمرو بن معدي كرب قاللقيس بن مكشوح المرادي حين انتهى اليهم أمر رسول الله (ﷺ) : يا قيس ، انك سيدقومك اليوم ٠ وقد ذكر لنا أن رجلا يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقال : انه نبي ،فانطلق بنا اليه حتى نعلم علمه ، فان كان نبياً كما يقول فانه لن يخفى علينا اذا لقيناهواتبعناه ، وان كان غير ذلك علمنا علمه ٠ فأبى عليه قيس بن مكشوح ذلك ، وسفّهرأيه ٠ فركب عمرو بن معدي كرب حتى قدم على رسول الله (ﷺ) ، وصدّقه ، وآمن به ٠فلما بلغ ذلك قيس بن مكشوح أوعد عمراً ، وتحطّم عليه ، وقال: خالفني، وترك رأيي ٠فقال عمرو في ذلك شعراً(٨٨) :

أمرتك يومَ ذي صنعا ٠٠٠٠ ءِ أمراً بادياً رشَدُهْ
أمرتك باتقاء اللّـ ٠٠٠٠ ـهِ والمعروف تعتقدُهْ(٨٩)
خرجت من المُنى مثل الـ ٠٠٠٠ حُمَيِّر غَرَّهُ وتِدُهْ
تمنّاني على فرس   عليه جالساً أسدُهْ
عليه مفاضةٌ كالنهـ ٠٠٠٠ ـيِ أخلص ماءهُ جَدَدُهْ(٩٠)
تردُّ الرمح منثني السِّـ ٠٠٠٠ ـنان عوائراً قِصَدُهْ(٩١)
فلو لاقيتني لاقيـ ٠٠٠٠ ـت ليثاً فوقه لِبَدُهْ(٩٢)
تلاقي شرساً شثْنَ الـ ٠٠٠٠ ـبراثن ناشزاً كَتَدُهْ(٩٣)
يسامي القرن انْ قِرنٌ   تيمَّمَهُ ، فيعتضدُهْ(٩٤)
فيأخذه ، فيرفعه   فيخفضه ، فيقتصدُهْ(٩٥)
فيدمغه ، فيحطمه   فيقضمه ، فيزدردُهْ(٩٦)
ظلوم الشرك فيما أحـ ٠٠٠٠ ـرَزَتْ أنيابُه ويَدُهْ(٩٧)
متى ما يغدُ أو يغدى   به فقبوله بُرُدُهْ
ويخطر مثل خطر الفحـ ٠٠٠٠ ـل فوق شرابه زبدُهْ
فأمسى يعتريه النقـ ٠٠٠٠ ـب فيه يبتغي بلدهْ(٩٨)
فلا تتمنّني وتمنْـ   ـنَ غيري ليّناً كتدُهْ(٩٩)

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو الحسين بن النَّقور، أنا أبو طاهر المخلص، أنا رضوان بن أحمد ، أنا أحمد بن عبدالجبار ، نا يونس بن بكير ، عن ابن اسحاق قال :

قدم على رسول الله (ﷺ) عمرو بن معدي كرب في ناس من بني زبيد ، فأسلم • وقد كان عمرو قال لقيس بن مكشوح المرادي حين انتهى اليهم أمرُ رسول الله (ﷺ) : يا قيس ، انك سيّد قومك اليوم ، وقد ذكر لنا أن رجلاً من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز ، يقول : انه نبي ، فانطلق بنا اليه حتى نعلم علمه(١٠٠) ، فان كان نبياً ـ كما يقول ـ فلن يخفى علينا ، اذا لقيناه اتبعناه ،وان كان غير ذلك علمنا علمه(١٠٠) • فأبى عليه قيس ذلك ، وسفّه رأيه • فركب عمرو حتى قدم على رسول الله (ﷺ) ، فأسلم ، وصدق ، وآمن به(١٠١) • فلمّا بلغ ذلك قيساً أوعد عمراً ، وتحطّم عليه ، وقال : خالفني ، وترك رأيي • فقال عمرو في ذلك :

أمرتك يوم ذي صنعا ء أمراً باديا رشَدُه

أمرتك باتقاء الله ••• ه ، والمعروف تعتقدُه

خرجتَ من المُنى مثل الـ ••• حُمَيِّر غرَّه وتدُه

تمنّاني على فرس عليه جالسٌ أسدُه

عليه مُفاضة كالنهـ ••• ي أخلص ماءه جددُه

ترد الرمح منثني السّـ ••• نان عوائراً قصدُه

فلو لاقيتني للقيـ ••• ت(١٠٢) ليثاً فوقه لِبَدُه

تلاقي شَنبثاً(١٠٣) شثْن الـ ••• براثن ناشزاً كتدُه

يسامي القرن ان قرنٌ تيمّمه ، فيضطهدُه

رفيقاً بافتراس القر ن يدنيه ، فيقتَصِدُه

فيدمغُه ، فيحطمه فياكله ، فيَزدردُه

ظلوم الشرك فيما احـ ••• رزَت أنيابُه ويَدُه

[برابية له وطبٌ كثيرٌ حوله عودُه

كذا قال : وطب ، وأخطأ • وقال : عوده، وأخطأ ؛ انما هو: وطن•• عدده](١٠٤) •

فاقام عمرو في قومه من زبيد ، وعليهم فروة بن مُسَيك ، فلمّا توفي رسول الله (ﷺ) ارتدّ عمرو بن معدي كرب ، فقال حين ارتد:

وجدنا ملك فروة شرَّ ملك حمارٌ ساف منخَره بقذرِ

وكنت اذا رأيت أبا عُمَير ترى الحوَلاء من خُبث وغدرِ

وقد قيل : ان عمراً لم يأت النبي (ﷺ) ، وقد قال عمرو بن معدي كرب(١٠٥) : [من الخفيف] :

انني بالنبي موقنة نفـ ٠٠٠٠ سي وان لم أرَ النبيء عِيانا
سيّد العالمين طرّاً وأدنا ٠٠٠٠ هم الى الله حين مات(١٠٦) مكانا
جالبا لناموس(١٠٧) من لدن اللـ ٠٠٠٠ ـه ، وكان الأمينَ فيه المعانا
حكمة بعد حكمة وضياء ٠٠٠٠ فاهتدينا بنورها من عَمانا
ورأينا السبيل حين رأينا ٠٠٠٠ ه جديداً(١٠٨) بكرهنا ورضانا
وعبدنا الاله حقّاً وكنّا ٠٠٠٠ للجهالات نعبدُ الأوثانا
وأتلفنا به وكنّا عدوّاً ٠٠٠٠ ورجعنا به معاً اخوانا
فعليه السلامُ والسَّلْم منا ٠٠٠٠ حيث كنا من البلاد وكانا
ان تكن لم نرَ النبيء فانا(١٠٩) ٠٠٠٠ قد تبعنا سبيله ايمانا
وأسينا ألا نكون رأينا ٠٠٠٠ ه، فقد أقرح الصدور أسانا(١١٠)
لو رأيتُ النبيء ما لمت نفسي ٠٠٠٠ فيه بالعون حين كان استعانا
يوم احد ، ولا غزاة(١١١) حنين ٠٠٠٠ يوم ساقت هوازنٌ غطفانا(١١٢)
ويرى أن في زبيد صلاحا ٠٠٠٠ وضرابا من دونه وطعانا
وتراني من دونه لا ابالي ٠٠٠٠ فيه وقع السيوف والمرّانا(١١٣)
لوقيتُ النبيء بالنفس منّي ٠٠٠٠ ولعانقتُ دونه الأقرانا
وليصلي عليَّ حيّاً شهيداً ٠٠٠٠ أو أروّي من النّجيع السّنانا

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو الحسين بن النَّقور ، أنا أبو طاهر ، أنا أبو بكر بن سيف ، أنا السَّريُ بن يحيى،أنا شعيب بن ابراهيم، نا سيف بنعمر(١١٤)، عن المستنير بن يزيد ، عن عروة بن غزيّةوموسى ، عن أبي زُرعة السَّيْباني قال :

ولما فصل المهاجر بن أبي أمية من عند أبي بكر، وكان في آخر من انفصل، اتخذ مكة طريقا ، فمرّ بها ، فاتبعه خالد بن أسيد ،ومرّ بالطائف فاتبعه عبدالرحمن بن أبي العاص(١١٥) ٠ ثم مضى حتى اذا حاذى بجرير بن عبدالله ضمّه اليه ، وانضم اليه عبدالله بن ثور حين حاذى به ، ثم قدم على أهل نجران ، فانضم اليه فروة بن مُسَيك ٠ وفارق عمرو بن معدي كرب قيساً ، وأقبل مستخفياً(١١٦) حتى دخل على المهاجر على غير أمان ، فاوثقه المهاجر ، واوثق قيساً(١١٧) ؛وكتب بحالهما الىأبيبكر، وبعث بهما اليه٠

أخبرنا أبو البركات بن المبارك ، أنا احمد بن الحسن بن خيرون ، أنا عبدالملك بن محمد ، أنا أبو علي بن الصواف ، نا محمدبن عثمان بن أبي شيبة ، نا المنجاب ، أنا خلاد الأحوال ، عن خالد بن سعيد(١١٨ ، عنأبيه قال(١١٩) :

بعث النبي (ﷺ) خالد بن سعيد١١٨) بنالعاص الى اليمن ، وقال له : « إن مررت بقرية ولم تسمع أذانا فاسْبِهم » • قال: فمرّ ببني زبيد ، فلم يسمع أذانا ، فسباهم ، فأتاه عمرو بن معدي كرب ، فكلّمه فيهم ،فوهبهم(١٢٠) له خالد • قال : فوهب له عمرو سيفه الصَّمْصامة ، فلما تسلمه خالد ومضىنظر عمرو بن معديكرب فيقفاه، فقال(١٢١): [من الوافر] •

. . . . على الصَّمْصامة السيف السلام(١٢٢)

بآية لم أخنك ولم تخني ولكن المواهب للكرام(١٢٣)

وكنت اذا نهضت به لقوم تجاوب صوت نوح بالتدام(١٢٤)

قال ابن اسحاق :

فأقام عمرو بن معدي كرب في قومه منزبيد ، وعليهم فروة بن مسيك ، فلما توفي رسول الله (ﷺ) ارتدّ عمرو • فقال عمروحين ارتدّ :

وجدنا ملك فروة شرّ ملكٍ حمارٌ ساف مَنخَره بقذر

وكنت اذا رأيت أبا عُمَير أرى الحولاء من خبث وغدر

أخبرنا أبو علي الحسين بن علي بنأشليها ، وابنه أبو الحسن علي قالا : أنا أبو الفضل بن الفرات ، أنا أبو محمد بن أبينصر، أنا أبو القاسم بن أبي العقب، نا احمد ابن ابراهيم القرشي ، نا محمد بن عائذ قال:سمعت أبا مسهر ، عن محمد بن شعيب ، عن حبيب قال : قال مالك بن عبدالله الخثعمي :

ما رأيت أشرف من رجل رأيته يوم اليرموك ؛ انه خرج اليه علج فقتله ، ثم آخر فقتله(١٢٥ ثم آخر فقتله ١٢٥) ، ثم انهزموا ،وتبعهم ، وتبعته • ثم انصرف الى خباءٍ له سواد(١٢٦) ، فنزل ، فدعا بالجفان ، ودعا منحوله • قلت : من هذا ؟ قال : عمرو بن معدي كرب •

قال : ونا ابن عائذ ، نا عيسى بن يونس بن أبي اسحاق ، عن اسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم قال :

شهدنا فتح القادسية ؛ فكان عمرو بنمعدي كرب الزبيدي يمر على الصفوف فيقول : يا معشر المهاجرين ، كونوا أسدا ، أسد أغنى شانه(١٢٧) ، انما الفارسي تيس بعد أن يلقي نيزكه(١٢٨) • قال قيس : وفيالقوم اسوار لا تسقط له نُشّابة(١٢٩) ، فقلنا له: يا أبا ثور ، اتق الاسوار لا يرميك!ورماه ، فاصاب قوسه ، فحمل عليه ، فاعتنقه وذبحه ، وسلبه سواريّ ذهب كانا عليه ،ومنطقة ذهب بقَباءِ ديباج •

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أناأبو الحسين بن النقور، أنا أبو طاهرالمخلص، أنا أبو بكر بن سيف ، نا السَّري بن يحيى ،أنا شعيب بن ابراهيم ، نا سيف بن عمر ، عن اسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم قال(١٣٠) :

مرَّ بنا عمرو بن معدي كرب وهو يحضض الناس بين الصفين ، وهو يقول : ان الرجلَ من هذه الأعاجم اذا ألقى مزراقه(١٣١) فانما هو تيس . فبينا هو كذلك يحرضنا اذ خرج اليه رجل من الأعاجم ، فوقف بين الصفين ، فرماه بنشابة ، فما أخطأت سِيَةَ قوسه(١٣٢) وهو متنكبها ، فالتفت اليه ، ثم حمل عليه ، فاعتنقه ، ثم أخذ بمنطقته ، فاحتمله فوضعه بين يديه ، فجاء به ، حتى اذا دنا منا كسر(١٣٣) عنقه ، ثم وضع سيفه على حلقه ، فذبحه ، ثم ألقاه ، فقال : هكذافاصنعوا بهم ! فقلنا : من يستطيع ، يا أبا ثور ، أن يصنع كما تصنع ؟!

وقال بعضهم : وصوابه عن اسماعيل : وأخذ سواريه ومنطقته ، ويَلمَق(١٣٤) ديباج عليه .

أخبرنا أبو محمد بن حمزة ، نا أبو بكر الخطيب .

ح وأخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي، أنا أبو بكر محمد بن هبة الله ، أنا محمد بن الحسين ، أنا عبدالله بن جعفر ، نا يعقوب ، نا أبو بكر بن أبي شيبة ، نا أبو أسامة قال : قال اسماعيل ، أنا عن قيس قال(١٣٥) :

شهدت القادسية ، فكان سعد على الناس وحارسهم ، فجعل عمرو بن معدي كرب الزبيدي يمر على الصفوف ، ويقول: يا معشرالمهاجرين كونوا أسوداً ، أسداً أغنى شأنه [الفارسي](١٣٦) تيس بعد أن يلقي نيزكه .وكان معهم اسوار(١٣٧) لا يسقط نشّابه ، فقلنا له : يا أبا ثور ، اتق ذاك ! فانا لنقولذاك اذ رماه ، فأصاب قوسه ، فحمل عمرو عليه ، فاعتنقه ، ثم ذبحه ، فأخذ سلبه ،سواري ذهب كانا عليه ، ومنطقة ذهب ، وقباء ديباج . قال : وفرَّ رجل من ثقيف ،فلحق بالمشركين ، فأخبرهم ، فقال : ان بأس الناس في هذا الجانب ــ وأشار الى بَجيلة ــ فوجهوا اليها ستة عشر فيلاً عليها المقاتلة ، والى سائر الناس فيلين . وكان سعد يومئذ يقول : بيتنا بَجيلة . قال قيس : وكنا ربع الناس يومئذ ، فأعطانا عمر ربع السوادفأخذناه ثلاث سنين . فوفد بعد ذلك جرير الى عمر ، وتبعه عمّار بن ياسر ، فقال عمر:ألا تخبروني عن منزليكم هذين ؟ ومع ذلك. اني لأسالكما ، واني لأتبين في وجوهكم أيالمنزلين خير . فقال له جرير ، أنا أخبرك يا أمير المؤمنين ؛ أما أحد المنزلين فادنى محلتّه من السواد الى أرض العرب ، وأما المنزل الآخر فأرض فارس وعكبها(١٣٨) وحرهاوبقها ــ يعني المدائن ــ قال : فكذبني(١٣٩) عمار ، فقال : كذبت . فقال عمر : وأنتأكذب . ثم قال عمر : ألا تخبرني عن أميركم هذا ، أمجزيء هو ؟ قلت : لا والله ، ما هوبمجزيء ، ولا كاف ، ولا عالم بالسياسة . فعزله وبعث المغيرة بن شعبة .

قرأت على أبي غالب بن البناء ، عن أبي محمد الجوهري ، أنا أبو عمر بن حيّويه ، أنا أحمد بن معروف ، أخبرنا الحسين بن فهم ، نا محمد بن سعد ، أنا محمد بن عمر(١٤٠) ، نا ابن أبي سبرة ، عن موسى بن عقبة ، عن أبي حبيبة مولى الزبير ، نا نيار بن مكرم الأسلمي قال(١٤١) :

شهدت القادسية ، فرأيت(١٤٢) يوماً اشتد فيه القتال بيننا وبين الفرس، [ورأيت] رجلاً يفعل بالعدو يومئذ الأفاعيل ، قلت :من هذا ــ جزاه الله خيراً ــ ؟ قيل : عمرو بن معدي كرب •

قال : وأنا محمد بن عمر ، حدثني منصور بن أبي الأسود ، عن اسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم قال :

شهدت القادسية فسمعت عمرو بن معدي كرب، وهو يتمشى بين الصفين يقول: يا معشر المسلمين ، كونوا أسوداً ، أسد أغنى شانه ،انما الفارسي تيس بعد أن يضع نيزكه • واسوارهم لا يقع له نشابة ، قلنا له : احذر(١٤٣) ، يا أبا ثور الاسوار(١٤٤) ! فما أخطأ قوسه ، وشد عليه عمرو ، فأخذه وسقطا الى الأرض جميعاً ، فكشف عنهما وان عمراً لعلى صدره يذبحه وأنا أنظر ؛ وأخذ سلبه :سوارين ومنطقة ، ويلمق ديباج •

قال : ونا محمد بن عمر ، حدثني(١٤٥)ابن أبي سبرة ، عن عيسى الخياط قال(١٤٦):

أتي عمرو بن معدي كرب يوم القادسية بفرس ، فهمزه(١٤٧) ، فقال : هذا ضعيف ، ثم أتي بآخر ، فهمزه(١٤٧) ، فركضه ، فقال لأصحابه : اني حامل ، فعابر الجسر ، فان أسرعتم أدركتموني وقد عقَر بي(١٤٨)القوم ، ووجدتموني قائماً بينهم قد قتلت وجردت ، وان أبطأتم عني وجدتموني قتيلاً بينهم ، قد قتلت وجردت • فحمل عمرو ، فوجد قد عقر به على ما وصف •

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو الحسن الكرخي، أنا محمد بن عبدالرحمن، أنا أحمد بن عبدالله ، أنا أبو عبيدة التيمي، أنا شعيب بن ابراهيم ، نا سيف بن عمر ، عن المقدام الحارثي ، عن الشعبي قال : قال عمرو بن معدي كرب(١٤٩) :

اني حامل على الفيل ومن حوله ــ لفيل بازائهم ــ فلا تدعوني أكثر من جزر جزور ــ وبغيره(١٥٠) ــ فان تأخرتم عني فقدتم أبا ثور ، وأين لكم مثل أبي ثور ؟! فان أدركتموني وجدتموني وفي يدي السيف • فحمل ، فما انثنى حتى ضرب فيهم ، فستره الغبار ، فقال أصحابه : ما تنتظرون ؟ ما أنتم خلقاء أن تدركوه، وان فقدتموه فقد المسلمون فارسهم • فحملوا حملة ، فافرج المشركون عنه بعدما ضربوه وطعنوه ، وان سيفه في يده يضاربهم به ، وقد طُعن فرسه • فلما وافى أصحابه ، وانفرج عنه أهل فارس أخذ برجل فرس رجل من أهل فارس ، فحركه الفارسي، فاضطرب الفرس ، فالتفت الفارسي الى عمرو فهمّ به • وأبصره المسلمون ، فغشوه ،فنزل عنه الفارسي ، وحاضر(١٥١) الى أصحابه فقال : مكّنوني [من] لجامه ،فمكّنوه ، فركبه •

أخبرنا أبو القاسم اسماعيل بن أحمد، أنا محمد بن محمد بن أحمد بن المسلمة ، أنا علي بن أحمد بن عمر، نا محمد بن أحمدبن الحسن بن علي القطان ، نا اسماعيل بن عيسى العطـار ، نا اسحاق بن بشـر قال :قال ابن اسحاق :

فلما فتـح الله للمسلمين يوم القادسية على عـدوهم ، وأصابوا عسكرهم وما فيـه أقبل سعد على الناس يقسم بينهم الأموال ، ويعطيهم على قـدر ما قرأوا من القرآن ، فأراد التقصير ببشر بن ربيعـة الخثعمي ،ويزيد بن جحفة التميمي ، وكانوا أشد أهل العسكر ، ولم يكـونوا بلغـوا في القرآن ٠فأبوا أن يأخذوا قسمته(١٥٢) الا أن يفضلهم على الناس ٠ فقال عمرو بن معدي كرب(١٥٣) : [من الوافر] :

أمـن ليلى تسـرّى بعـد هـدء ... خيـال هـاج للقلـب ادّكـارا
يـذكـرنـي الشـباب وأم عمرو ... وشامات(١٥٤) المرابـع والدّيارا
وحيـًا مـن بني صعب بن سـعد ... سقوا الأرصاد والدّيم(١٥٥)الغزارا
ألا أبلـغ أمـير القوم(١٥٦) سعدا ... فقـد كذبت أليـّته(١٥٧) وجارا
وحرّق نابـه(١٥٨) ظلماً وجهلاً ... علـي فقـد أتـى نمـّا وعـارا
هُبِلْتَ ؛ لقـد نسيت جلاد عمرو ... وأنت كخامع تلج الوجـارا(١٥٩)
أطـاعـن دونـك الأعـداء شزرا ... وأغشى البيض والأسل الحرارا(١٦٠)
ببـاب القـادسـية مستميتـا ... كليث أريكـة(١٦١) يابى الفرارا
أكـرّ عليهـم مُهـري وأحمـي ... [اذا كرهوا]الحقائق والذمارا(١٦٢)
جـزاك الله في جنبـي عقـوقـا ... وبعـد المـوت زقـومـا ونـارا

فلمـّا بلغه قوله أرسل اليه ، فأعطاه وفضله ، فأرضاه ٠

أخبرنا أبو محمد عبدالرحمن بن أبي الحسن الداراني ، أنا سهل بن بشر ، أنا عبدالوهاب بن الحسين بن عمر بن بـَرهان ، نا محمد بن العباس اليزيدي ، نا العباس ابن الفرج الرياشي ، نا سوّار قال : سمعت أبا عبيدة يقول :

ان عمرو بن معدي كرب حمل يوم القادسية على مرزُبان وهـو يرى أنـه رستم ، فقتله ، فقال في ذلك(١٦٣) : [من السريع] :

ألمْ بسـلمى قبـل أن تظعنـا ... ان لسـلمى عندنـا ديـدنـا(١٦٤)
قـد علمت سـلمى وأشياعهـا(١٦٥) ... مـا قطـّـر(١٦٦) الفـارس الا أنـا
شـككتُ بالرمـح حيـازيمـه(١٦٧) ... فالخيـل تعـدو رهـبا بيننـا(١٦٨)

أنبأنا أبو علي الحسن بن أحمد ، أنا أبو بكر محمد بن عبدالله بن أحمد بن ريذة، أنا سليمان بن أحمد الطبراني ، نا أبو يزيدالقراطيسي ، نا سعيد بن منصور ، نا هشيم ، أنا اسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس بن أبي حازم قال :

رأيت عمرو بن معدي كرب يوم القادسية وهو يحرض الناس على القتال ، وهو يقول : أيها الناس ، كونوا أسداً ، أسد أغنى شأنه ، انما الفارسي تيس اذا ألقى نيزكه . قال : فبينا هو كذلك اذا اسوار من أساورةفارس يرمي له بنشابة . فقيل له: يا أبا ثور، ان هذا الاسوار يرمي لك بنشابة . قال :فرماه ، فأصاب سية قوس عمرو ، فكسرها ، فحمل عليه عمرو ، فطعنه ، فدق صلبه ،فنزل اليه ، فأخذ سوارين كانا عليه من ذهب، ويلمقاً من ديباج . قال : فسلم ذلك له .

أنبأنا أبو طالب عبدالقادر بن محمد بن يوسف ، أنا ابراهيم بن عمر الفقيه .

ح وحدثنا أبو المعمر المبارك بن أحمد الأنصاري ، أنا المبارك بن عبدالجبار ، أنا أبو الحسن علي بن عمر بن الحسن ، وأبواسحاق ابراهيم بن عمر قالا : أنا أبو عمر بن حيُّويه، أنا عبيدالله بن عبدالرحمن بن محمد، نا أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة قال(١٦٩) :

في حديث عمرو بن معدي كرب أنه قال يوم القادسية : يا معشر المسلمين ، كونوا أسداً عناشاً ؛ فانما الفارسي تيس اذا ألقى نيزكه .

حدثنيه محمد بن عبيد ، عن معاوية بن عمرو، عن أبي اسحاق، عن ابن(١٧٠) عيينه، عن اسماعيل بن أبي خالد ، عن قيس قال :رأيت عمراً يومئذ يقول ذلك .

قوله : عناشاً هو من : عانشتُ الرجل ،[أي عانقته ، وعانشت](١٧١) وعانقت بمعنى واحد ؛ والعِنَاش مصدر عانشت ، يقال :رجل عناش عدوٍ اذا كان يعانق قرنه في النِّزال . كذلك جاء هذا الحرف ، يوصف الرجل منه بمصدر الفعل(١٧٢) . وفي هذا الحديث(١٧٣) أن عمراً حَمَل على الاسوار فاعتنقه ، ثم ذبحه ، وأخذ سلبه . ومثله مما يوصف بالمصدر: رجل كَرَم" ، وقوم كَرَم"،ونساء كَرَم" ، لا تجمع ، ولا تؤنَّث(١٧٤) . قال الشاعر(١٧٥) : [من الوافر] :

وأن يَعْرَيْنَ ان كُسي الجَواري فتنبو العينُ عن كَرَم عِجافِ

ومنه قول عبدالله بن جعفر لحسين(١٧٦) ورأى ناقته قائمة على زمامها بالعرج ، وكان مريضاً : أيها النوم ــ وظن أنه نائم ــ واذا الرجل مثبت(١٧٧) وجعاً . ويقال : هذا رجل صَوْم ، وفطر ، ورجال صوم" ، وفطر" .

قال ابن حيُّويه : قال أبو عمر : ــ يعني محمد بن عبدالواحد الزاهد :

العِناش في العداوة ، والعِناق في الصداقة .

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو علي بن المسلمة(١٧٨) ، أخبرنا أبو الحسن بن الحمامي، أنا أبو علي بن الصواف، أنا الحسن بن علي العطار ، أنا اسحاق بن بشر ، حدثني أبو مخْنَف ، عن المُجالد بن سعيد ، عن الشعبي(١٧٩) :

أن الأعاجم كانوا يومئذ - يعني يوم القادسية - مائة ألف وعشرين ألفاً ، معهم ثلاثون فيلاً ، مع كل فيل أربعة آلاف ، فقال سعد بن أبي وقاص لعمرو بن معدي كرب الزبيدي ، ولقيس بن مكشوح المرادي ، ولطليحة(١٨٠) بن خويلد الأسدي : انكم شعراء خطباء فسيروا في الناس فحرضوهم ، فقام عمرو بن معدي كرب ، فقال : أيها الناس ، كونوا أشد حذراً ؛ اذا برز الى أحدكم قرنه فلا يكله الى غيره ؛ ان هؤلاء معشر الأعاجم اذا لقي أحدهم قِرنه فهو تيس ، فبينما هو يحرضهم ويرتجز ويقول(١٨١) :

أنا أبو ثور وسيفي ذو النون أضربهم ضرب غلام مجنون

يالَ زبيد ، انهم يموتون

اذ جاءته نشابة أصابت قَرَبُوسَه (١٨٢) ، فحمل على صاحبها ، فأخذه أخذ الجارية ، فوضعه بين الصفَّين ، ثم احتزَّ رأسه وقال : اصنعوا هكذا .

قرأت على أبي غالب بن البنَّاء الحريري ، عن أبي محمد الجوهري ، أنا أبو عمر ابن حيَّويه ، أنا أحمد بن معروف ، أنا أبو علي بن الفهم ، نا محمد بن سعد ، أنا محمد ابن عمر ، حدثني بُكَيْر بن مسمار(١٨٣) ، عن زياد مولى سعد قال : سمعت سعداً يقول :

- وبلغه أن عمرو بن معدي كرب وقع في الخمر(١٨٤) ، وأنَّه قد دُلِّه(١٨٥) بعد - لقد كان له موطن صالح ، لقد كان يوم القادسية عظيم الغناء ، شديد النكاية للعدو . فقيل له : قيس بن مكشوح ؟ فقال : كان هذا أبذل لنفسه من قيس ، وان قيساً(١٨٦) لشجاع .

قال : وأنا محمد بن عمر ، حدثني ابن أبي سَبْرة ، عن عبدالملك بن نوفل ، أن عمرو بن معدي كرب قال :

كانت خيل المسلمين تنفر من الفيلة يوم القادسية ، وخيل الفرس لا تنفر ، فأمرت رجلاً فترَّس عنِّي ، ثم دنوت من الفيل ، فضربت خطمه ، فقطعته ، فنفر ، ونفرت الفيلة ، فحطمت العسكر ، وألحَّ المسلمون عليهم حتى انهزموا .

قال : وأنا محمد بن عمرو بن ربيعة بن عثمان قال(١٨٧) :

لمَّا ولَّى عمرُ النعمان بن مُقَرِّن على الناس يوم نهاوند كتب اليه : ان في جندك عمرو بن معدي كرب ، وطليحة بن خويلد الأسدي ، فأحضرهما ، وشاورهما في الحرب .

أخبرنا أبو البركات الأنماطي ، أنا أبو الفضل بن خيرون ، أنا أبو القاسم بن بشران ، أنا أبو علي بن الصواف ، نا محمد بن عثمان بن أبي شيبة ، نا أبي ، نا جرير ، عن مغيرة قال :

كتب عمر الى سعد ، أو النعمان بن مُقَرّن : استشر في الحرب عمرو بن معدي كرب وعِلباء(١٨٨) بن الهيثم ، وجرير بن عبدالله ، وطليحة الأسدي ، ولا تستعملهم(١٨٩) .

أنبانا أبو علي الحداد ، أنا أبو بكر بن ريذة ، أخبرنا سليمان بن أحمد ، أنا أبو خليفة قال : قال محمد بن سلاّم :

عمرو بن معدي كرب ، له في الجاهلية وقائع ، وقد أدرك الاسلام . قدم على النبي (ﷺ) ووجهه عمر بن الخطاب الى سعد بن مالك الى القادسية ، وكان له هناك بلاء حسن .

كتب عمر الى سعد : اني قد وجهت اليك — أو أمددتك — بألفي رجل : عمرو بن معدي كرب ، وطليحة بن خويلد — وهو طليحة الأسدي — فشاورهما في الحرب ، ولا تولهما شيئاً .

أخبرنا(١٩٠) أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو علي بن المسلمة ، أنا علي بن أحمد المقرىء ، أنا محمد بن أحمد بن الصواف ، أنا الحسن بن علي القطان ، أنا [اسماعيل ابن] عيسى العطار قال : قال أبو عبدالله : قال الشعبي : قال عمرو بن معدي كرب(١٩١) :

لمّا فرض لي عمر ألفين تجوّعت ، فكان عمر يطعم الناس كل عشية ، فجلست على مائدته قبالته حيث يراني . فنظر اليّ والى أكلي ، فقال اليّ بيده ، فقال : ما هذا الأكل؟ فقلت(١٩٢) : يا أمير المؤمنين ، اني كنت أضني(١٩٣) في الجاهلية ، فكنت آكل الجذَعة(١٩٤) بكفلها ، فأعني على بطني . فقال عمر بيده : ألفين ، فقلت : ألف ها هنا ، وألف ها هنا ، فأي شيء أجعل ها هنا(١٩٥) . فقال بيده : خمسمائة ، قلت : ومرها لي . فكان عطاؤه ألفين وخمسمائة .

أنبانا أبو المعالي ثعلب بن جعفر بن أحمد السراج ، أنا أبي ، أنا أبو طاهر محمد بن علي البيّع ، أنا أحمد بن محمد البزاز ، أنا أحمد بن محمد الصواف اجازة ، نا الحارث بن محمد التميمي ، حدثني محمد بن علي المدائني ، عن عائذ بن أبي عامر التميمي قال (١٩٦) :

قدم عمرو بن معدي كرب على عمر بن الخطاب ، وعمر يغدي الناس ، وقد جهز لعشرة عشرة ؛ فأجلسه مع عشرة ، فأكلوا ونهضوا ، وعمرو جالس ، فأجلس معه عشرة ، فأكلوا ونهضوا ، وأجلس معه عشرة ، فأكل معهم ، ونهض ، ونهضوا ؛ فأكل مع ثلاثين ، ثم قام .

قال : ونا المدائني ، عن يزيد بن مخنف قال :

أكل عمرو بن معدي كرب عنزاً رباعية ، وفَرَقاً من ذرة ، والفَرَق ثلاثة آصع .

وأخبرنا أبو علي الحسين بن علي بن أشليها ، وابنه أبو الحسن علي قالا : أنا أبو الفضل بن الفرات ، أنا أبو محمد بن أبي نصر ، أنا أبو القاسم بن أبي العقب ، أنا أحمد بن ابراهيم ، نا محمد بن عائذ ، نا عبدالرحمن بن مَغْراء ، نا جابر بن يحيى القاريّ قال(١٩٧) :

لمّا افتتح سعد العراق ، ورد لـه الخراج أوفـد عمرو بن معدي كرب الى عمر بن الخطاب ، وكتب معه يذكر شجاعته ، وحسن مؤازرته ، فلما قدم على عمر قرأه ، فرفع رأسه اليه فقـال له : إيـه يا عمرو ، كيف تركت سعـداً ؟ قـال : تركتـه للمسلمـين كالأب الرؤوف ، ينقل اليهم نقل الذرّة(١٩٨) الى حجرها ، أسداً في عرّيسه(١٩٩) ، أعرابياً في نَمِرَته(١٩٩) ، نبطيـاً في حبوته(٢٠٠) ، عاتقاً في حجَلها(٢٠١) . قال : كأنما اتفقتما في أمر واحـد ؛ كتب يثني عليـك ، وأقبلت تثني عليه(٢٠٢) . قال : اني لم اثن الا بما رأيت . قال فدع عنك سعداً وأخبرني عن قومـك . قال : عمَّن ؟ قال : عـن فضلهـا وخيرها ؟ قال : في كل فضل خير . قال : فأين عُلة بن جلد(٢٠٣) ؟ قـال : أولئك فوارس أعراضهـا(٢٠٤) ، وسُداد فـراضهـا(٢٠٥) ، وشفاء أمراضها(٢٠٦) ؛ أهل الرياح ، وأهل الرماح ، أكثرنا لحناً(٢٠٧) ، وأحثنا طلباً ، وأقلنا هرباً . قال : فأين سعد العشيرة(٢٠٨)؟ قال : أولئك أكبرنا خميساً(٢٠٩) ، وأعظمنا رئيساً ، وأشدنا شريساً(٢١٠) ـ قـال عبد الرحمن بن المغراء : وحدثني غيره : فأين بنو الحارث بن كعب؟ قال: حَسَكة مُسكة"(٢١١)، ثم رجـع الحديث الى جابر القاري قـال :فقال : مراد(٢١٢) ؟ قال : أولئك الأتقيـاء البـررة ، والمساعـير(٢١٣) الفخـرة(٢١٤) ، هم أكثرنا دياراً ، وأبعدنا آثاراً ، وأطلبنا أوتاراً(٢١٥)(٢١٦ قال عبد الرحمن : وسمعت غيره يقـول : هم أكثرنا ديـاراً ، وخيرنا قراراً(٢١٧) ، وأبعدنا آثاراً ، وأطلبنا أوتاراً٢١٦) . ثم رجع الحديث الى جابر قـال : ـ فأخبرني عن الحرب؟ قال: هي شبه فتاة بغي دعت الى نفسها ، فأجابها اهل الدعارة(٢١٨)، وجانبها أهل السناء والخيارة ، مرّة المذاق اذا قلَّصت عن ساق ، من صبر فيها عُرف ، ومن ضعف فيها تلف ، وانها لكما قال عمّي امرؤ القيس(٢١٩) : [من الكامل] :

الحـرب أول ما تكـون فُتيَّـةً ... تسـعى بزينتهـا لكـل جهـولِ
حتى اذا استعرت وشبّ ضرامهـا ... عادت عجوزاً غير ذات خليل(٢٢٠)
شمطاء جـزّت رأسهـا وتنكّرت ... مكروهـة للشم(٢٢١) والتقبيـلِ

ثم رجع الحديث الى جابر قال :ـ فقال عمر: أخبرني عن السلاح؟ قال: سلني عمّا شئت منه . قال: الرمح ؟ قال: أخوك ، وقد يخذلك . قال : فالنَّبل ؟ قال : هي المنـايا تخطىء وتصيب . قال: التّرس ؟ قال: ذاك المجن عليه تدور الدوائر . قال : الدرع؟ قال : مَشغلة للفارس ، مَتعبـة للراجـل . قال : السيف ؟ قال أمّـك تقارع الثُّكـل ، يا عمر(٢٢٢ قـال عمـرو (٢٢٢ : بـل أمـك (٢٢٣) . قال : الحمّى أضرعتني لك ـ قال غير جابر : الحمى أضرعتني للنوم(٢٢٤) .

قال : ونا ابن عائذ ، نا أبو حفص عمر بن عبدالواحد ، عمَّن أخبره ، عن أبي بكر الهُذلي ـ بنحو ذلك .

أنبأنا أبو علي المقرىء ، أنا أبو بكر بن ريذة ، نا سليمان بن أحمد الطبراني ، نا أبو خليفة قال : : قال محمد بن سلاّم(٢٢٥) :

انما يعد الشَّرف ما كان من قَبل النبي(ﷺ) الى عهد النبي (ﷺ) واتصل في الاسلام؛ فبيت اليمن الذي هو في الصِّفة عند العدد في كِندة : الأشعث بن قيس ، وفارسها في بني زبيد عمرو بن معدي كرب ، وشاعرها امرؤالقيس من كِندة(٢٢٦) ، لا يُختلف في هذا ٠

قال : ونا الطبراني ، نا أبو خليفة قال: قال محمد بن سلاّم : قال بعض أصحابنا : قال :

عرض سلمان بن ربيعة الخيل ، فمر عمرو بن معدي كرب على فرس له ، فقال له سلمان : هذا هجين ، فقال عمرو : عتيق ٠ قال : فأمر به فعُطِّش، ثم دعا بطست من ماء، ودعا بعتاق ، فشربت ٠ فجاء فرس عمرو ،فثنى يديه وشرب ــ وهذا صنيع الهجين ــ فقال له : ألا ترى ؟ فقال : أجل ، الهجين يعرف الهجين ! فبلغ عمر ، فكتب : قد بلغني ما قلت لأميرك ، وبلغني أن لك سيفاً تسميه الصمصامة ، وعندي سيف مصمم بالله لئن وضعته على هامتك لا أقلع حتى أبلغ شيئاً(٢٢٧) ٠ فان سرك أن تعلم أحق ما أقول فعد ٠

أخبرنا أبو البركات الأنماطي ، أخبرنا أبو الحسين بن الطيوري ، أنا أبو الحسن العتيقي ٠

ح وأنا أبو عبدالله البلخي، أنا ثابت بن بُندار ، أنا الحسين بن جعفر قالا : أنا الوليد ابن بكر ، أنا علي بن أحمد بن زكريا ، نا صالح بن أحمد ، حدثني أبي قال(٢٢٨) :

عمرو بن معدي كرب : كوفي ، تابعي ، ثقة ٠

أنا أبو القاسم اسماعيل بن أحمد ، أنا أبو الفضل عمر بن عبيدالله ، أنا أبو الحسين بن بشران ، أنا عثمان بن أحمد ، نا حنبل بن اسحاق ، نا الحُميدي ، نا سفيان، نا اسماعيل ، سمعه من قيس قال :

شهدت الأشعث بن قيس ، وعمرو بن معدي كرب وقع بينهما كلام في المسجد ، فقال له الأشعث : والله لئن جئتك لأضْرِطنَّك ، فقال أبو ثور عمرو بن معدي كرب : كلاّ والله ، انها(٢٢٩) لكذا وكذا ٠

قال أبو علي حنبل : يعني نفسه(٢٣٠) ٠

أخبرنا أبو القاسم بن السمرقندي ، أنا أبو الحسين بن النَّقُور ، أنا عيسى بن علي ، أنا عبد الله بن محمد البغوي ، نا محمدبن عبّاد ، نا سفيان ، عن اسماعيل ، عن قيس قال :

سمعت الأشعث وعمرو بن معدي كرب وقع بينهما كلام ، فقال الأشعث : لئن دنوت منك لأضرطنَّك ، فقال عمرو : كلاّ والله ؛انها لعَزوم مُفزّعة(٢٣١) ٠

أخبرنا أبو العز بن كادش السُّلمي إذناً ومناولة وقرأ علي اسناده ، أنا محمد بن الحسين ، أنا المُعافى بن زكريا ، نا محمد بن الحسن بن زياد المقرىء ، نا أبو عثمان سعد

ابن عبدالله بن سعيد الهجراني ــ بالبصرة ــ نا العباس بن الفرج الرّياشي، عن الأصمعي، عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال(٢٣٢) :

كان عمرو بن معدي كرب يحدث بحديث، فقال فيه : لقيت في الجاهلية خالد بن الصـّقـْعب(٢٣٣)، فضربته، وقذرتـُه ــ وخالد في الحلقة ــ فقال له رجل : ان خالداً في الحلقة، فقال له : اسكت ، يا سيّئ الادب ، انما أنت محدّث ، فاسمع ، أو فقم(٢٣٤) ، ومضى في حديثه ، ولم يقطعه ٠ فقال له رجل : أنت شجاع في الحرب والكذب معاً ! قال : كذلك أنا ، تامّ الآلات ٠

أخبرنا أبو القاسم بن أبي الجن(٢٣٥) الحسيني ، أنا رشأ بن نظيف ، أنا أبو محمد المصري ، أنا أبو بكر أحمد بن مروان(٢٣٦)، نا ابراهيم بن سهلويه ، نا عمر(٢٣٧) بن عبدالكريم ، عن عبدالله بن أحمد بن يزيد ، عن عبدالله بن عبدالوهاب ، عن نافع ، عن ابن عمر قال :

بينما عمر بن الخطاب في مسجد رسول الله (ﷺ) في جماعة من أصحاب رسول الله (ﷺ) ، وهم يتذاكرون فضائل القرآن اذ قال قائل منهم : خاتمة « براءة » ، وقال قائل منهم : خاتمة « بني اسرائيل » ، وقال قائل منهم(٢٣٨) : « كهيعص » ، و « طـه » ، وأكثروا ؛ وفي القوم عمرو بن معدي كرب الزُّبيدي في ناحية ، اذ قال : يا أمير المؤمنين، فأين أنتم عن عجيبة « بسم الله الرحمن الرحيم(٢٣٩) » ؟ فوالله ان في « بسم الله الرحمن الرحيم » لعجيبة من العجب ٠ فاستوى عمر ــ وكان متكئاً فجلس ــ وكان يعجبه حديث عمرو ، فقال له : يا أبا ثور ، حدثنا بعجيبة(٢٤٠) « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فقال : يا أمير المؤمنين، انه أصابنا في الجاهلية مجاعة شديدة ، فاقحمت بفرسي البريّة أطلب شيئاً، فوالله ما أصبت الا بيض النعام ، وان فرسي لتقمم من غشاء البرية ، فبينا أنا كذلك اذ رفعت لي(٢٤١) خيل وماشية وخيمة ، فأتيت الخيمة ، فاذا بجارية كأحسن البشر ، واذا بفناء الخيمة شيخ متكيء؛ فقلت ــ لما دخلني من هول الجارية ، ومن ألم الجوع(٢٤٢) : استأسره ، ثكلتك أمـّك ! فقال يا هـذا ، ان أردت القرى فانزل، وان أردت معونة أعناك٠ فقلت : استأسر ، ثكلتك أمـّك ! فقال لي مثل قوله الأول، فنهض(٢٤٣) نهوض شيخ لا يقدر على القيام ، فدنا مني وهو يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ثم جذبني اليه ، فاذا أنا تحته ، وهو فوقي ، فقال لي : أقتلك أو أخلي عنك ؟ فقلت : بل خلّ عني ٠ فنهض عني وهو يقول : [من الطويل] :

عرضنا عليك النزل منّا تفضـّلا ٭ فلم ترعوي جهلا كفعل الأشائم
وجئت بعدوان وظلم ، ودونما ٭ تمنيته في البيض حزّ الغلاصم(٢٤٤)

فقلت في نفسي : يا عمرو ، أنت فارس العرب ، للموت أهون من الهرب من هذا الشيخ الضعيف ، فدعتني(٢٤٥) نفسي الى معاودته ثانية ، وأنشأت أقول :

رويدك لا تعجل بليتَ بصارم ٭ سليل المعالي هزبَري قماقم(٢٤٦)
أإن زلّ عمروٌ زلـّـة أعجمية ٭ ولم يكُ يوماً للفرار بحاجم(٢٤٧)

طمعت لما منتك نفسك سلمن(٢٤٨) سقتك المنايا كأسها بالصرائم
فمالك فابذل دون نفسك تسلمن(٢٤٩) هنالك ، أو تصبر لحز الغلاصم
فما دون ما تهواه للنفس مطمع سوى أن أحز الرأس منك بصارم

ثم قلت : استأسره(٢٥٠) ، ثكلتك أمك ! فدنا مني وهو يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » • ثم جذبني جذبة مثلت تحته ، فاستوى على صدري ، فقال : أقتلك(٢٥١) أم أخلي عنك ؟ فقلت : بل خل عني ، فنهض وهو يقول : [من الوفر] :

ببسم الله والرحمن فزنا قديماً ، والرحيم به قهرنا
وهل تغني جلادة ذي حفاظ اذا يوماً بمعركة نزلنا
وهل شيء يقوم لذكر ربي وقدماً بالمسيح هناك عذنا
سأقسم كل ذي جن وانس اذا يوماً لمعضلة(٢٥٢) حللنا

فقلت : استأسر(٢٥٠) ، ثكلتك أمك ! فدنا مني وهو يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » • فملئت منه رعباً ، يا أمير المؤمنين ، وكنا لا نعرف مع اللات والعزى شيئاً • ثم جذبني جذبة ، فصرت تحته ، فقلت : خل عني ، فقال : هيهات ! بعد ثلاث مرار ، ما أنا بفاعل • ثم قال : يا جارية ، ائتني بشفرة ، فأتت بها ، فجز ناصيتي ، ثم نهض وهو يقول : [من الطويل] :

مننا على عمرو فعاد لحينه وثنى فثنينا ، فساء بما فعل
وفي اسم ذي الآلاء عز ومنعة ومحترز ، لو كان سامعه عقل

وكنا ، يا أمير المؤمنين ، اذا جزوا(٢٥٣) نواصينا استحيينا أن نرجع الى أهلنا(٢٥٤) حتى تنبت ، فرضيت أن أخدمه حولاً ، فلما حال علي الحول قال لي : يا عمرو ، اني أريد أن تنطلق معي الى البرية ، وما بي من وجل، واني الواثق ببسم الله الرحمن الرحيم • فانطلقت معه حتى أتى وادياً ، فهتف بأهله ببسم الله الرحمن الرحيم ، فلم يبق طائر في وكره الا طار ، ثم هتف الثانية ، فلم يبق سبع في مربضه الا نهض ، ثم هتف الثالثة ، فاذا هو بأسود كالنخلة السحوق ، واذا هو لابس شعراً ، فرعبت، فقال الشيخ : لا ترع، يا عمرو ، اذا نحن اصطرعنا فقل : غلبه(٢٥٥) صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم • قال : فاصطرعا ، فقلت : غلبه(٢٥٥) صاحبي باللات والعزى ، فلطمني لطمة كاد يقلع رأسي ، فقلت له : لست بعائد • فاصطرعا ، فقلت : غلبه (٢٥٥) صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم • فملاه الشيخ ، فنفخه كما ينفخ(٢٥٦) الفرس ، وشق بطنه ، واستخرج منه كهيئة القنديل الأسود ، فقال : يا عمرو ، هذا غشه وكفره• قلت(٢٥٧) له : فداك أبي وأمي ، مالك ولهؤلاء(٢٥٨) القوم ؟فقال(٢٥٩) : يا عمرو ، ان الجارية التي رأيت في الخباء هي الفارعة بنت المستورد ،وكان رجلاً من الجن ، وكان مؤاخياً لي ، وكان على دين المسيح (عليه السلام) وهؤلاءقومها يغزونني كل سنة منهم رجل ، فينصرني

الله عليهم ببسم الله الرحمن الرحيم· فانطلقناحتى اذا أمعنا في البرية فقال : يا عمرو ، قد رأيت(٢٦٠) ما كان مني وأنا جائع ، فالتمس لي شيئاً آكله · فالتمست ، فما(٢٦١) وجدت له الا بيض النعام ، فأتيته(٢٦٢) وهو نائم ،قد توسّد احدى يديه ، وتحته سيفه ، وهو سيف طوله سبعة أشبار ، وعرضه أقل من شبرين ، وهو الصّمصامة ، فاستخرجت سيفه من تحته ، فضربته ضربة قطعته من الساقين ،فقال لي : يا غدار ، ما أغدرك ! فلم أزل أضربه حتى قطعته ارباً ارباً · فغضب عمر ــ رحمة الله عليه ــ وقال : أنا أقول كما قال العبد الصالح : يا غدار ظفر بك رجل من المسلمين ، فأتم عليك ثلاث مرات(٢٦٣) ، ووجدته نائماً فقتلته ؟! والله لو كنت مؤاخذك في الاسلام بما فعلت في الجاهلية لقتلتك أنا به · ثم أنشأ عمر ــ رضي الله عنه ــ يقول :[من البسيط] :

اذا قتلت أخا الاسلام تظلمه ... آفاً(٢٦٤) لما جئته في سالف الحقب
الحر يأنف مما أنت تفعله ... تباً لما جئته في العجم والعرب
لو كنت آخذ في الاسلام ما فعلت ... أهل الجهالة والاشراك والصلب
لنالك اليوم من كفي(٢٦٥) مطالبة ... يدعى لذائقها بالويل والحرب

ثم قال : ما كان من حديثه يا عمرو ؟ قال : فأتيت الخيمة فاستقبلتني الجارية ، فقالت : يا عمرو ، ما فعل الشيخ ؟ قلت :قتله الحبشي ، قالت : كذبت ، بل قتلته أنت ، يا غدار ! ثم دخلت الخيمة(٢٦٦) ، فجعلت تبكيه وهي تقول(٢٩٧) : [من الخفيف] :

عين جودي لفارس مغوار ... واندبيه بواكفات غزار
سبع وفلا عهدجم(٢٦٨) ... ورئيس الفخار يوم الفخار
لهف نفسي على لقائك عمراً(٢٦٩) ... أسلمته الحماة للأقدار
بعدما حز(٢٧٠) ما به كنت تسمو ... في زبيد ومعشر الكفار
ولعمري لو رمته أنت حقاً ... رمت منه كصارم بتار
فجزاك المليك سوءاً وهوناً ... عشت منه بذلة وصغار

فدخلت الخيمة أريد قتلها ، فلم أر أحداً، كأن الأرض ابتلعتها ، فاقتلعت الخيمة ، وسقت الماشية حتى انتهيت بها الى قومي بني(٢٧١) زبيد ·

أخبرناه أبو الحسن علي بن المسلم الفقيه ، وأبو الفرج غيث بن علي ، وأبو محمد عبدالكريم بن حمزة قالوا : أنا أبو الحسن بن أبي الحديد ، أنا جدي محمد بن أحمد بن عثمان ، أنا محمد بن جعفر بن سهل(٢٧٢) ،حدثني أبو الحارث محمد بن مصعب الدمشقي وغيره ، حدثني سليمان بن بنت شرحبيل الدمشقي، نا عبدالقدوس بن الحجاج قال: قال مجالد(٢٧٣) بن سعيد، عن الشعبي،عن رجل قال :

كنت في مجلس عمر بن الخطاب وعنده جماعة من أصحاب رسول الله (ﷺ) يتذاكرون فضائل القرآن، فقال بعضهم: خواتيم « سورة النحل »، وقال بعضهم: «سورة يس»، وقال علي بن أبي طالب: فأين أنتم عن فضيلة « آية الكرسي ؟ » أما انها خمسون كلمة، في كل كلمة سبعون بركة . وفي القوم عمرو بن معدي كرب لا يحير جواباً، فقال: فأين أنتم عن « بسم الله الرحمن الرحيم » ؟ فقال له(٢٧٤) عمر: حدثنا، يا أبا ثور، فقال:

بينا أنا في الجاهلية اذ جهدني(٢٧٥) الجوع، فأقحمت فرسي البرية، فما أصبت الا بيض النعام، فبينا أنا أسير اذا أنا بشيخ عربي في خيمة(٢٧٦)، والى جانبه جارية كأنها شمس طالعة، ومعه غنيمات له، فقلت له: استأسر، ثكلتك أمك! فرفع رأسه الي وقال: يا فتى، ان أردت قرى فانزل، وان أردت معونة أعناك، فقلت له: استأسر، فقال: [من الطويل]:

عرضنا عليك النزول(٢٧٧) منا تكرما ... فلم ترعوي(٢٧٨) جهلاً كفعل الأشائم

وجئت ببهتان وزور ودونما ... تمنيته بالبيض حز الحلاقم(٢٧٩)

ووثب الي وثبة(٢٨٠ وهو يقول: « بسم الله الرحمن الرحيم »٢٨٠) . فكأني(٢٨١) مثلت تحته، [ثم](٢٨٢) قال: أأقتلك أم أخلي عنك ؟ قلت(٢٨٣): بل خل عني [قال: فخلى عني](٢٨٤) . ثم ان نفسي حدثتني بالمعاودة، فقلت: استأسر، ثكلتك أمك! فقال:

ببسم الله والرحمن فزنا ... هنالك والرحيم به قهرنا

وما تغني جلادة ذي حفاظ ... اذا يوماً(٢٨٥) لمعركة برزنا

ثم وثب الي وثبة كأني مثلت تحته، فقال: أقتلك أم أخلي عنك ؟ قلت: بل خل عني، فخلى عني، فانطلقت غير بعيد، ثم قلت في نفسي: يا عمرو، أيقهرك مثل هذا الشيخ ؟! والله للموت خير لك من الحياة؛ فرجعت اليه: فقلت له: استأسر، ثكلتك أمك! فوثب الي وثبة وهو يقول: « بسم الله الرحمن الرحيم » فكأني مثلت(٢٨٦) تحته، فقال: أأقتلك أم أخلي عنك ؟ فقلت: بل خل عني، قال هيهات! [يا جارية](٢٨٢)، ائتني بالمدية، فأتته بالمدية، فجز ناصيتي ـ وكانت العرب اذا ظفرت برجل فجزت ناصيته استعبدته ـ فكنت معه أخدمه مدة . ثم انه قال: يا عمرو، أريد أن تركب معي الى البرية، فليس بي منك وجل، واني ببسم الله الرحمن الرحيم لواثق . قال: فسرنا حتى أتينا وادياً أشباً نشباً(٢٨٧)، مهولاً مغولاً، فنادى بأعلى صوته: « بسم الله الرحمن الرحيم » . فلم يبق طير في وكره الا طار، ثم أعاد الصوت، فلم يبق سبع في مربضه الا هرب، ثم أعاد الصوت فاذا نحن بحبشي قد خرج علينا من الوادي كالنخلة السحوق، فقال لي: يا عمرو، اذا رأيتنا قد اتحدنا فقل: غلبه(٢٨٨) صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم . قال: فلما رأيتهما قد اتحدا قلت: غلبه(٢٨٨) صاحبي باللات والعزى، فلم يصنع الشيخ شيئاً، فرجع الي وقال: قد علمت أنك قد خالفت قولي(٢٨٩)، قلت: أجل، ولست بعائد، فقال: اذا رأيتنا قد اتحدنا فقل: غلبه(٢٨٨) صاحبي ببسم الله

الرحمن الرحيم [قلت : أفعل . فلما رأيتهما قد اتحدا قلت : غلبه صاحبي ببسم الله الرحمن الرحيم](٢٨٢) قال:فاتكأ عليه الشيخ،فنفحه(٢٩٠) بسيفه فانشق جوفه ، فاستخرج منه شيئاً كهيئة القنديل الأسود ، ثم قال :يا عمرو ، هذا غشه وغله . ثم قال : أتدري من تلك الجارية ؟ [قلت : لا](٢٩١) ، قال :تلك الفارعة بنت السُلَيْل الجُرهُمي،وكان أبوها من خيار الجن ، وهؤلاء أهلها ، وبنوعمها يغزونني منهم كل عام رجل ينصرني الله عليه ببسم الله الرحمن الرحيم . ثم قال :قد رأيت ما كان مني الى الحبشي(٢٩٢) ، وقد غلب علي الجوع ، فأتني بشي آكله ،فاقتحمت فرسي(٢٩٣) البرية ، فما أصبت الا بيض النعام ، فأتيته(٢٩٤) به ، فوجدته نائماً، واذا تحت رأسه شيء كهيئة الخشبة ، فاستللته ، فاذا هو سيف عرضه شبر في سبعة أشبار،فضربت ساقيه ضربة أبَنْتُ الساقين مع القدمين ، فاستوى على قفار ظهره ،وهو يقول : قاتلك الله ما أغدرك ، يا غدار ! قال عمر : ثم ماذا صنعت ؟ قلت : فلم أزل أضربه بسيفه حتى قطعته ارباً ارباً . قال: فوجم لذلك ، ثم أنشأ يقول : [من البسيط] :

بالغدر نلت أخا الاسلام عن كثب ... ما ان سمعت كذا في سالف العرب
والعجم تأنف مما جئته كرماً ... تبا لما جئته في السيد الأرب(٢٩٥)
اني لأعجب أنى نلت قتلته ... أم كيف جازاك [عند الذنب لم تتب](٢٩٦)
قرم(٢٩٧) عفا عنك مرات وقد علقت ... بالجسم منك يداه موضع العطب
لو كنت آخذ في الاسلام ما فعلوا ... في الجاهلية أهل الشرك والصلب
اذاً لنالتك من عدلي مُشَطَّبة(٢٩٨) ... يدعى لذائقها بالويل والحرب

قال : ثم ماذا كان من حال الجارية ؟ قلت : ثم اني أتيت الجارية ، فلما رأتني قالت : ما فعل الشيخ ؟ قلت : قتله الحبشي ، قالت : كذبت ! بل قتلته أنت بغدرك . ثم أنشأت تقول : [من الخفيف] :

عين جودي للفارس المغوار ... ثم جودي بواكفات غزار
لا تملي البكاء أن(٢٩٩) خانك الدهـ .... ـر بوافي حقيقة صبار
وتقي ، وذي وقار وحلم ... وعديل الفخار يوم الفخار
لهف نفسي على بقائك عمرو ... أسلمتك الأعمار للأقدار
ولعمري لو لم ترمه بغدر ... رمت(٣٠٠) ليثاً بصارم بتار

فاحفظني قولها ، واستللت سيفي ، ودخلت الخيمة لأقتلها فلم أجد في الخيمة أحداً(٣٠١) فاستقت الماشية، وجئت الى أهلي.

أخبرنا أبو القاسم هبة الله بن محمد بن الحصين ، أنا الأمير أبو محمد الحسن بن عيسى ابن المقتدر ، نا أبو العباس أحمد بن منصور اليشكري قال : قرأت على ابن دريد ، أنا السَّكَن بن سعيد ، عن محمد بن عباد ، عن ابن الكلبي قال(٣٠٢) :

تزوج عمرو بن معدي كرب امرأة من كندة ـ وله حديث فذكره ابن الكلبي في أخبار كندة ـ فلما دخل بها أقام عندها ثلاثاً، وخاف أن يغتال فخرج من عندها فقال : ان ولدت غلاماً فسميه خزراً(٣٠٣) ، وان ولدت جارية فسميها عكرشة . ثم رحل عنها ، فولدت غلاماً ، فسمته خزراً ، فنشأ الغلام في كندة حتى أدرك ، فنادى فيهم بالغزو ، فخرج حتى أغار على بني زبيد ، فاذا هو بعمرو في خيل عظيمة ، وهو لا يعرفه ؛ فالتقت الخيلان، فشد خزر على أبيه ، فأخذه ، فسأله أن يعتقه، فقال : لو كنت عمرو بن معدي كرب ما فعلت، فقال : أنا عمرو ، قال : وانك لعمرو ؟ قال : نعم ، قال : وما آية ذلك ـ وكانت أمه قد أخبرته بخبر عمرو ، وما عهد اليها ـ فأخبره، فخلَّى سبيله ، فقال عمرو : يا خزر ، ما تسعني واياك أرض ؛ فان شئت فارتحل ، وأقيم أنا في هذه البلاد ، وان شئت ارتحلت أنا وأقمت أنت ، فقال : أنا أحق بالرحلة منك . فرحل خزر حتى الحق بصنعاء ، فمكث فيها دهراً من دهره، ثم خرج في بعض غاراته، فلقي أباه في خيل عظيمة ، وهو رئيسها ، فشدَّ عمرو على رئيس القوم ، فقتله ، فلما انكشفوا عرفه ، فأهوى بسيفه ليقطع يده ، فأمسك عن ذلك ، فقال(٣٠٤) :

أمرتُكَ يوم ذي صنعا ... ء أمراً بادياً رشَدُه
بأمرِ الحزم تعملُه ... وتأتيه ، وتعتمدُه
فلما أن ملكت الملـ ... ـك جئت(٣٠٥) أباك تقتصده
كمن زلَّت به النعـ ... ـلان(٣٠٦) فاندقت به عَضُدُه
ألم تعلم بأن أبا ... كَ ليثٌ فوقه لبدُه
شديد الكفِّ فيما أد ... ركت أظفاره ويَدُه

وقال أيضاً : [من الوافر] :

أيا أسفا(٣٠٧) على خزر بن عمرو ... فيا ندمي عليه ولهف نفسي
بني كان لي عضداً وذكراً ... اذا غُيِّبْتُ في كفني ورمسي
به فخر الفوارس من زبيد ... كأن جبينه لألاء شمس
فلا سُقّيْتِ(٣٠٨) يا كفي الغوادي ... ولاقيتِ البلاء وكلَّ نحس
وما تغني الندامة والمراثي ... وقد أصبحت مثل حديث أمس

أنبأنا أبو علي الحسن بن أحمد ، أنا أبو بكر أحمد بن الفضل بن محمد الباطرقاني أنا أبو عبدالله بن منده ، أنا أبو العباس القاسم بن القاسم بن عبدالله بن مهدي

السياري قال : قال جدّي(٣٠٩) أحمد بن سيار : نا خالد بن خداش ، أنا أبو تميلة(٣١٠) يحيى بن واضح ، حدثني رميح — يعني ابن هلال — عن أبيه قال :

رأيت(٣١١) عمرو بن معدي كرب في خلافة معاوية ، شيخ عظيم ، أعظم ما يكون من الرجال ، أجش الصوت ، اذا التفت التفت بجميع جسده .

أخبرنا أبو السعود أحمد بن علي البغدادي ، حدثنا أبو الحسين محمد بن علي بن المهتدي

ح وأخبرنا أبو الحسين محمد بن محمد بن الفراء ، أنا أبي(٣١٢) :

قالا : أنا عبدالله بن أحمد بن علي ، أنا محمد بن مخلد قال : قرأت على علي بن عمرو حدثكم الهيثم بن عدي قال : قال ابن عيّاش في تسمية العُور :

عمرو بن معدي كرب .

أنا أبو بكر محمد بن شجاع ، أنا أبو عمرو بن منده ، أنا أبو محمد بن يَوَه ، أنا أبو الحسن اللنْبَاني ، نا أبو بكر بن أبي الدنيا ، حدثني محمد بن عمر ، نا سعيد بن عامر ، عن(٣١٣) جُوَيرية بن أسماء قال :

شهد صفين غير واحد أبناء خمسين ومائة منهم : عمرو بن معدي كرب .

بلغني عن أبي عبيدة معمر بن المثنى :

أن عمراً شهد القادسية وهو ابن مائة وست سنين . ويقال(٣١٤): مائة وعشر(٣١٥).

أنبأنا أبو القاسم علي بن ابراهيم ، وأبو الوحش سُبَيع بن المسلم ، عن رشا بن نظيف ، أنا أبو شعيب محمد بن عبدالرحمن، وأبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن قالا : أنا الحسن بن رشيق ، أنا أبو بشر محمد بن أحمد ، حدثني أبو بكر الوجيهي — وهو أحمد بن محمد بن القاسم — عن أبيه ، عن صالح بن الوجيه قال :

في سنة احدى وعشرين كانت وقيعة نهاوند . ولقي النعمان بن عمرو بن مقرّن المشركين بنهاوند ، وهم يومئذ في جمع لا يوصف كثرة وعدة وكراعا(٣١٦) ؛ فاشتدت الحرب بينهم حتى قتل النعمان ، ثم انهزم المشركون في آخر النهار . وشهد عمرو بن معدي كرب نهاوند ، فقاتل(٣١٧) حتى كان الفتح ، وأثبتته(٣١٨) الجراح ، فحمل ، فمات بقرية من قرى نهاوند يقال لها روذة(٣١٩) .

قال أبو بكر الوجيهي : أنشدني غير أبي لدعبل(٣٢٠) : [من الطويل] :

لقد غادر الركبان حين تحمّلوا ... بروذة شخصا لا جبانا ولا غُمرا(٣٢١)

فقل لزبيد ، بل لمذحج كلها ... رزئتم أبا ثور قريعكم(٣٢٢) عَمرا

أخبرنا أبو القاسم هبة الله بن عبدالله ، أنا أبو بكر الخطيب ، أخبرني أبو الحسين أحمد بن محمد بن اقفرجل الوزان ، حدثني جدي لأمي أبو بكر محمد بن عبيدالله(٣٢٣) بن الفضل ، نا محمد بن يحيى النديم ، نا محمدبن الفضل ، نا أحمد بن يحيى بن جابر ، نا العمري ، نا هشام الكلبي ، حدثني ابن عمرو بن جرير ، عن خالد بن قطن ، حدثني من شهد موت عمرو بن معدي كرب قال :

وكانت مغازي العرب اذ ذاك الى الري ، فخرج حتى نزل روذة ، ورقد ، فلما أرادوا الرحيل أيقظوه ، فقام ، وقد مال شقه ،وذهب لسانه ؛ فلم يلبث أن مات ، فدفن بروذة ، فقالت امرأته الجمعية ترثيه :

لقد غادر الركب الذين تحملوا — بروذة شخصا لا ضعيفا ولا غُمْرا
فان تجزعوا لا يغنِ ذلك نقرة(٣٣٤) — ولكن سلوا الرحمن يُعقِبكم صبْرا

* * *

☐ الحواشي:

١ ـ طبقات ابن سعد ٥٢٥/٥ ، وسيرة ابن هشام ٢٣٠/٤ ،وطبقات خليفة ٦٩/١ (٤٩٩) ، والتاريخ الكبير ٣١٢/٦ ، والكنى والأسماء لمسلم (ل١٧) ، و تاريخ الثقات ٣٧١ ، والمعرفة والتاريخ ٣٣٢/١ ، والكنى والأسماء للدولابي ٦٥ ، والكنى والاسماء للحاكم (ل ٩٥) ، ومشتبه النسبة لعبد الغني ٤٥ ، والمؤتلف والمختلف للآمدي ٢٣٤ ، ومعجم الشعراء ١٥٦ ، والأغاني ٢٠٨/١٥ (ط • دار الكتب) ، والشعر والشعراء ٣٧٢/١ ، والأخبار الطوال ١٣٥ ، والجرح والتعديل ٢٦٠/٦ ، وجمهرة أنساب العرب ٤١١ ، والاكمال ٢٢١/٤ ، وكتاب الثقات لابن حِبّان ٢٧٨/٣ ، وذيل الأمالي ١٤٤ ، ١٥٠ ، والنوادر ١٩٠ ، والتنبيه ٤٨ ، والأخبار الموفقيات ٦٢٦ ، والاستيعاب ١٢٠١/٣ ، واسد الغابة ١٣٢/٤ ، والاصابة ١٨/٣ (٥٩٧٠) ، وهواتف الجنان (ق ٨٦ ب ـ ٨٩ أ/خ ٥٩ مج) ، وخزانة الأدب ٤٤٤/٢ ، والاشتقاق ٤١١ ، ٤١٣ ، ٥٤٦ ، والبداية والنهاية ١١٩/٧ •

٢ ـ الحديث في الاستيعاب واسد الغابة والاصابة ، والمعرفة والتاريخ ٣٣٣/١ والأخبار الموفقيات ، والكامل لابن عدي ١٣٥١/٤ ، وتاريخ بغداد ٥٥/٥ ، والبداية والنهاية ١١٩/٧ ، وميزان الاعتدال ٢٦٨/٢ ، وكنز العمال رقم (١٢٤٢٠) ، والأبيات ـ عدا الخامس ـ في تاريخ بغداد ، والكامل في الضعفاء ، وهي عدا الخامس وبزيادة بيت في الاستيعاب والبداية والنهاية واسد الغابة •

٣ ـ الخَبت : ما تطامن من الارض وغمض ، فاذا خرجت منه افضيت الى سعة ، وهو علم لصحراء بين مكة والمدينة ، وخبت من قرى زبيد ، معجم البلدان ٣٤٣/٢ •

٤ ـ الغضا : شجر عظيم من الاثل ، والسمر كرجل شجر من العضاه •

٥ ـ قال ياقوت : « محسر ـ بالضم ثم الفتح وكسر السين المشددة وراء ـ موضع ما بين مكة وعرفة ، وقيل : بين منى وعرفة ، وقيل : بين منى والمزدلفة • معجم البلدان ٦٢/٥ •

٦ ـ عرَنة بوزن همزة ، بطن عرنة : واد بحذاء عرفات : وقيل : بطن عرنة : مسجد عرفة والمسيل كله • معجم البلدان ١١١/٤ •

٧ ـ في الأصل : « حدثني ابراهيم » •

٨ ـ كذا من هذا الطريق ، والصواب « زَبّار » • قارن بالاكمال ١٧٤/٤ ، وانظر التعقيب في آخر الخبر •

٩ ـ س ، ز : « قبل » •

١٠ ـ شزرا : اي يمين وشمال •

١١ـ سفرت الريح التراب والورق تسفره سفرا ، كنسته •

١٢ ـ د : « زياد » •
١٣ ـ تاريخ بغداد ٥/٥٥ •
١٤ ـ زاد في تاريخ بغداد : « الزبيدي » •
١٥ ـ د ، س ز : « وقومنا » •
١٦ ـ س : « على بطن » ، د : « بطن عرفة انهم » •
١٧ ـ سقطت من د •
١٨ ـ د : « نا » •
١٩ ـ تاريخ بغداد ٥/٢٨١ •
٢٠ ـ سقطت من د •
٢١ ـ ليست في تاريخ بغداد •
٢٢ ـ في تاريخ بغداد : « نقول كما علمنا » •
٢٣ ـ في تاريخ بغداد : « لبيك لبيك » •
٢٤ ـ ز ، د ، س : « يعلم » •
٢٥ ـ ز ، س : « ابن طوق » ، ووقع في د : « عمر بن طوق »
٢٦ ـ س : « قطامي » •
٢٧ ـ المعرفة والتاريخ ١/٣٣٢ •
٢٨ ـ في المعرفة والتاريخ : «ابن أبي‌طوق» • ووقع في د : « عمرو بن سمرة بن ابي طوق » •

٢٩ ـ كذا من طريق المعرفة • تقدم : « شَرَاحيل » •
٣٠ ـ ٣٠ سقط ما بينهما من المعرفة •
٣١ ـ د : « الصنعاني » •
٣٢ ـ د ، ز ، س : « عبيد » •
٣٣ ـ د : « ابو عبد » •
٣٤ ـ د : « سمرة » •
٣٥ ـ د ، ز ، س : « ابن » •
٣٦ ـ الكنى والأسماء للحاكم (ل ٢٩٦) •
٣٧ ـ الكامل في الضعفاء (١٣٥١) •

٣٨ ـ في د ، س ، ز : « علي بن طلق » ، والصواب من الكامل •
٣٩ ـ مشتبه النسبة ٤٥ •
٤٠ ـ سقطت : « ابن محمد » من د •
٤١ ـ قارن بالمعبر ٢٦١ ، ٣٠٣ ، وبما يلي في ص١٤٣ •
٤٢ ـ طبقات خليفة ١/١٦٩ (٤٩٦) •
٤٣ ـ د ، ز ، س : « آن » •
٤٤ ـ ٤٤ ليس ما بينهما في طبقات خليفة •
٤٥ ـ د ، س ، ز : « عصيم » •
٤٦ ـ كذا ضبط في طبقات خليفة ضبط قلم ، وسياتي من طريق الحاكم « اسِيلة » •

٤٧ ـ ما بينهما زيادة لتمام السند ، وسقط من النسخ •
٤٨ ـ في النسخ : « ابن الجوهري » •

٤٩ ـ في النسخ : « من يزيد بن بصرة يعني يعطي نصرة على ابن أود» •زبده يزبده زبداً:أعطاه والزبد ـبسكون الباء ـ الرفد والعطاء • قال ابن دريد : « وانما قال : من يزبدني رفده ؟ فسموا زبيداً • الاشتقاق ٤١١ •

٥٠ ـ في النسخ : « عصيم » •
٥١ ـ التاريخ الكبير ٦/٣١٢ •
٥٢ ـ س : « ابن القاضي » •
٥٣ ـ الجرح والتعديل ٦/٢٦٠ •

٥٤ ـ في الجرح والتعديل : « الزبيدي ابو ثور » •
٥٥ ـ زاد بعدها في الجرح والتعديل : « بالمدينة ، وكان » •
٥٦ ـ الكنى والاسماء لمسلم (ل ١٧) •
٥٧ ـ سقط ما بين حاصرتين من السند ، وموضعه معروف فيـه •

٥٨ ـ الكنى والأسماء للدولابي ١/٦٥ •
٥٩ ـ سقطت من النسخ •
٦٠ ـ س ، ز : « بن عمرو بن عمرو » •
٦١ ـ قبلها في د ، س ، ز : « نا » وفي د : « رواد » •

٦٢ ـ الكنى والاسماء للحاكم (ل ٩٥) •
٦٣ ـ كذا ضبط في الكنى ضبط قلم • وقد تقدم من طريق خليفة (اسيلة) ضبط قلم ايضاً •
٦٤ ـ سقطت من د •

٦٥ ـ مشتبه النسبة لعبد الغني ٣٤ •
٦٦ ـ في مشتبه النسبة : « يروى » •
٦٧ ـ سقطت من س ، ز •
٦٨ ـ د : « وادرك » •
٦٩ ـ الاكمال ٤/٢٢١ •
٧٠ ـ طبقات ابن سعد ٥/٥٢٦ وفيه خلاف في الرواية •
٧١ ـ في د : « عمرو » •
٧٢ ـ د : « قال : ممن » •

٧٣ ـ د : « الهجرة » في اللسان: «البحرة : الارض والبلدة، ويقال : هذه بحرتنا ، اي ارضنا • والبحيرة : مدينة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي تصغير البحرة ، وقد جاء في رواية مكبراً » •

٧٤ ـ س : « بناقته » •
٧٥ ـ د ، س : « وحيّاه » ، ولا نقط في ز ، حباه العطاء وبالعطـاء •
٧٦ ـ ٧٦ سقط ما بينهما من د •

٧٧ ـ اخرجه الحافظ ابن عساكر في التاريخ ترجمة قيس بن هبيرة بن مكشوح من هذا الطريق وغيره (انظر التاريخ م ٤١ ل ٤٨/ أزهر) ، والمختصر ١٢٣/٢١ ، والخبر مع الأبيات في سيرة ابن هشام ٢٣٠/٤ ، وانظر شعر عمرو ٨٧ .

٧٨ ـ د : « زمام » .

٧٩ ـ د : « الهجرة » . تقدم تفسير الكلمة .

٨٠ ـ في الحديث : « فجعل يتحطم عليه غيظا : أي يتلظى ويتوقد ، ماخوذ من الحطمة ، وهي النار التي تحطم كل شيء، وتجعله حطاما . اللسان « حطم » .

٨١ ـ في شعر عمرو : « تتعده » ، وستاتي هذه الرواية ، وقد اضطرب اعجام اللفظة في النسخ ، وما أثبته اعجام أصل التاريخ في ترجمة قيس . افد الشيء : قرب ، والأفد العجلة .

٨٢ ـ في شعر عمرو : « غثره » ، وفي المثل : « عي عاره وتده » ، عاره : اهلكه . واصل المثل أن رجلا أشفق على حماره فربطه الى وتد ، فهجم عليه سبع ، فلم يمكنه الفرار ، فاهلكه ما احترس له به .

٨٣ ـ شعر عمرو ١٠٩ ، وتخريج البيتين فيه .

٨٤ ـ ساق : شمّ ، ووقع في د : « لعذر » وفي س : « بعذر » . قذر : وصف من القذارة .

٨٥ ـ رواية الديوان : « وانك لو رايت ابا عمير ملأت يديك من غدر وختر » . الحولاء بضم الحاء وكسرها وفتح الواو ـ جلدة ماؤها اخضر تخرج مع الولد ، وفيها اغراس وعروق وخطوط خضر وحمر ، وهي من الناقة كالمشيمة للمراة .

٨٦ ـ المكالبة : المشارة ، وكالب الرجل : ضايقه .

٨٧ ـ سيرة ابن هشام ٢٣٠/٤ « ابياري » .

٨٨ ـ ديوانه ٨٧ ، وفيه تخريجها .

٨٩ ـ في الديوان والسيرة : « تتعده » .

٩٠ ـ المفاضة : الدراع الواسعة . النهي بكسر النون وفتحها ـ الغدير من الماء.الجدد: الأرض الصلبة،شبه الدرع بالغدير في صفائها واطرادها .

٩١ ـ د : « عوامر قصده » . القصد : جمع قصدة ـ بكسر فسكون ـ وهو ما تكسر من الرمح . عواثر : مفردها عاثر ، وهو من السهام والحجارة الذي لا يدرى من رماه ، يعني أن الرمح يرتد عن تلك الدرع متاثراً منثني السنان من غير ان يؤثر فيها .

٩٢ ـ في الديوان والسيرة : « للقيت ليثا » . اللبد ـ بكسر اللام وفتح الباء ـ ما على كتف الأسد ورأسه من الشعر .

٩٣ ـ في الديوان والسيرة : « اذا للقيتم شثن » . شثن البراثن : غليظها ، والبراثن للسباع بمنزلة الأصابع للانسان ، وناشز : مرتفع . والكتد : بفتح التاء وكسرها ـ مابين الكتفين . ورواية ذيل الأمالي :

« يزيف كما يزيف الفحـ ـل فوق شؤونه زبده » .

٩٤ ـ يعتضده : ياخذه تحت عضده ليصرعه .

٩٥ ـ فيقتصده : اي يقتله .

٩٦ ـ د ، س ، ز : « فيدفعه » والاشبه ما اثبته من السيرة والديوان ، يدمغه : يصيب دماغه . يحطمه : يكسره . يزدرده : يبتلعه . وفي الديوان : « يغضمه » بدل : « يقضمه » .

٩٧ ـ ظلوم الشرك : لا يشرك معه أحداً في صيده .

٩٨ ـ رواية الديوان : « فامسى يعتريه من الـ .. بعوض ممنعاً بلده » .

٩٩ ـ د ، س ، ز : « ابنه كبده » ، وكنى بلين الكتف هنا عن الضعف .

١٠٠ ـ ١٠٠ سقط ما بينهما من د .

١٠١ ـ سقطت من د .

١٠٢ ـ د : « لا قيت » .

١٠٣ ـ الشنبث : الذي يتعلق بقرنه ولا يزايله .

١٠٤ ـ ما بينهما كثر التصحيف في نسخ التاريخ ، والوجه فيه ـ ان شاء الله ـ ما اثبته .
١٠٥ ـ ديوان عمرو ١٦٨ ، وفيه تخريج القصيدة .
١٠٦ ـ في الديوان : « بان » .
١٠٧ ـ في الديوان : « جاءنا بالناموس » . الناموس : جبريل ـ عليه السلام ـ وقيل : الناموس السر .
١٠٨ ـ س ، ز « جديد » ، د : « جدير » .
١٠٩ ـ د : « ان لم تكن نرى » ، س : « ان لم يكن يرى »، ومثله في ز من غير اعجام ، والمثبت من الديوان .
١١٠ ـ تصحف اعجام هذا البيت في نسخ التاريخ ، وصواب اعجامه من الديوان .
١١١ ـ في الديوان : « غداة » .
١١٢ ـ قال محقق شعر عمرو : « لم تكن غطفان مع هوازن يوم حنين » .
١١٣ ـ المران ـ بالضم ـ الرماح الصلبة اللدنة ، واحدتها مرانة .
١١٤ ـ رواه من هذا الطريق الطبري في التاريخ ٣٢٩/٣ ، وقد تصحف رجال السند في ز ، د ، س والصواب من الطبري
١١٥ ـ س : « ابن المصاص » ، د : « ابن العصاص » ، والصواب من الطبري .
١١٦ ـ في الطبري : « مستجيبا » .
١١٧ ـ د ، س ، ز : « عمرا » ، والصواب من الطبري .
١١٨ ـ ١١٨ سقط ما بينهما من د .
١١٩ ـ أخرجه صاحب الكنز برقم (١١٤٤١) من طريق ابن‌عساكر .
١٢٠ ـ سقطت من د .
١٢١ ـ الأبيات في ديوانه ١٥٩ ، وتخريجها فيه .
١٢٢ ـ بعده في النسخ : « ليس عنده تمام البيت » ولهذا البيت الذي لم يذكره الديوان روايات مختلفة في المصادر ذكرها محقق الديوان منها :

« وهبت لخالـد سيفي ثوابـا علـم صمصامة أم سيـف أم سـلام

ويلاحظ اللهجة الحميرية في هذه الرواية ، وهي « ام » بدل « ال » في بداية الكلمة .
١٢٣ ـ رواية الديوان : « خليل لم اخنه ولم يخني كذلك ما خلالي او ندامي
١٢٤ ـ التدام النساء : ضربهن صدورهن بالنياحة .
١٢٥ ـ ١٢٥ سقط ما بينهما من د .
١٢٦ ـ س ، ز : « أسود » د : « سودا » ، والأشبه ما اثبته ، أراد عدداً كبيراً من الناس .
١٢٧ ـ كذا في نسخ التاريخ ، وسيتكرر من طرق . وفي حديث عمرو بن معدي كرب : « كونوا أسداً عناشاً » قال ابن قتيبة : « قوله : عِناشاً هو من عانشت الرجل ، اي عانقته ، والعناش مصدر عانشت : يقال : رجل عناش عدو ، اذا كان يعانق قرنه في النزال ، وقد يوصف الرجل بمصدر الفعل » غريب الحديث ٥٧٠/٢ ، يوافقه الفائق ٣٤/٣ ، والنهاية ٣٠٩/٣ ، واللسان : « عنش » .وحديث عمرو في الأغاني ٢١٥/١٥ (ط. دار الكتب) ، ولفظه فيه : « كونوا أسداً أغنى شأنه » ، وجاء في هامش التحقيق : « أغنى شأنه : كفى نفسه ، لم يستعن بشيء ، قال المتلمس :

أغنيت شأني فاغنوا اليـوم شانكـم واستجمعوا في مراس الحرب أو كيسوا

وقريب من رواية الأغاني رواية تاريخ الطبري ٥٧٦/٣ : « كونوا أسوداً ، فانما الأسد من أغنى شأنه » ، ونقل ابن عساكر تفسير ابن قتيبة لغريب الحديث بعد أن استوفى رواياته وان صحت الرواية فالرفع على انه خبر لمبتدأ محذوف اي كلٌ أسدٌ أغنى شانه .
١٢٨ ـ في د ، س ، ز : « بتركه » . النيـزك : الرمـح القصيـر .
١٢٩ ـ أساورة الفرس : قوادها ، وهو اسوار من الأساورة ، للرامي الحاذق ، والنشاب : النبل ، واحدته نشابة .
١٣٠ ـ تاريخ الطبري ٥٢٧/٣ . ورواه ابن حجر في الاصابة ١٩/٣ .
١٣١ ـ المزراق من الرماح : رمح قصير ، وقد زرقه بالمزارق زرقا اذا طعنه أو رماه به .
١٣٢ ـ سية القوس : طرف قابها ، وقيل : راسها ، وقيل :ما اعوج من راسها .

١٣٣ ـ س : « مناكس » ، د : مناكر » .
١٣٤ ـ اليلمق : القباء ، فارسي معرب .
١٣٥ ـ رواه الطبري في التاريخ ٥٧٦/٣ .
١٣٦ ـ زيادة لتمام الكلام ، وفي د : « أسد أغنى » . بالنصب يقدر فعل محذوف ، أي أخص أسداً أغنى شانه .
١٣٧ ـ د ، ز ، س : « سوار » .
١٣٨ ـ العكب : الغبار .
١٣٩ ـ د ، س ، ز : « وكلى بي » .
١٤٠ ـ في النسخ : « أنا عمر » .
١٤١ ـ الخبر من هذا الطريق في الأغاني ٢١٨/١٥ « ط. دار الكتب » .
١٤٢ ـ د ، س ، ز : « فنزلنا » ، والصواب من الأغاني .
١٤٣ ـ س : « أخذنا » ، د : « احذر ح » .
١٤٤ ـ د ، س : « بالاسوار » .
١٤٥ ـ د : « وحدثني » .
١٤٦ ـ الخبر في الأغاني ٢١٧/١٥ برواية أخرى ، وذكر أبو الفرج هذه الرواية .
١٤٧ ـ د ، س ، ز : « فهزه » ، همز الدابة يهمزها همزاً : غمزها . والغمز : العصر باليد .
١٤٨ ـ في النسخ : « عقرني » ، تحريف ، عقروا به ، أي عقروا فرسه .
١٤٩ ـ الخبر من هذا الطريق في الطبري ٥٥٤/٣ .
١٥٠ ـ س : « من جزور وبعيره » ، وفي د : « من جز جزور وبعيره » ، وليست : « بغيره » في الطبري .
١٥١ ـ حاضر : عدا .
١٥٢ ـ د : « قسمتهم » .
١٥٣ ـ شعر عمرو ١١٤ .
١٥٤ ـ الشامات : جمع شامة ، وهي الأثر الأسود في البدن وفي الأرض .
١٥٥ ـ الأرصاد : جمع رصد ـ بالتحريك ـ وهو المطر يأتي بعد المطر ، والديم جمع ديمة ، وهي المطر الدائم .
١٥٦ ـ د ، س : « أمير المؤمنين » .
١٥٧ ـ الألية : اليمين .
١٥٨ ـ حرق نابه : سحقه حتى سمع له صريف ، وذلك من غيظ أو غضب .
١٥٩ ـ هبلت : دعاء عليه بأن تهبله أمه أي تثكله . الجلاد : الضرب بالسيف في القتال . الخامعة : الضبع ، والوجار: جحرها .
١٦٠ ـ الطعن الشزر : ما طعنت بيمينك وشمالك . البيض والأسل : السيوف والرماح . الحرار : جمع حرى ، يريد العطش للدماء .
١٦١ ـ قال الأصمعي : « أريكة : ماء لبني كعب بن عبد الله بن أبي بكر بقرب عقلان، وهو جبل بنجد». معجم البلدان ١٦٦/١
١٦٢ ـ الذمار : ما يلزم الرجل حفظه وحمايته .
١٦٣ ـ انظر شعر عمرو ١٥٤ ، وتخريج الأبيات فيه .
١٦٤ ـ رواية شعره : « ان بنا من حبها ديدنا » . الديدن : العادة .
١٦٥ ـ رواية شعره : « وجاراتها » .
١٦٦ ـ قطرا الانسان : ناحيتاه . وطعن الفارس الفارس فقطره اذا القاه على أحد قطريه والبيت من شواهد اللسان « قطر » ، وتمثل به علي قوله : « اذا صرعت الرجل صرعة شديدة قلت : قطرته » .
١٦٧ ـ الحيازيم جمع حيزوم ، وهو ما حول الصدر .
١٦٨ ـ رواية شعره : « زيماً بيننا » .
١٦٩ ـ غريب الحديث ٥٧٠/٢ .
١٧٠ ـ د ، س : « أبي » .
١٧١ ـ ما بين حاصرتين زيادة من الغريب .

١٧٢ ــ في الغريب : هذا الحرف على المصدر ، وقد يوصف الرجل بمصدر الفعل .
١٧٣ ــ د ــ س ، ز : « الحرف » .
١٧٤ ــ في اللسان : « يجمع .. يؤنث » .
١٧٥ ــ البيت من خمسة أبيات في اللسان « كرم » ، ونسبه لأبي خالد القناني . وهو ثالث ثلاثة أبيات في اللسان « كسا » ونسبه لسعيد بن مسحوج الشيباني .
١٧٦ ــ في الغريب : « عبيد الله بن جعفر للحسين » .؟
١٧٧ ــ د ، س : « ميت » ، والصواب من الغريب ، اثبت فلان فهو مثبت اذا اشتدت به علته .
١٧٨ ــ س : « المسلم » .
١٧٩ ــ قارن بالطبري ٥١٦/٣ .
١٨٠ ــ د ، س ، ز : « طلحة » .
١٨١ ــ انظر ديوانه ١٧٤ .
١٨٢ ــ القربوس : حنو السرج .
١٨٣ ــ ز ، س ، د : « بكر بن سمار » . والخبر من هذا الطريق في الاغاني ١٥ (٢٢٣ ــ ٢٢٤) ، وجاء الاسم فيه على الصواب . وقارن بتهذيب الكمال ٢٥١/٤ ، وتهذيب التهذيب ٤٩٥/١ .
١٨٤ ــ ز ، د ، س : « الغضر » ، تصحيف ، والصواب من الأغاني .
١٨٥ ــ التدله : ذهاب العقل ، ودله عقله تدليها .
١٨٦ ــ ز ، د ، س : « قيس » .
١٨٧ ــ قارن بالأخبار الطوال ١٣٥ ، والأغاني ٢١٥/١٥ .
١٨٨ ــ د ، س : « علياء » .
١٨٩ ــ د ، س : « يستعملهم » .
١٩٠ ــ أصاب الاسناد في النسخ سقط وتصحيف ، وقد تم تقويم ما أمكن منه بالمقارنة .
١٩١ ــ الخبر برواية أخرى في الأغاني ٢١٤/١٥ .
١٩٢ ــ د ، س ، ز : « فقال » .
١٩٣ ــ د : « بضاً » . الضنى : المرض . وقد ضني ضنىً .
١٩٤ ــ الجذعة من الضان هي التي دخلت السنة الثانية .
١٩٥ ــ في الأغاني : « الف هاهنا ، واوما الى شق بطنه الأيمن ، والف هاهنا ، واوما الى شق بطنه الأيسر ، فما يكون هاهنا ؟ واوما الى وسط بطنه » .
١٩٦ ــ الخبر برواية أخرى في الأغاني ٢٢١/١٥ .
١٩٧ ــ يراجع في هذا الخبر وتفسير غريبه : البيان والتبيين ٦٨/٢ ، وعيون الأخبار ١٢٧/١ ، وغريب الحديث ١٦٧/٢ ، ٩٣/١ ، والشعر والشعراء ٣٧٢/١ ، وجمهرة الأمثال ٣٤٨/١ ، ومنال الطالب ٣٢٧ ، والفائق ، وغريب الخطابي والعقد الفريد ٦٥/٢ ، وبهجة المجالس ٤٦٩ ، واللسان : « حبا » .
١٩٨ ــ الذرة : واحدة الذر ، وهو صغار النمل .
١٩٩ ــ العريسة والعريس : الشجر الملتف ، وهو ماوى الأسد . والنمرة : بردة من صوف يلبسها الأعراب ، كانها أخذت من لون النمر لما فيها من سواد وبياض .
٢٠٠ ــ الحبوة والحِبوة والحبية : الاشتمال ، وهو أن يضم الانسان رجليه الى بطنه بثوب يجمعهما به مع ظهره ، ويشده عليها ، وقد يكون الاحتباء باليدين عوض الثوب . قال ابن الأثير في حديث سعد : « هكذا جاء في رواية ، والمشهور بالجيم » . وقال ابن قتيبة : « قوله : نبطي في حبوته ، لم يرد أنه يحتبي احتباء النبطي ، لأن الاحتباء للعرب ، ولكنه أراد : في حبوة العرب كالنبطي في علمه بأمر الخراج وعمارة الأرضين ــ وان كان المحفوظ حبوته ــ فانه يراد جباية الخراج » .
٢٠١ ــ العاتق : الشابة أول ما تدرك ، ووقع في د : « حملها » ، ولم تعجم الجيم في ز . الحجلة : مثل القبة ، حجلة العروس ، والجمع حِجال وحجل . قال العسكري : « وصفه بالحياء » .

٢٠٢ ـ د ، س ، ز : « اقبلت وتثني » •

٢٠٣ ـ في النسخ : « علقمة بن خالد » ، والصواب من منال الطالب ، وفيه : « علة بن جلد : هو أبو بطون كبيرة من اليمن : وهو : علة بن جلد بن مالك بن ادد ، من بني زيد بن كهلان بن سبأ ، ومالك هو مذحج » •

٢٠٤ ـ الاعراض : جمع العُرض ـ بالضم ـ وهو الجانب ، أي يحمون نواحيها عن قصد العدو واختطافه ، او هو جمع العرض ـ بالفتح ـ وهو الجيش ، او هو جمع العرض ، وهو النسب والحسب •

٢٠٥ ـ د : « شداد فراضها » • فرضة النهر : ثلمته التي منها يستقي • والفرضة : كل شق او حز • والعبارة بمعنى التي تقدمتها •

٢٠٦ ـ في د ، ز ، س : « شغل مراضها » • قال ابن قتيبة : : « شفاء أمراضنا ، يريد أنهم يدركون لنا ثارنا ، وياخذون لنا بدمائنا ، فيشفون انفسنا » •

٢٠٧ ـ اللحن : لغة العرب باعرابها ، واللحن ، الفطنة ، وأراد أنهم فصحاء ، يضعون الكلمة في موضعها ، ويملكـون الحجة والدليل على كلامهم •

٢٠٨ ـ سعد العشيرة : هو اخو جلد بن مالك ، وهو أبو بطون كبيرة •

٢٠٩ ـ الخميس : الجيش الذي له خمسة اركان •

٢١٠ ـ شريس : فعيل من الشراسة ، وهو النفور وسوء الخلق •

٢١١ ـ س : « نسله نسكة » ، د : « نسكة مسكة » • الحسكة في الأصل : شوكة صلبة معقفة ، شبههم في امتناعهم على من ارادهم بالحسكة • والمسكة : رجل مسكة ـ بضم الميم وفتح السين ـ اذا كـان لا يعلق بشيء ، فيتخلص منه ، ولا ينازله منازل فيفلت منه ، ولهذا قيـل للبخيل : مسكة ، لانه يمسك ما في يده فلا يخرجه الى احد •

٢١٢ ـ مراد : هو اخو جلد وسعد العشيرة •

٢١٣ ـ المساعير : جمع مسعار ، وهو الذي تسعر به نار الحرب • يقال : سعرت النار ، اذا أوقدتها •

٢١٤ ـ الفخرة : جمع فاخر ، من الفخر : الشرف •

٢١٥ ـ ابعدنا آثاراً : اي ابعـدنا ذكراً وصيتاً • والأوتار مفردها وتر ، وهو الثار •

٢١٦ ـ ٢١٦ سقط ما بينهما من د •

٢١٧ ـ القرار : اي الموضع الذي يستقر فيه ، اي هم اكرمهم منازل •

٢١٨ ـ أهل الدعارة : أهل الفساد والشر ، ورجل داعر : خبيث •

٢١٩ ـ ديوانه ٣٥٣ (٩٦) ، والابيات في الشعر والشعراء ٣٧٣/١ ، والعقد الفريد ٩٤/١ ، وبهجة المجالس ٤٦٩ من غير عزو • وروى ابن الاثير في النهاية ٤١٢/٣ الشطر الأول من البيت الأول ، وضبط « فتية » بضم الفاء وفتح التاء على التصغير •

٢٢٠ ـ في العقد الفريد : « حليل » •

٢٢١ ـ في عيون الأخبار : « للثم » •

٢٢٢ ـ ٢٢٢سقط ما بينهما من د •

٢٢٣ ـ د : « انك تقارع الثكل يا عمر •• انك » ، وفي الشعر والشعراء : « ثم قارعتك أمك عن الثكل » ، وفي جمهرة الأمثال : « قارعت أمك الثكل ، قال : بل أمك . قال : بل أمي ، والحمى اضرعتني لك » •

٢٢٤ ـ د ، س ، ز : « لليوم » • وقوله : الحمى أضرعتني لك ، يضرب مثلا للأمر يضطر صاحبه الى الخضوع ، وهو لعمرو بن معدي كرب قاله لعمر بن الخطاب • انظر جمهرة الأمثال ٣٤٨/١ • والرواية الأخيرة في مجمع الامثال ٢٠٥/١ ، وقال : « الحمى اضرعتني للنوم • قال المفضل : اول من قال ذلك رجل من كلب يقال له مريـر ، ويروى : مرين •• » وساق خبر المثل •

٢٢٥ ـ س ، ز : « سلامة » •

٢٢٦ ـ د ، س ، ز : « من كندها » •

٢٢٧ ـ في الأصل « شيئة » ، وغم علي بعدها ثلاث كلمات • ولعل « سنسنتك » الصواب بدل شيئاً وهي رأس عظـام الصدر او فقار الظهر •

٢٢٨ ـ تاريخ الثقات ٣٧١ •

٢٢٩ ـ د : « انهما » •
٢٣٠ ـ د ، س ، ز : « لصيعة » • انظر الخبر من الطريق التالي •
٢٣١ ـ أراد بالعزوم استه ، أي صبور مُجدة صحيحة العقد، يريد أنها ذات عزم وصرامة ، وحزم وقوة ، وليست بواهية فتضرط ، وانما أراد نفسه • وقوله : مُفزعة : بها تنزل الأفزاع فتجليها • اللسان : « عزم » •
٢٣٢ ـ الخبر برواية أخرى في الأغاني ١٥/٢٢٣ « ط • دار الكتب » •
٢٣٣ ـ في د : « الصحب » ، س ، ز : « المصحب » ، والمثبت من الأغاني •
٢٣٤ ـ س « قم » •
٢٣٥ ـ د ، س : « الحسن » •
٢٣٦ ـ المجالسة وجواهر العلم (ل ٢٥٧) ، وفي ديوانه ٢١٤ (٢١) تخريج واف للخبر •
٢٣٧ ـ د : « عمرو » •
٢٣٨ ـ سقطت من المجالسة •
٢٣٩ ـ زادت د بعدها : « فقال : يا أمير المؤمنين » •
٢٤٠ ـ د : « بعجيب » •
٢٤١ ـ د : « الى » ، رفع لي الشيء : أبصرته من بعد •
٢٤٢ ـ في المجالسة : « الجزع » •
٢٤٣ ـ في المجالسة : « قال : ونهض » •
٢٤٤ ـ الغلصمة : رأس الحلقوم ، والجمع الغلاصم •
٢٤٥ ـ س : « وقدعتني » •
٢٤٦ ـ القماقم من الرجال : السيد الكثير الخير ، الواسع الفضل ، والهزبر كدرهم : الأسد •
٢٤٧ ـ في الديوان : « تحاجم » •
٢٤٨ ـ في الديوان : « فسلمن » ، وربما كان الصواب : « سلمها » •
٢٤٩ ـ في الديوان والنسخ « سلمن » ، وما أثبته من المجالسة •
٢٥٠ ـ في المجالسة : « استانس » •
٢٥١ ـ في المجالسة : « أ اقتلك » •
٢٥٢ ـ س : « يعطله » ، د « نعطله » ، والمثبت من المجالسة •
٢٥٣ ـ في المجالسة : « جز » •
٢٥٤ ـ في المجالسة : « اهالينا » •
٢٥٥ ـ في ز ، د ، س « عليه » ، وما أثبته من المجالسة •
٢٥٦ ـ في د ، س والمجالسة : « فنفخه كما ينفخ » نفحت الدابة تنفح : رمحت برجلها ، ورمت بحد حافرها ودفعت •
٢٥٧ ـ د : « فقلت » •
٢٥٨ ـ د ، س : « وهؤلاء » ، والصواب من المجالسة •
٢٥٩ ـ في المجالسة : « قال » •
٢٦٠ ـ في المجالسة : « قال : •• رأيت أنت » •
٢٦١ ـ د : « مما » •
٢٦٢ ـ في المجالسة : « فاتيته به » •
٢٦٣ ـ في المجالسة : « مرار » •
٢٦٤ ـ س : « اذا » • أف : كلمة تضجر ، وفيها عشرة أوجه ، ومن قال : أفاً لك ، نصبه على مذهب الدعاء كما يقال: ويلاً للكافرين • اللسان : « أف » •
٢٦٥ ـ د : « كفاك اليوم مني » ، وفي المجالسة : « لنالك اليوم مني » ، وفوق : « مني » ضبة •

٢٦٦ ـ سقطت من د .
٢٦٧ ـ في المجالسة : « ثم تقول » :
٢٦٨ ـ كذا في المجالسة . وفي ز ، س : « وفي عهرهم » ، و د : « وفي عمرهم » ويستقيم الوزن والمعنى لو قيل « سبع في الفلا وفي « بعهد » ؟ .
٢٦٩ ـ في النسخ : « يا عمرو » .
٢٧٠ ـ د : « جز » .
٢٧١ ـ سقطت : « بني » من د ، س ، و « الى » من المجالسة .
٢٧٢ ـ سقطت اللفظة من د ، وانظر هواتف الجنان للخرائطي (مج ٥٩ ق ٨٦ ب ـ ٨٩ أ) .
٢٧٣ ـ في هواتف الجنان : « لنا مجالد » .
٢٧٤ ـ ليست في هواتف الجنان .
٢٧٥ ـ س : « جهر بي » .
٢٧٦ ـ د ، س : « عربي الغيمة » .
٢٧٧ ـ د ، س ، ز : « البر » ، والمثبت من الهواتف تقدم مثله من الطريق السابق .
٢٧٨ ـ كذا باثبات الياء لضرورة الوزن ، وقد تقدم مثله .
٢٧٩ ـ تقدم من طريق آخر : « الفلاصم » .
٢٨٠ ـ ٢٨٠ سقط ما بينهما من د .
٢٨١ ـ س : « وكاني » د : كاني » .
٢٨٢ ـ ما بينهما زيادة من هواتف الجنان .
٢٨٣ ـ د ، س ، ز : « قال » ، والمثبت من الهواتف .
٢٨٤ ـ في الهواتف : « حادلتني » .
٢٨٥ ـ د ، س : « يوم » .
٢٨٦ ـ ضبطت لام الكلمة بالتشديد في الهواتف .
٢٨٧ ـ أشب الشجر أشباً : التف . وموضع أشب أي كثير الشجر ، ونشب الشيء في الشيء نشباً ونشوباً ، لم ينفذ .
٢٨٨ ـ د ، س : « عليه » .
٢٨٩ ـ د : « قومي » .
٢٩٠ ـ د ، س : « فنفخه » ، وفي الهواتف : فنفجه » .
٢٩١ ـ زيادة من الهواتف .
٢٩٢ ـ س : « رأيت مني ما كـان مني الى الحبشة » ، د : « رأيت مني ما كان يمشي الى الحبشي » .
٢٩٣ ـ في الهواتف : « بفرسي » ، وقد تقدم مثله .
٢٩٤ ـ د : « ابنة » .
٢٩٥ ـ س : « الأدب » .
٢٩٦ ـ ما بينهما كثير التصحيف في النسخ ، والمثبت من الهواتف .
٢٩٧ ـ د ، س : « قوم » ، القرم : السيد .
٢٩٨ ـ شطب الأديم والسنام : قطعهما ، أراد : لضربتك ضربة قوية تقطعك أرباً أرباً .
٢٩٩ ـ في الهواتف : « اذ » .
٣٠٠ ـ س : « دمت » .
٣٠١ ـ د : « أحد » ، وفي الهواتف : « فلم أر أحداً » .

٣٠٢ ـ الخبر برواية أخرى عن الاصمعي في ذيل الأمالي ١٥٠ ، وفي شعر عمرو ٧٤ ـ ٧٦ عنه •
٣٠٣ ـ كذا في ز ، د ، س في المواضع كلها • وفي ذيل الأمالي « خَزَز » وتابعه في ذلك جامع الديوان •
٣٠٤ ـ الأبيات برواية الأصمعي اتم من هذه وفيها كثير من الخلاف في الرواية ، وقد تقدمت بغير هذه المناسبة •
٣٠٥ ـ س : « حيث » •
٣٠٦ ـ د : « البطلان » •
٣٠٧ ـ في د ، س ، ز : « يا اسفا » ، مخروم الأول •
٣٠٨ ـ د ، س : « فلاسقي » •
٣٠٩ ـ د ، س : « قال : قال حدثني » •
٣١٠ ـ د ، س : « ثميلة » ، وقد رواه أبو الفرج في الأغاني ٢١٣/١٥ ووقع فيه : « نميلة » • والصـواب : « تميلة » بالتصغير • انظر تهذيب التهذيب ٤٨/١٢ •
٣١١ ـ سقطت من د •
٣١٢ ـ رواه ابن حبيب في المحبر ٢٦١ ، ٣٠٣ ، وقد تقدم في ص ١٢٠ •
٣١٣ ـ س : « بن » •
٣١٤ ـ د ، س ، ز « ست وستين » ، وسقطت : « يقال » من د •
٣١٥ ـ د ، س ، ز : « وعشرة » •
٣١٦ ـ الكراع : السلاح ، وقيل : هو اسم يجمع الخيـل والسلاح •
٣١٧ ـ د : « وقاتل » •
٣١٨ ـ ألبث فلان فهو مثبت : اذا أثبتته جراحه فلم يتحرك •
٣١٩ ـ قال ياقوت : « روذة ـ بضم أوله وسكون ثانيه وذال معجمة ـ قرية بالري ، وبروذة مات عمرو بن معدي كـرب منصرفا عن الري ، ودفن في موضع يقال له كرمانشاه» • معجم البلدان ٧٨/٣ ، وفي الأغاني ٢١٣/١٥ : « دفـن بروذة بين قم والري » وفي فتوح البلدان ٣١٦ « دفن فوق روذة وبوسنة بموضع يسمى كرمنشـاه » • وفي كتـاب البلدان ٢٦٩ : « وبالري دفن عمر بن معدي كرب » •
٣٢٠ ـ البيتان من غير عزو في البداية والنهاية ١١٩/٧ ، وهما مع ثالث سيأتي من الطريق التالي في الأغاني ٢٢٥/١٥ (ط • دار الكتب) منسوبة لامرأة عمرو الجعفية ، والبيت الأول في معجم ما استعجم ، ومعجم البلدان مادة « روذة » •
٣٢١ ـ رجل غمر : جاهل غر لم يجرب الأمور ، وفي البداية والنهاية : « يوم تحملوا » ، ورواية الأغاني ومعجم ما استعجم ستأتي من الطريق التالي • وفي معجم البلدان : « لاضعيفا ولا غمرا » •
٣٢٢ ـ في البداية والنهاية : « قريع الوغى » ، وفي الأغاني : « سنانكم » •
٣٢٣ ـ في ز ، س : « الوراق ، حدثني جدي لأمي محمد بن عبد الله » • ومثله في د اسم أبيه ولكن فيها : «جدي لأبي»، والصحيح انه : محمد بن عبيد الله بن الفضل بن قفرجل ، أبو بكر الكيال ، قال الخطيب في ترجمته : « حدثنا عنه ابن ابنته احمد بن محمد بن الفرج البزار » ، تاريخ بغداد ٣٣٢/٢ • وذكر في التاريـخ ٣٨٠/٤ : « احمد بن محمد بن احمد بن يعقوب المعروف بابن قفرجل ، أبوالحسين الوزان • سمع جده لأبيه أبا بكـر بن قفرجل » ، وقال : « كتبت عنه » ، وفي الأسانيد ما يؤيد انـه جده لامه ، انظر على سبيل المثال (عاصم ـ عايذ : ٤٩٢ ، ٣٦٩ ، ١٩٤) ، وقارن بتلخيص المتشابه ١٩٧/١ ، والأنساب ١٢١/٥ ، وفيه : « روى عنه ابن ابنته احمد بن محمد ، ومحمد بن الفرج البزاز » ، وهذا يجعلنـا نعتقد ان في تاريخ بغداد سقطا في الموضع الأول ، وتصحيفا في الموضع الثاني •
٣٢٤ ـ في الأغاني : « عنكم » ، ما أغنى نقرة ، يعني نقرة الديك ، وما أغنى عني نقرة ولا فتلة ولا زبالا •

مكانة الطبيب العربي أبي القاسم الزهراوي في تاريخ الحضارة

فريد جحا

مقـــدمـــات :

هل بقي شيء يقال تكريماً لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي ، بعد الاحتفال الذي أقيم تكريماً لمرور ألف عـام على وفاتـه في مؤتمر الطب الاسلامي بالكويت في عام ١٩٨٣(١) ، وبعد الأبحاث القيمة التي كتبت حوله في هذا المؤتمر ، وفي كتب : عبقرية الحضارة العربية مصدر النهضة(٢) وترا ث العرب لفؤاد سيزكن(٣) ، والعلم العـربي لألدومييلي(٤) ، ومقدمة لتاريخ العلم لسارتون(٥) ؟

نقول : نعم لقد بقيت أشياء كثيرة تقال فيما خلف هذا الطبيب العربي الكبير ، وتبقى الدراسات حوله ناقصة ما دام كتابه العظيم (التصريف لمن عجز عن التأليف) متناثراً على شكل مخطوطات في المكتبات العالمية ، ولم يحقق ويطبع كاملا حتى الآن(٦) مذكرين بأن حياته، كما سنرى ، لم يفصّل القول فيها ، وأنه كان الوحيد بين العلماء العرب الذي لم تعرّف به دائرة معارف الاسلام(٧) ، على دقة المشرفين عليها ، واهتمامهم ، وما يقدمون في نهايـة كل بحث من مراجع ومصادر .

مع أن أبا القاسم الزهراوي طبيب كبير مـارس الطب بنفسه طـوال خمسين عاماً(٨) وسجل نتائج خبرة نصف قرن ، في كتاب اعتبر بين أهم كتب تراث العلوم عند العرب ، كتاب اعتبر الزهراوي من أجله أكبر الجراحين العرب(٩) .

لذلك عولنا على كتابـة هـذا البحـث مسهمين في الاحتفـال بمرور ألف عـام على وفاته ، ومذكرين بمكانته في تاريخ الحضارة، وبالدعوة لتحقيـق موسوعتـه (التصريف) تحقيقاً علمياً ، ونشرها في أقرب وقت مستطاع ؛ وبأنه لقي في الغرب قديماً وحديثاً كـل

تجلة واكرام : فترجمت أجزاء منـه الى اللاتينية والعبرية والفرنسية والانكليزية وطبعت هذه الترجمات في فيينا والبندقية وباريس ونيويورك بين سنتي ١٤٧١ م و ١٩٧٣ م(١٠)٠

□ حياتـه وكتابـه :

أول من تعرض لذكر الزهراوي العالم الأندلسي أبو محمد بن حزم (٣٨٣ ـ ٤٥٧ هـ ٩٩٣ ـ ١٠٦٤ م) ضمن قائمة أعدها لمشاهير جراحي الأندلس(١١) ٠ ثم ظهرت أول سيرة لحياته لدى الحميدي (المتوفى عام ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م) في (جذوة المقتبس) التى عرّف به في أسطر قليلة قائلاً :

« خلف بن عباس الزهراوي ، أبو القاسم ، من أهل الفضل والدين والعلم ، وعلمُه ، الذي يسبق فيه ، علمُ الطب ، وله فيه كتاب مشهور كثير الفائدة ، محذوف الفضـول ، سماه كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف ٠٠٠٠ قال أبو محمد بن حزم ولئن قلنا : انه لم يؤلف في الطب أجمع منه للقـول والعمل في الطبائع والجبر ، لنَصْدُقَنَّ ٠ مات بالأندلس بعد الأربعمائة(١٢) ٠ »

وهي الأسطر التي نقلها حرفياً ابن بشكوال (٤٩٤ ـ ٥٧٨ هـ / ١١٠٠ ـ ١١٨٢م) مضيفاً اليها :

وذكره ابن سُميق في شيوخه(١٣) ٠

أما ابن أبي أصيبعة فلم يورد عنـه في موسوعته الكبيرة سوى ما يلي :

« كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبـة ، جيـد العلاج ، لـه تصانيف مشهورة في صناعة الطب،وأفضلها كتابه المعروف (التصريف لمن عجز عن التأليف) ، وهو أكبر تصانيفه وأشهرها ، و هوكتاب تام في معناه(١٤) ٠ »

يغلب على الظن أن أبا القاسم خلف بن عباس الزهراوي(الذي عرف في التسمية اللاتينية بـ Abulcasis ، أو Albucasis)قد ولد في مدينة الزهـراء فيما بـين عامي ٣٢٥ و ٣٢٩ هـ / ٩٣٦ ، ٩٤٠ م(١٥) ، وهي المدينة التي بناها عبد الرحمن الناصر الخليفة الأموي في سفح جبل العروس الى الشمال الغربي من مدينـة قرطبة المزدحمة بسكانها الذين قدر عددهم ، في ذلك الوقت ، بنصف مليون نسمة ٠ أنشأها بدءاً من عام ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م وانتهى مـن بنائها في عام ٣٢٩ هـ / ٩٤٠م ، وأطلق عليها اسم الزهراء نسبة الى (زهرة) ، زوجتـه الأثيرة ، فضمت قصوراً ملكية منيعة، وأحياء للسكن ، ومسجداً ، ومدارس ، وحدائق ، حتى أطلق عليها بعض المؤرخين (فرساي الأمويين) ٠

عاش أبو القاسم في الزهراء ، ودرس الطب والجراحة فيها ، كما مارسهما وعلمهما حتى قبيل وفاته ، التي كانت في عام (٤٠٤ هـ / ١٠١٣ م) ، أي بعد وقت قصـير مـن سقوط هذه المدينة الحبيبة الى نفسه في أيدي البربر الذين نهبوا نفائسهـا ودمروهـا ، ولعل هذا من أسباب ضياع الكثير مما خلف هذا العالم الكبير ٠

الم يقل ابن أبي أصيبعة :

« وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب وأفضلها كتابه المعروف ٠٠٠٠ وهو أكبر تصانيفه واشهرها(١٤) »؟

يلقب الزهراوي أيضاً بالأنصاري ، وفي هذا دليل على انتمائه الى القبائل العربية التي تنتهي بنسبها الى الأنصار ، الذين نزحوا من المدينة المنورة الى الأندلس ، وأقاموا فيها ، مما يوحي بأنه عربي الدم والانتماء ، اضافة الى عروبة ثقافته والحضارة التي عاش في ظلها ٠

يحتوي كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) على مادة زاخرة بالمعلومات الطبية التي جمعها صاحبها طوال نصف قرن من التدريب والتدريس والممارسة ، وهو يقع في ثلاثين مقالة نسرد فيما يلي عناوينها :

رقم المقالة	عنوان المقالة	رقم المقالة	عنوان المقالة
١	مقدمة في الطب وأقسامه ـ علم التشريح	١٥	مربيات الفواكه والأزهار
٢	تقسيم الأمراض وعلاماتها وعلاجها	١٦	السفوفات
٣	صفات المعاجين التي تخمر وتدخر	١٧	الأقراص
٤	الترياقات والأدوية المفردة الداخلة فيها	١٨	أدوية الاستعمال الخارجي
٥	الايارجات ادخارها وتخميرها	١٩	أدوية الزينة
٦	الحبوب المسهلة المرة	٢٠	أدوية علل العين
٧	الأدوية المقيئة	٢١	أدوية مداواة الفم والأسنان
٨	الأدوية المسهلة اللذيذة الطعم والرائحة	٢٢	أدوية علل الصدر
٩	الأدوية القلبية	٢٣	الأضمدة المستعملة في العلاج
١٠	الاطريفلات (معاجين هندية)	٢٤	المراهم
١١	الجوارشنات (معاجين هاضمة)	٢٥	الأدهان البسيطة والمركبة
١٢	أدوية الباه والسمنة والتهزيل	٢٦	أطعمة المرضى
١٣	الأشربة والسكنجبيات والربوبات	٢٧	قوى الأغذية وخواص الأدوية
١٤	النقوعات والمطبوخات	٢٨	في اصلاح الأدوية
		٢٩	تسمية العقاقير وأبدالها وأعمارها
		٣٠	العمل باليد (الجراحة ـ الجبر)

وقد أجاد الدكتور سامي خلف حمارنة استخلاص أخلاق الزهراوي من كتابه في الصفحة التالية :

« يعرب الزهراوي في مؤلفه ، التصريف ، عن قلقه على مصير طلابه ويسميهم « أبنائي » ، كما نراه يتجشم المشاق ويتخذ كل التدابير حتى يؤمن سلامة مرضاه ويكتسب ثقتهم ، ويستوي في ذلك الفقراء المهيضو الجناح منهم أو الأثرياء من الصفوة وأصحاب الجاه • ونراه يشدد على العلاقة الطبية بين الطبيب ومريضه ويشجع على وجود تفاهم وتعاون وثيقين بين زملائه من الأطباء وزبائنهم • كما أكد على ضرورة الملاحظة الدقيقة للحالات المتفردة حتى يضمن القائم بالعلاج صحة تشخيص المرض وأفضل الوسائل للشفاء ، اما بالعقاقير أو الحمية أو بهما معاً • ولم يغفل الزهراوي المعايير الأخلاقية بل الح على الالتزام بها ، وحذر من اتباع الأساليب اللاأخلاقية والمشبوهة التي يتبعها بعض الأطباء طمعاً في الكسب المادي • كما حمل على أدعياء الطب والمشعوذين الذين زعموا أن لديهم مهارات في ميدان الجراحة ، وهم في واقع الأمر أفاقون(١٦) • ».

لا يزال كتاب (التصريف) مخطوطاً ، لم ينشر نشراً علمياً منه سوى المقالة الأخيرة ، ومخطوطات الكتاب الكثيرة متناثرة في مكتبات العالم ، الا أن النسخ الكاملة منها قليلة العدد ، ونادراً ما تجتمع كلها ، فليس في العالم سوى بضع مخطوطات تضم الكتاب بكامله(١٧). يضاف الى هذا أن أكثر هذه النسخ لا تحوي رسوم الأدوات الطبية التي زين بها الزهراوي مقالته الأخيرة الخاصة بالجراحة •

□ مكانة أبي القاسم الزهراوي في تاريخ الحضارة :

لأبي القاسم الزهراوي في تاريخ الحضارة مكانة خاصة نجملها في الأمور التالية :

١ ــ الزهراوي طبيب وجراح وصيدلي : طبيب مارس الطب ، ومارس الجراحة التي أجمع الذين قرأوا بعناية مقالته الأخيرة عنها ، وما سجل فيها من وصف للأدوات الجراحية التي اخترعها ، وعمل بها ، وللأمراض التي ذكرها ••• أجمعوا على أنه قد قام بالكثير من العمليات الجراحية • يقول الدكتور أمين أسعد خير الله معبراً عن هذه الفكرة :

« ان من يطالع كتاب التصريف لا يتمالك عن الاعتقاد بانه قد شرح الجثث بنفسه ، لأن وصفه الدقيق لاجراء العمليات المختلفة ، لا يمكن ان يكون نتيجة النظريات فقط(١٨) • »

٢ ــ تعزى أعظم الانجازات في جراحة القرون الوسطى للزهراوي ، الذي كرس المقالة الأخيرة للجراحة بما فيها الكي ، ومعالجة الحروق ، واستخراج السهام وصحة الفم ، وتجبير العظام من الكسور البسيطة والمركبة • ولقد استعمل المطهرات في معالجة الجروح والخدوش الجلدية ، وابتكر الخيوط الطبية من أمعاء الحيوانات ، ومن الحرير ، والصوف ، ومن مواد أخرى(١٩) •

٣ ـ طوّر تقنيات جديدة لتوسيع المجاري البولية ، ولاكتشاف تجاويف الجسد جراحياً ، واستعمل في عملياته الجراحية حوالي مائتي أداة جراحية ، صمم الكثير منها بنفسه، واورد رسوماً لها في كتاباته • ان أمثالهذه الأدوات مع بعض التعديلات ، استعملها فيما بعد جراحون من العالم المسيحي ،علاوة على الجراحين العرب والمسلمين •

٤ ـ بحثُ الزهراوي في صحة الأم والطفل ينطوي على أهمية خاصة في تاريخ التمريض لأنه يوحي بوجود مهنة مزدهرة تمارسفيها الممرضات والقابلات أدوارهن في مجال الخدمة العامة • ويظهر ، مما كتب ، أنالأطباء ، من أمثال الزهراوي ، كانوا يرشدون ويدربون القابلات ، كي يؤدين واجباتهن بكفاية(٢٠) •

٥ ـ كان الزهراوي بالاضافة الى ذلك صيدلياً فالجزء الأعظم من موسوعته مخصص لعلم العقاقير « كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة والمركبة(٢١) » وهو قد أثبت فيها أنه في مجال الصيدلة ، ليس أقل حذقاً مما هو في مجال الجراحة

٦ ـ المقالة الثامنة والعشرون متميزة ، يصففيها المستحضرات الكيميائية ، وصنع حبات الدواء ، واستخلاص المستحضرات عنطريق الترشيح ، والتقنيات الصيدلانية المتعلقة بذلك(٢٣) •

٧ ـ في الفصل الثالث والخمسين يتناولالزهراوي علاج السرطان فيقول :

« وذكرت الأوائل أنه متى كان السرطان في موضع يمكن استئصاله كله ، كالسرطان الذي يكون في الثدي ، أو في الفخذ،ونحوها من الأعضاء المتمكنة لاخراجه بجملته ولا سيما اذا كان مبتدئاً صغيراً ،فلتفعل • وأما متى قدم وكان عظيماً فلا ينبغي أن تقربه فاني ما استطعت أنأبرىء منه أحداً ، ولا رأيت قبلي غيري وصل الى ذلك ، والعمل فيه اذا كانممكناً كما قلنا ، أن تتقدم فتسهل العليل من المرة السوداء مرات ، ثم تفصدهان كان في العروق امتلاء بيّن ، ثم تنصب العليل نصبة يتمكن فيها بالعمل،ثم تلقي في السرطان الصنانير التي تصلح له ، ثم تقوره من كل جهة مع الجلد علىاستقصائه حتى لا يبقى شيء من أصوله ، واترك الدم يجري ولا تقطعه سريعاً بل اعصر المواضع ، واسلت الدم الغليظ كله بيدك ، أو بما أمكنك من الآلات ، فان اعترضك في العمل نزف دم عظيم : من قطع شريان ، أو وريد ، فاكوالعِرق ، حتى ينقطع الدم ثم عالجه بسائر العلاج الى أن يبرأ(٢٤) •

وهو نص هام جداً فيما يتعلق بهذا المرض الوبيل •

٨ ـ ذكر الزهراوي في موسوعته مائتي آلةجراحية موصوفة ومرسومة ، والكثير منها قد اخترعه هو ، وبينها المشارط والصنانير والمسابر والجفوت والكلاليب والمثاقب والمدسات • ويحتوي كتابه أيضاً علىأول صورة في التاريخ للمقص الحقيقي ، الى جانب صورة لأول محقن في التاريخالطبي ، الذي يسميه (زرّاقة)(٢٥) •

٩ ــ يورد الزهراوي لأول مرة في تاريخ الطب وصفاً دقيقاً لطريقة جرد الأسنان ، والفصل الثلاثون من المقالة الأخيرة ، فصل هام ، في قلع الأضراس ، يتميز بالدقة العلمية ، أما الفصل الثاني والثلاثون ، فأول ما كتب في تاريخ الطب ، عن تقويم الأسنان الذي أصبح الآن علماً قائماً بنفسه ، ويتحدث الزهراوي فيه عن نشر الأضراس النابتة على غير مجراها ، وعن تشبيك الأضراس المتحركة بخيوط الذهب(٢٦) .

١٠ ــ صنف الجراح الفرنسي المشهور غي دوشولياك Guy de Chauliac من القرن الرابع عشر ، الزهراوي في مصاف أبقراط وجالينوس ، وذكر فابريسيوس آب أكوابيدينتي Fabricius Ab Aqupedente من القرن السابع عشر أنه مدين بعلمه لثلاثة أطباء : أحدهم روماني هو Celsus والثاني اغريقي هو باولوس الأجانطي Paulus Aegineto والثالث عربي هو أبو القاسم خلف الزهراوي(٢٧).

وقال عنه ألدوميلي ، سيد من كتب عن العلم العربي : « انه أشهر الأطباء الأندلسيين ، وواحد من أكبر الأطباء العرب المسلمين ، وأعظم الجراحين العرب طراً ، وكان تقديره لدى اللاتين لا يقل عن تقديرهم للرازي وابن سينا »(٢٨) .

* * *

هوامش وتعليقات :

١ ــ القيت حول الزهراوي ابحاث عديدة باللغتين العربية والانكليزية ، ولم تصدر في كتاب ، الا اننا تمكنا من الاطلاع على صور عنها مطبوعة على الآلة الناسخة ، وقد زودنا بها الصديق الصيدلي السيد محمد يحيى خراط الذي نشكره جزيل الشكر على ذلك .

2 — The Genius of Arab Civilization Westerham press, New York 1975.

٣ ــ تاريخه حول المخطوطات العربية ج ٢ ليدن ١٩٧٧ ص ٣٢٣ وهو باللغة الالمانية .

4 — Alda Mieli, La Science Arabe, Brill, Leiden, 1966, p. 181.

5 — Introduction to the History of Science V. I, p. 681 - 682.

٦ ــ طبعت المقالة الأخيرة منه المتصلة بالجراحة وادواتها مع ترجمة لها الى اللغة الانكليزية من قبل بينكرولويس بعنوان:
Albucasis on Surgery and Instruments, University of California press, 1973.

ويقوم الصيدلي محمد يحيى خراط حالياً بتحقيق القسم الصيدلي من الكتاب لنشره ودراسته تمهيداً للحصول على شهادة الماجستير في تاريخ العلوم عند العرب ، من معهد التراث العلمي بجامعة حلب باشراف الدكتور زهير البابا .

٧ ــ راجعنا في النسخة الفرنسية مادة خلف Khalaf وأبي القاسم فاحالتنا على مادة الزهراوي Al-Zahrawi ولما رجعنا الى هذه الأخيرة لم نعثر عليها البتة .

٨ ــ سامي خلف حمارنة ، مقالة الزهراوي في كتاب عبقرية الحضارة المشار اليها سابقاً ص ١٧٠ .

٩ ــ سارتون المصدر السابق ص ٦٨٢ .

١٠ ـ من أهم هذه الترجمات ، ترجمة لوسيان لوكلير عام (١٨٦١) بعنـــوان La Chirurgie d'Albucasis .
وترجمة سبينك ولويس المشار اليها فيما سبق •

١١ ـ سامي خلف حمارنة ، المصدر السابق ص ١٧٠ •

١٢ ـ جذوة المقتبس في ذكره ولاة الاندلس طبع الدار المصرية للتاليف والترجمة القاهرة ١٩٦٦ • ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩ •

١٣ ـ ابن بشكوال : كتاب الصلة في تاريخ ائمة الاندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وادبائهم • مكتب الثقافة الاسلامية ـ القاهرة ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥ م ص ١٦٢ •

١٤ ـ ابن ابي أصيبعة ، عيون الانباء في طبقات الأطباء ،منشورات دار الحياة بيروت ١٩٦٥ ص ٥٠١ •

١٥ ـ سامي خلف حمارنة ، المصدر السابق ص ١٧٠ •

١٦ ـ عبقرية الحضارة العربية ، مقالة الزهراوي ص ١٧٢ من النسخة الانكليزية •

١٧ ـ الدكتـور زهـير البابـا ، مقالته في ندوة الزهـراوي بالكـويت عام ١٩٨٣ ، بعنـوان : الصيدلي أبو القاسم الزهراوي ص ٥١٤ •

١٨ ـ د• أمين أسعد خير الله ، الطب العربي ، المطبعة الأميركانية ، بيروت ـ ١٩٤٦ ص ١٧٣ •

١٩ ـ سامي خلف حمارنة ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ •

٢٠ ـ سامي خلف حمارنة ، المصدر السابق ص ١٧١ •

٢١ ـ ابن ابي أصيبعة ، المصدر السابق ، والصفحة ذاتها ، واحمد مختـار منصـور ، مقالتـه عن الزهراوي في ندوة الكويت ص ٤٥١ •

٢٢ ـ الدكتور زهير البابا ، المصدر السابق ص ٥١٤ •

٢٣ ـ سامي خلف حمارنة ، مقالته في ندوة الكويت ص ٣٤٣ •

٢٤ ـ أحمد مختار منصور ، المصدر السابق ص ٤٥٩ •

٢٥ ـ أحمد مختار منصور ، المصدر السابق ص ٤٥١ •

٢٦ ـ أحمد مختار منصور ، المصدر السابق ص ٤٧٢ ـ ٤٧٣ •

٢٧ ـ محمد ظافر الوفائي ، مقالته في ندوة الزهراوي بالكويت ص ٤٨٥ •

٢٨ ـ الدوميلي ، المصدر السابق • ص ١٢٨ •

★ ★ ★